الاستقامة
في العمل والدعوة

محمد فتح الله كولن

سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة (٣)

الاستقامة في العمل والدعوة

Copyright©2015 Dar al-Nile

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاسترجاع الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع

الترقيم الدولي

ISBN: ~~978-975-315-659-2~~

رقم النشر

~~534~~

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax:002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

سلسلة أسئلة العصر المحيِّرة

(٣)

الاستقامة في العمل والدعوة

تأليف:

محمد فتح الله كولن

ترجمة:

أورخان محمد علي - د. عبد الله محمد عنتر

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

الدعوةُ والتبليغ بينَ الأَجْرِ والأُجْرَةِ..... ٩
خصائص التبليغ..... ١٥
الهمُّ الأوحدُ للنبيّ محمّد ﷺ ٣٩
حكمةُ المنع..... ٤٧
فاتر الهمّة وتارك الخدمة..... ٥١
مفهوم الأخوّة ٥٧
الشحذُ الروحي والشدّ المعنوي..... ٦٣
الحفاظ على الأجيال ٦٩
الغُنْمُ بالغُرْمِ ٧٣
الحِفاظُ على الشدّ المعنويّ ٧٩
التحرّر والإلحاد ٨٥
داء الإلحاد ودواؤه..... ٩٥
تنوّعُ المشارب في الإسلام..... ١٠٣
شرحُ الإسلام بالعلم..... ١١٥
الإلفُ والعادةُ ١٢١
ثقافة القراءة..... ١٢٧

مقوّمات بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى ١٣٣
الجنديّة الخالصة لله تعالى..... ١٤٣
الخشيةُ واستنهاض الهمّة ١٤٧
التهيئة الفكريّة والتحضير القلبي للصلاة..... ١٥٧
فِتَنُ آخِرِ الزمان: الداءُ والدواءُ..... ١٦٧
لن نخرج عن مجتمعنا ١٧١
الجهادُ الأصغر والأكبر ١٧٥
محنة التفرُّق وفتنة الخلاف الداخلي ٢٠٩
إقامة التوازن بين الدنيا والآخرة ٢٢٣
تخليصُ الإرادة من قبضةِ مشاعرِ الشرِّ وقتَ الفراغ ٢٣٣
كيفَ ننجحُ في الامتحانات الإلهيّة ٢٣٩
معيارُ زيّنا..... ٢٤٣
الأستاذ النُّورْسي ومدينة "وان"..... ٢٤٧
مقياس العفوِ عند المسلم..... ٢٥١
السخريّة من ذوي الإيمان ٢٥٥
الهجرة في سبيل الله ٢٥٩
مصادر ٢٧٣

الدعوةُ والتبليغ بينَ الأَجْرِ والأُجْرَةِ

سؤال: هل تجوز الاستفادة الشخصية من وسائل الإرشاد والتبليغ مع أن الآية الكريمة تضع قاعدة الاستغناء: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾؟

الجواب: هناك خمسة أنبياء كرام قالوا لقومهم ﴿**إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ**﴾ وهم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط ﷺ، وفي مواضع أخرى يعبر إبراهيم وموسى ﷺ عن هذا المعنى أيضًا، ولكن هذا التعبير أي ﴿**إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ**﴾ وارد في حقّ الأنبياء الخمسة المذكورين أعلاه، كما عبر الرجل الصالح "حبيب النجار" عن هذا المعنى في سورة "يس" عندما قال: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ (سورة يس: ٣٦/٢٠-٢١). ويعبر نوح عليه السلام عن هذا المعنى أيضًا في موضع أخر ولكن بكلمات أخرى، أي إن الأنبياء العظام ﷺ لا يسألون الناس أيّ أجر مقابل قيامهم بوظيفتهم في الدعوة إلى الله ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/١٠٩)، إذًا فهذا عهدٌ أعطاه كل نبي لله تعالى بألّا يسألوا الناس -مقابل أدائهم لوظيفة النبوة- أيَّ أجرٍ أو نفعٍ.

وعلى كل مَنْ أَخَذَ على عاتقه مهمّة التبليغ ونشرِ الحقّ الاقتداءُ بالأنبياء العظام، وعلى كلّ مَن يقوم بالخِدمة من أجل الله سائحًا في القُرى والبُلْدان أن يترفّع بنفسه عن قَبول أيّ أجرٍ أو منفعةٍ مقابلَ خدماته في نشر الحقّ والحقيقة؛ لأن تأثير كلامِهِ على الناس في يدِ الله تعالى، وقد ربطَ الله تعالى تأثيرَ كلام هؤلاء بنسبة إخلاصهم وصِدقهم وإيثارهم لغيرهم وعدم انتظارهم أيّ شيء مقابل أدائهم لوظيفة الإرشاد، لذا كان كلام الأنبياء العظام والأصفياء مؤثرًا، فإذا كان الكلام لا يؤثّرُ كثيرًا في أيامنا الحالية فلأنه لم يَحُزْ على بعض الشروط الضرورية للتأثير.

أجل، فالله تعالى لا يجعل لكلام الذين يريدون تحصيلَ الأجر في الدنيا أيَّ تأثيرٍ أو قبولٍ في النفوس، وهذا من الأهمّية بمكان، إلى جانبِ أن الذين يقومون بوظيفة الإرشاد والدعوة عليهم أن يقتدوا بالأنبياء العظام فَيَبْرَؤُوا بأنفسهم عن أيّ أجرٍ دنيويّ مقابلَ إرشادهم ونَشْرِهِم الحقَّ، وهذا يجنّبهم التعرّض لانتقادات أهل الدنيا، لأن أهل الدنيا سيقولون "إن هؤلاء يقومون بنشر الحقّ، ولكنهم يتمتّعون بثمرات عملهم هذا في الوقت نفسه ويؤمّنون عيشهم بهذا الطريق"، ألا ترون أن قارئ الموالد النبوية ينشدُ المدائحَ النبويّة ويعظّم الله تعالى بكلماته، ومع ذلك يتعرّض للنقد وللغمز واللّمز؟... وما ذاك إلا لأنه يتحصل على الأجرة مقابل ذلك، وكأنه يقول "لقد مدحتُ الله تعالى... إذًا أعطني مالًا"، لذا فلا يؤثّر كلامه ولا مدائحه في ضمير الشعب، وما دامت النية كسبَ المال فلن يكون له أي تأثير، ولكنك ترى في جانب آخر واعظًا في مسجد أو زاوية ما، يبتغي وجه الله فقط، ذا صوت ضعيف ولكنه يؤثر في سامعيه تأثيرًا بيّنًا، فتأثيرُه متوقّفٌ على مدى استغنائِهِ عن الناس عند قيامه بنشر الحقّ.

فيا ليتَ شِعري كم يتمنى القلبُ ألّا يلتفتَ إلى الدنيا ومتاعِها القائمونَ بمهمَّـةِ الدعـوة إلى الله وخدمة الإسـلام والقرآن، والذين يسـعون إلى أن يجعلوا من هذه المهمة طريقًا يوصلهم إلى مرضاة الله، والقدسيون الصنّاع الحقيقيون للمسـتقبل، والمثقفون والمباركون الذين يعشـقون النور، وأن يحافظوا على أنفسهم ويصونوها من كل دَنَسٍ ومن كلّ شائبة، وأن يكون الاسـتغناء عن الناس شـعارهم، وألّا يطلبوا أجرًا من أحد مقابل خدمتهم في نشرِ الحق، وأن يكتفوا بالكفاف، وألّا يتركوا عندما يرحلون عن الدنيا دارًا ولا مـالًا، ويمكننـا أن نقـول جازميـن: إنّه لا أحدَ مـن العظماء على مستوى العالم حتى يومنا هذا كان يملك بيتًا أو متاعًا دنيويًّا.

عندما تدلف إلى الروضة الشـريفة في المدينة المنورة تجد بابًا يدعى بابَ عمر، فأين البيت الذي بقي من عمر وما أدراك ما عمر!؟ وهو من كان على رأس الدولة الإسـلامية، وهو من وَطِئتْ حوافرُ خيلِ جيشِـهِ شواطئَ بحـر آرال، وفتح البلادَ ودوّخَ العباد، فليحذرِ الدعاة من تضخيم ثرواتهم وتكبيـرِ تركاتهـم، ولا يحرصوا على اقتناء الـدُّورِ والأموالِ والأملاكِ، بل عليهم أن يعيشـوا مسـتغنين عن الناس، ولقد رأينا في عصرِنا الحاليِّ أحدَ الدعاة الذين تجشّـموا الصعوبات في سباق خدمة ديننا وأمتنا عندما توفّيَ لـم يجدوا في مِحْفَظَتِهِ سـوى خمسٍ وعشـرين قطعة نقـودٍ من فئة خمسٍ وعشـرين قرشًـا... فما أحسنه من مثال، إذ عَلَّمَ الأصدقاء والأعداء، وأكّدَ للجميـعِ أنَّ خِدْمَةَ الإسـلام ليس وراءها طمـعٌ في أيِّ عَرَضٍ من أعراض الدنيا.

أجل، إن على الدُّعاة أن يؤمّنوا قوتَ عيالهم كيلا يُلجِئوهم إلى السؤال، وأن يعلّموهم ليكونوا أصحابَ مهنةٍ أو وظيفة، فلا بد لمن يُبلِّغون الإسلام

ألّا ينشدوا حقَّ الانتفاع مقابل ذلك، وألّا يبحثوا عن رغباتهم الشخصية، ليس هذا فقط؛ بل عليهم أن يضحّوا حتى بالفيوضات المادية والمعنوية لكي يحافظوا على الثقة بهم، عليهم ألّا يهتموا بحياتهم الشخصية، بل بإحياء النفوس، فإن فعلوا ذلك لم تستطع الدنيا ولا إغراءاتها أن تنفذ إلى حياتهم ولا إلى خيالهم ولو للحظة عابرة، وإلّا فقدوا الثروة الحقيقية (وهي ثقةُ الناس بهم والصفاءُ والنقاء) التي اكتسبوها، فلا يفلحوا بعد ذلك أبدًا، والذين يركضون وراء الدنيا وهم يسيرون في سبيل تحصيل مرضاة الله تعالى ستكون عاقبتهم وخيمةً، وسينالُ حتى عيالهم وأحفادهم نصيبًا من هذه العاقبة، وعندها يتألّمون ويتأوّهون.

على الدعاة إلى الله أن يعيشوا حياةً ملؤُها الإخلاص والاستغناء عن الناس بحيث يشهد الجميع حتى سكان الملإ الأعلى لهم بالإخلاص ويقولون "هؤلاء هم المخلصون"، فمن لم ينجح في امتحان الدنيا سيرسُب حتمًا في الآخرة، ومن رزح تحت ثقل الدنيا تعوقه العقباتُ الكؤود التي أمامه، أما من تغلّبوا على الدنيا فكانوا دائمًا من بين الذين تجاوزوا دنياهم وأنفسهم، فكم من بطلٍ لم يخلف وراءه تَرِكةً سوى جوادٍ وسيفٍ ورمحٍ، وعندما حضرت الوفاة خالد بن الوليد ﷺ -وهو الذي قضى على إمبراطوريتين عظيمتين- قال: "لم أُخَلِّفْ ورائي سوى جوادي وسيفي"، والحقيقة أنه يصعب فهم هؤلاء، لذا لا يملك الإنسان نفسَه من القول لمثل هؤلاء "قل لي بالله عليك أأنت ملَك أم صوفي أم درويش؟! قل لي مَن أنت؟". أجل، إن رجلًا مثل خالد بن الوليد ﷺ الذي حوّلَ إمبراطوريَّتي فارس والروم إلى أثرٍ بعد عين لم يُخَلِّفْ وراءه تِرِكَةً سوى جواد وسيف، ولكنه يعيش في قلوبنا إلى الآن، وسيبقى كذلك حتى يوم القيامة.

وحُمادى القول: إن الدعوة إلى الله مرتبطةٌ مع صفة الاستغناء عن الناس ارتباطًا وثيقًا لا انفصام له، لذا فعلى الدعاة المخلصين اليوم الذين ترفّعوا عن حُطامِ الدنيا ومتاعِها أن يُفكِّروا في نصرة القرآن الذي بقي وحيدًا دون نصير منذ ثلاثة قرون، وفي روحانية الرسول ﷺ الذي ينتظر جيل الفجر الجديد، وأن يأخذ هذا التفكير بمجامع قلوبهم إلى أن يملأها فلا يُبقي فيها مكانًا لأيّ شيءٍ آخر، إن الدنيا تنتظر اليوم عهدًا جديدًا، والذين يمثلون دعوة الإسلام والقرآن الآن يُهَدهِدون بِتَرنيمة انبعاثٍ جديدة، وما ذكرناه حتى الآن هو صفةٌ واحدةٌ فقط من صِفاتِ هؤلاء.

والجانب الآخر من هذه المسألة هو: أنّ القائمين بخدمة الإسلام والقرآن عليهم ألّا يربطوا معيشتهم بأمور هذه الخدمة، وإن هذه الأمّة أمة غيورة، فلن تدع العاملين المخلصين وحدَهم، بل تعاونهم وتساعدهم، ولكن على العاملين أن يكونوا مستغنين وألّا يطلبوا شيئًا، ولكن لا بأس من قيامهم بأخذ ما يكفي لإقامة الأَوَدِ، وأنا أستند في هذا إلى قوله تعالى: ﴿**وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا**﴾ (سورة التَّوْبة: ٦٠/٩)، فالعامل في سبيل خدمة المسلمين والذي يجمع الضرائب والزكاة لصالح المسلمين له الحقّ في الاستفادة منها وإن كان غنيًّا، لذا لا أرى هنا أيَّ محظورٍ عند قيامهم بأخذ ما يكفي لمعيشتهم، ولكن أُكَرّرُ وأقول إن الأساسَ عند جنود الخدمة هو الاستغناء وعدم مدّ أيديهم إلى الناس أو انتظار شيء منهم، وهذه السِّمةُ من الصفات المهمة لهؤلاء الأبطال الذين يريدون أن يهيئوا غدًا مشرقًا للإنسانية.

خصائص التبليغ

سـؤال: ما الخصائص التي لا بدّ مـن مراعاتها عند تعلمنا للدين وتعليمه لغيرنا، وما الذي يجب أن يكون عليه منهجُنا في التبليغ؟

الجواب: التبليـغ هو غاية إرسال الرسل، ولذا فإن أهمّ وظيفةٍ حياتيّةٍ تقـع على عاتقنا هي شـرحُ المسـائل التـي كُلّفنا بها وتبليـغُ الناس إيّاها، وأُولـى وظائفنا هي إعادة النظر في جميـع الأصول والمناهج القديم منها والجديـد في هذا الموضوع، وتطبيق المبادئ التي نسـلم بإمكانية تطبيقها فـي عصرنـا والتي نؤمن بأنها تفضي إلى نتيجةٍ فاعلة، وليس من الصحيح أن نحصر مسـألةَ التبليـغِ في المعلم والطالب أو إمام المسـجد والمؤذن أو المدرسة والمسجد، بل ينبغي لكلِّ مُكلّفٍ أن يخدم حيث هو في إطار أصول هذه الخدمة.

فالإنسـان تلميذُ الحياةِ الدؤوب؛ بمعنى أن الحياة بالنسـبة له هي أهم المـدارس وأخطرهـا، والمدرسـة بمعناها الخاص لا تتعهّـد أو تتكفّل إلا بمسائل فرعيّة في الحياة، والأساتذةُ والشيوخُ ذوو الخبرات فيها يمحّصون ما اكتسبوه من خبرات ويحاولون نقلَها إلى تلاميذهم، بيد أن كل فردٍ في مدرسـة الحياة العامة هو في الوقت نفسـه تلميذٌ وشيخٌ وأستاذٌ، فهو يُعلّمُ ويَتعلّمُ باستمرار.

ولا يختلف الوضع بالنسبة لمسألة الإرشاد والتبليغ، فالمسائل التي يتمّ تعليمها أو تعلُّمها في المدارس لا تُشكّل إلّا جزءًا من منظومة هذه الوظيفة، ولا يستطيع الإنسان بالمعلومات التي اكتسبها هناك إلّا أن يرقى إلى مستوى معين، غير أن نظرته إلى الحوادث والأشياء تتغير وتتطوّر، ويتّسع أفقه، فيتمكن من حمل وظيفة الإرشاد والتبليغ إلى أندادِه وأَتْرابه.

لكن هذه المهمة لا تتوقّفُ عند ذلك، بل سيتعلم بعد انطلاقه في الحياة أشياء محاولًا تقديم ثمار تجاربه التي حصل عليها إلى من حوله، ولذا فالإنسان مضطرٌّ أيًّا كان عمره أو مستواه إلى شرح المسائل التي تعلمها إلى الآخرين، وهذه هي أهمُّ وظيفةٍ حياتيّةٍ بالنسبة له.

وفي الواقع هذه هي الغاية من وجودنا؛ لأن الحقّ تبارك وتعالى أرشَدَنا بقوله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥٦/٥١)، إلى أن العبودية هي الغاية من خلق الإنس والجن، والجميع يتنافسُ في إطار مفهوم العبودية، فمنهم من يتعثر ويظلّ في الطريق ولا يبرحه ومنهم من يرقى ويرقى، فيكون بذلك جديرًا بأن يدخل في عداد الزمرة التي حازت على أعلى وأعظم المقامات عند الله.

إن معرفة الله وعبوديّته هي غاية الفطرة والهدف الوحيد من الخلق، وبينما تقتضي العبودية من جهةٍ بعضَ الأمور مثل الإنصات والشرح والتسليم والمعايشة وتوجيه كل أمور الحياة إلى العبودية فهي تهدف من ناحية أخرى إلى صفاء الأفكار والوصول بالإنسان إلى أفق التفكر في خالقه ليس إلا، ولذا فهي مهمّة ثقيلة، وبقدر هذا الثقل فهي جليلة مقدّسة.

يقول ربنا تبارك وتعالى في الآية الحادية والعشرين من سورة البقرة آمرًا بعبوديته: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٢١/٢).

يعني اعبدوا ربكم، فهو من خلقكم وخلق الذين من قبلكم، بيده سبحانه الخلق والأمر، فهو من أوجدكم، وخلق فيكم في الوقت ذاته وسائل الخلق من عناصر وجُزَيئَات وجُسيمات، بمعنى أنه خلق ما قبل الخلق والذي تُطلقون عليه "الخلقَ الأول"، وبمعنى آخر: هو الذي خلق الذين من قبلكم.

هو من أهلك كثيرًا من الأمم، فلا قِبَلَ لكم أن تتصوّروا كيف أهلك أمثال فرعون والنمرود وشدّاد (أطغى حكام قوم عاد)، وهم الذين كانوا يسيرون في الأرض بتكبُّرٍ وتبختُرٍ.

ثم جعل روما المتغطرسة وبيزنطة واليونان -وحتى السلاجقة والعثمانيين من ناحية ما- أثرًا بعد عين بمحضِ إرادته ﷻ، وهو الذي خلق كل هؤلاء جميعًا كما خلقكم.

إذًا عليكم أن تعبدوا ذلك الخالق الذي أحاطت قوته بكل شيء، وأن تأخذوا الماضي والحاضر والمستقبل بعين الاعتبار وتجعلوا منه عبرةً وعظةً؛ حتى يتسنى لكم الدخول في دائرة التقوى، فإن فعلتم ذلك أحسنتم تقويمَ حياتكم، وكنتم أكثرَ الناسِ تقوًى وتوقيرًا لله، ووصلتم إلى الغاية السامية من حياتكم سيرًا على الصراط المستقيم.

هو الذي جعل لكم الأرض فراشًا، تجدون كلَّ ما تسألونه بجانبكم وبالقرب منكم، وكأنكم مرضى على هذا الفراش، وإنّ مالكَكم ومالكَ هذا العالم الذي ينفذُ حكمُهُ في كلِّ شيءٍ يحتفي بكم حفاوةَ ضيوفه الكرام.

أجل، لقد جُعلت لكم الأرض فراشًا، فلو أُصيبت بأيّ عطبٍ لوقعتم في حالةٍ يُرثى لها، ولضاقت عليكم الدنيا بما رحبت.

وهو الذي يسَّـرَ لكم كلَّ شـيءٍ، يأتيكم بالطعام، ويقلّبكم ذات اليمين وذات الشـمال على فرشـكم، فلو فكّرتم في هذه الآية وبحثتم عن حكمةِ التقلُّب يمنةً ويسـرةً في فرشكم ستجدون أن تلك الآية وكأنها قد سُطرت بالنجـوم على صفحة السـماء، وعرضـت على أنظاركم تشـاهدونها على فرشكم الوثيرة التي تستمتعون بالاسترواح عليها.

ثم جعل السماء سقفًا مرفوعًا، فهناك ارتباطٌ دائمٌ بين السماء والأرض، السـماء تبعث الضياء، فتشق البراعمُ وجهَ الأرض، وتتبخر المياه، وتصعد إلى السـماء، ثم تهطل مجدّدًا على هيئة أمطار، حتى الصواعق فيها منافـع للنـاس، ولا يُجـري الميـاهَ التي تشـربونها من منابعهـا إلّا اللهُ، وهو الذي جعـل لكـم الأرض مهادًا، مهّدها ولم يتركها سـدًى، بـل حَفِظَ لها نقاءَها وصفاءهـا، فإن لم يجعل السـماء سـقفًا من فوقكم مـا كان هناك نقاءٌ ولا نظام، والعشب يبزغ في الربيـع ثمّ يصفرّ ويذبل في الخريف، ويجفّ كلّيّةً في الشتاء، فيتجدَّدُ به تراب الأرض ويقوى مرَّةً أُخرى.

ما أروعَ هذا الجانب الخاصّ بالنظافة في هذه العملية!، فعلى الأرض آلاف من الأشياء الرائعة من حيث النظافة فقط.

اعبـدوا ربَّكـم وتوجَّهوا إليه توجُّهًا يليقُ بقـدر توجُّهِهِ إليكم، فهو من توجَّه إليكم وأسبغَ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً.

إن تأملتـم الأمـورَ جيدًا تُدرِكونَ الحِكَـمَ والمصالِحَ كيفَ تُحيطُ بكم وتهبُ لكم الأرزاق، تأملوا جيدًا فيما وهبه لكم من رزق مادي ومعنوي؛ رزقِ الإبصـار ورزقِ التـذوّق ورزق السـمع ورزق الهضـم، وحينـذاك تدركون جيّدًا أن كل هذه الأرزاق منه ﷻ.

وعندما يهبها لكم لا يحتاجُ إلى غيره، فعليكم إذًا أن تكونوا منصفين ولا تشركوا غيره معه في عبادتكم له، احموا أنفسكم من دَنَسِ الشِّرْك الخفيِّ والصريح والصغير والكبير.

كلّ هذه الأسباب عارضةٌ، وليس هناك وجود حقيقيٌّ لأيٍّ منها، فإن لم يكلفنا ربنا تبارك وتعالى بالأَخْذِ بالأسباب ما اضطرَرْنا إلى اللجوء إلى أيٍّ منها، وبما أن كلَّ شيءٍ في هذا العالم المفعم بالحِكَمِ متعلِّقٌ بالأسباب فنحن ننظر إليها على أنها شروط عادية فقط، أما النقطة الثابتة التي لا تتغير والتي نُركز عليها فهي يد القدرة الإلهية التي تقبض وحدها على جميع الأسباب، ولذا فإن عبوديتنا له وحده لا لغيره.

وأحيانًا لا يستطيع الإنسان أن يحافظ على ذلك التوازن في حالة سروره وسعادته، لذا فلا بد من مراعاة النعم التي يهبها الله لنا، مع تَجَنُّبِ أيّ قولٍ أو فعلٍ يُشمّ منه رائحة الشرك بالله تعالى، أما الدقة التي لا بدّ من مراعاتها في هذا الأمر فتتناسبُ وتتوازنُ مع القرب من الله تعالى.

اعبدوا ربكم بما يليق بنعمة التلذُّذ باللذة المعنوية والذوق الروحاني الذي ينشأ في قلوبكم بمعرفة الله، ولا تتركوا قلوبكم عُرْضَةً لنشأةِ أيّ شعورٍ بالتوجّه إلى محرابٍ آخر، فإن حدثَ وشعرتم بِمَيلٍ هكذا فاستردّوا وعْيَكُم على الفور وقولوا: لا إله إلّا الله، فغاية حياتكم هي اقتران العبودية لله بهذا الشعور.

وكل مفهومٍ خدميٍّ يُفضي إلى تلك الغاية واجبٌ لا بدّ من الأخذ به، حتى إن حكمة إرسال الرسل تستند على حقيقة أداء هذه المهمّة.

إننا نحن المؤمنين أمام واجب مقدس وهو أن نكون وسيلةً لحب الله وتحبيبه إلى الآخرين، وتنوير القلوب بنور الإيمان، وإن الاشتغال بهذا

الواجب ودعمه لهو سباق في عمل الخير، فمن استطاع أن يُكمّل السباق في هذه الحلبة فهو مِن أعظم الناس في العالم فضلًا وخيرًا.

فلو أنَّ إنسانًا ينظرُ إلى المسألة من هذه الزاوية باهتمام وفُتِحَتْ له الأبواب التي تُفضي به إلى الرئاسة على مصراعيها أو عُرض عليه مقامٌ دنيوي رفيعٌ تشرئبُّ إليه أعناق الجميع وخُيِّرَ بين واحد من اثنين فلا ريب أنه سيؤثر هذه الوظيفة على غيرها؛ لأنه يعلم يقينًا أن هذه الوظيفة هي وظيفة الأنبياء والصديقين، ففي هذا الجانب سيدنا رسول الله ﷺ وساداتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، وفي الجانب المقابل هناك غالبًا الظالمون والشدادون؛ وظيفتهم هي التجوّل مثل العقرب وبثُّ سموم الكذب والغِلِّ والحِقْدِ الكامنة في داخلهم جرّاءَ فقرهم وفاقتهم الروحيّة، بيدَ أن الأوليـن يتلألَؤون على الدوام بِهَالَاتِهِم النورانية مع أرباب النورِ الصالحين.

إننا نعيش في هذه الدنيا حياةً مجيئُنا إليها ليس بإرادتنا، وخروجُنا منها وفراقنا لها ليس بإرادتنا أيضًا، إلّا أننا يمكننا أن نُحوّل هذه الحياة إلى حياةٍ يرضى بها الله عنا بالتخلّي عن السلبية والترقي تدريجيًّا، وهذا يتأتّى بدايةً باستيعاب أركان الإيمان ومزجِها بأرواحِنا، وتحويل أفئدتنا بالمعرفة الإلهية إلى أقراص من العسل، والوصولِ بعد ذلك بالمسائل الإيمانية عن طريق العبادة إلى درجة عين اليقين، وبلوغِ مقامِ الإحسان، وتحويل أُسُسِ الأخلاق الحسنة إلى ملكات تندرجُ في ماهيّتنا، وفي النهاية نَقْلِ هذه المزايا التي حصلناها إلى الآخرين، وتنوير كل مكان وكل إنسان وكل مجالات الحياة بأنوار الإيمان.

لقد أصبح الإسلام غريبًا جدًّا على الرؤى والأفكار في وقتنا الحاضر سواء في تركيا أو في أي بلد إسلامي آخر، وبدا وكأنه منبوذٌ عن الحياة، ونابذَ العلمُ والتكنولوجيا الدينَ العداءَ، وخُدع الكثيرون، ومن ثم لا بدّ من معرفة المسائل الإسلامية والقرآنية والإيمانية معرفةً جيدةً.

أجل، إن من الصعوبة حلول هذه المعاني الإيمانية السامية في بعض القلوب، ولذا ينبغي عدم إرغام الآخرين على تقبُّل هذا الأمر الصعب والتعامل معهم رويدًا رويدًا؛ فإن العمل على أن تنير هذه المعاني القلوب جميعها يتطلّب بلا شكٍّ صبرًا بالغًا، ومنهجًا يقتضي تأنيًا لا يمكن أن يدركه أو يستوعبه أصحاب الفطرة المتسرعة، الأمر الذي يؤدّي في النهاية إلى تمزيق الحواجز بين العبادِ والمعبود ﷻ.

وحتى يتسنّى لنا أداء وظيفة الإرشاد بحقها لا بد من مراعاة بعض الخصائص التي سنحاول تقديمها موجزة الآن:

أولًا: لا بد من دراسة السُّبُلِ الموصلة إلى روح المخاطب، وهذا نمطٌ من أنماط التعامل الإنساني، ثم تطبيق المبادئ التي أمرنا بها ديننُا مثل التهادي ودفع أي ضررٍ يقعُ على المخاطب، وبهذه السبل يجب التواصل معه.

ورغم أن وضع هذه المسألة في قوالب مُعيّنةٍ يفيدنا من حيث الأفكار والرؤى إلّا أنه من الملاحظ أن هذا الأمر يحمل بعض الأضرار إذا ما قيمناه من حيث تجمُّد جوهر هذه المسألة وروحِها.

من أجل ذلك نرى من المناسب أن نقول حفاظًا على مرونة المسألة: لا بدّ من اتخاذ كل السبل المشروعة لِلْوُلُوجِ إلى قلبِ المخاطَب، يعني

أنـه لا بـد للمخاطب الذي نحدثه عن ديننا أن يتقبل صداقتنا له أولًا، فهذا عامل مهم ولا غنًى عنه في تقبل المخاطب للأفكار التي سنطرحها عليه.

ثانيًـا: المعرفة الجيدة للمسـتوى الثقافي والعقائـدي لمخاطبنا، فمثلًا إن كان مـا نقـرؤه عليه من قرآن يـؤدّي به إلى الجفـول والفِرار منا وعدم التواصـل معنا فيما بعد فـلا بدّ من التوقُّفِ عن قراءة القرآن عليه في تلك الأثناء.

والحق أنني ذكرت مثال القرآن هنا تلميحًا إلى بعض الكتب الأخرى، فإن قراءة أي كتاب على من ليس عندهم أي اسـتعداد روحاني لهو خيانة خفيّةٌ لدعوة الإسلام وإن كان كلُّ سطرٍ من هذا الكتاب يفيض بالإلهامات التي تفتح الأرواح والقلوب.

إن الله ﷻ -عنـد إرسـاله الرزق للطفل حديـث الولادة- يُجري له من ثديِ أمِّه سـائلًا كالعصيدة يسـمى "اللبأ"، ثم يتحَوَّل ذلك الشـيء إلى لبنٍ حليـب، وكلّمـا كبرَ الطفلُ كلّما تغيَّرَ شـكلُ الغِذاءِ الـذي نقدّمه له، وهذا هـو قانون الفطرة الذي يسـري تمامًا على تربية الـروح وتغذيتها الروحية، إننـا مضطرّون إلى أن نُدَقِّقَ في كل جملةٍ وحرفٍ ونقطةٍ من الأشـياء التي أظهرها الله لنا في آياته التكوينية، ونوفِّق تصرفاتنا تبعًا لها.

وأحيانًـا لا يجـري هـذا التوفيقُ فيؤدّي ما نشـرحه في سـبيل التبليـغ والإرشـاد إلى ردِّ فعلٍ لدى المخاطبين، حتى إنكم إن وجدتم مناسبةً بعد ذلك وحدثتموهم بما كنتم تُحَدّثونهم قديمًا فلن يُجْدِيَ هذا الأمر شيئًا.

ولذا فمن الأهمية بمكان الوقوف على مسـتوى الإدراك والاستيعاب لـدى المخاطب، ويلخِّـصُ "بديـع الزمان" هذا الـكلام بالمثلِ القائل: "لا

تُلقوا اللحمَ أمام الحصان ولا العشبَ أمام الأسد"[١]، وهذا يعني أن نعاملَ الناس على حسب احتياجاتهم.

ثالثًا: كسب ثقة المخاطب، ينبغي أن يَثِقَ المخاطب فيكم ويتعلّق قلبُهُ بكم حتى إن وازن بينكم وبين كل محبيه رجحت كفَّتُكُم؛ لأن علاقتكم به لله ليس إلّا، وبما أن حبَّكم له لله فسيعمل هذا الحبُّ تأثيرَه في قلبه، ويحل هذا الحب والاحترام لكم محلَّ الحبِّ القائم على القرابة، بل وسيرجحه لدرجة أن أعباءَ التكاليف التي يتحمّلها وهو معكم قد ترجح -لذةً ومتعةً- جانبَ القرابة، بل يجب أن يُصْبِحَ كلُّ أنواع المخاطر المحتمل حدوثها في سبيل الهدف الذي تقدمون على الموت في سبيله وكل صنوف المعاناة المتوقّع تجشُّمها في هذا السبيل أحبَّ إليه من راحة الحياة السابقة ودعتها، وهذا يمكن أن يحدث بمعرفته الجيدة لكم وثقته العالية بكم.

وإليكم هذا المثال الواقعي والمنظر المثير من عصر السعادة: كان عتبة بن الوليد من أغنى أغنياء مكة، ومن ألدِّ أعداء سيدنا رسول الله ﷺ، ولذلك يُقالُ له "أشقى القوم"، كان على رأس معظم الفتن، وكل الأماكن التي تجاهر بمعصية الله تبارك وتعالى، ورغم ذلك ينشأ في بيته رجلٌ سعيد الحظِّ والطالع؛ ابنه "حذيفة" ﷺ، لكن لا شبَهَ بين الابن وأبيه أبدًا، صحبَ النبيَّ ﷺ، وضرب بالعروض الدنيوية الساحرة التي قدمها له أبوه ليثنيه عن اتباعه لدين الإسلام عرضَ الحائط؛ حيث كان شده المعنوي في الذروة، وعقيدته وقناعته سليمةً بما تلقَّاه من دروس على يد المعلم والمرشد العظيم صلوات ربي وسلامه عليه، هل تذكرون ماذا قال سيد الكونين ﷺ

(١) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **اللمعات**، اللمعة السادسة والعشرون، الرجاء السادس عشر، ص ٣٦٨.

عندما عرض عليه هذا العرض، قال ﷺ: "**وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ**"(٢)، فلقد أحدث قوله هذا تأثيرًا في القلوب والضمائر، وتمكّن منها حتى كان هذا ديدن جميع الصحابة عند جوابهم على مثل هذا العرض، لقد نَفَذَ المُعَلِّمُ الأوَّلُ إلى قلوبهم وتبوَّأَ المكان الأعلى فيها حتى إن أغلى الناس لديهم كالأبوين والإخوة والأقرباء لا تكون لأحكامِهِم قيمةٌ مقارنةً بقيمة حكم رسول الله ﷺ، ولا يبقى عزيزًا إلّا هو ﷺ.

لم يتغيّر الشيء الكثير بالنسبة للمرشد والمخاطب، فجميع القضايا التي كانت تقع أمس بصورة مختلفة ما زالت تتكرّرُ اليوم ولو بصورة أخرى، إذًا لا بدّ أن يطبق المرشدون والمبلّغون سبيل رسول الله ﷺ في النفوذ إلى القلوب، وإلّا ستظلّ القضايا المطروحة معلقةً في الهواء ولن تحظى بحسن القبول.

هذه هي مسألة النفوذ إلى الأرواح، وعنوان استيطان القلوب، ولذا على كلٍّ منا أن يقول: إن لم يستطع سيدنا رسول الله ﷺ أن يحبّب نفسه إلى أصحابه لهذه الدرجة أكان من الممكن أن يتبعوه ويأتوا معه إلى بدر، والظروف جميعها كانت ضدهم، وفي الجبهة الأخرى آباؤهم وإخوانهم وأعمامهم وأبناؤهم الذين من أصلابهم؟ لقد انصاع المسلمون للأمر الذي جاءهم من المقام الأعلى، وعلِموا أنّ الموت في سبيل الحق هو فضلٌ من الله تعالى ومحضُ اختصاص.

وأحيانًا كان رسول الله ﷺ يخاطبهم وينبّهُهم، وينفث في أرواحهم أن يكون هو أحبّ الناس إليهم.

(٢) ابن هشام: **السيرة النبويّة**، ٢٦٦/١.

فمثلًا تعامل رسول الله ﷺ بحزمٍ وجلال مع كعب بن مالك الذي تخلّف عن غزوة تبوك، وقال له: "**مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ**"، فَقال: بَلَى، إِنِّي وَاللهِ لَو جَلَسْتُ عِنْدَ غَيرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ، لَا وَاللهِ، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، وَلَا أَيسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ**"[٣]، وهكذا عُفي عنه لصدق حديثه وثباته على باب الحق.

وهكذا لا بد للمرشد أن ينفذ ويَصِلَ إلى قلب المخاطب، ويجعله ينفّذ كل ما يطلبه منه، لكن عليه ألا ينسى ضرورة ألا يكون طلبه للمخاطب من أجل نفسه؛ لأن الذي يفعل ذلك هم الفراعنة والنماردة والشدَّادون وفقًا لما ورد في كتاب الله تعالى، أما الأنبياء فقد كانت كلُّ مطالبهم من أجل الحقّ تعالى وخدمة لأقوامهم، وهذه مسألة مهمّة لا بدَّ من مراعاتها حقًّا.

رابعًا: الإحاطة بالقضايا الإسلامية، فعلى الجميع ألا يتفلسف أو يُطنِبَ في ذِكْرِ ما يهوى، وألّا يهرفَ بما لا يَعرِف؛ لأن رسول الله ﷺ قال: "**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**"[٤].

ومن ثم علينا ونحن نحدِّث الناس عن أمر في الدعوة الإسلامية أن يكون حديثنا في إطار هذين المصدرين الأساسيين وأن نحيط علمًا بالموضوع الذي نتحدّث حوله.

(٣) **صحيح البخاري**، المغازي، ٨٢؛ **صحيح مسلم**، التوبة، ٩.
(٤) **موطأ الإمام مالك**، ١٣٢٣/٥.

ولا بد ألا نميل في حديثنا إلى الجَدَلِ والإلزام، وأن تكون الأمور التي نحدِّث الآخرين بها أمورًا قد فهمناها واستوعبناها حتى يستطيع المخاطب أن يتلقَّاها ويستوعبها دون أدنى مشقّة، كما قال بديع الزمان سعيد النُّورسي: "إن العالم المرشد الحقيقي يَهَبُ للناس علمَه في سبيل الله دون انتظار عوضٍ أو أجرٍ ويصبح كالشاة لا الطير، فالشاة تُطعم بَهْمَتها لبنًا خالصًا، بينما الطير تُلقم فراخَها قيأها المليء باللُّعاب"(٥).

فعندما تنفذ هذه المعلومات إلى أرواح المخاطبين سرعان ما تتحوّل الأرواح إلى خليّة عسلٍ للعلم والمعرفة، وإلا فإن كانت هذه المعلومات مثل القيء فلا يُتَصوَّرُ ذلك.

لا ريب أن هذا يتطلَّب القراءَة والاستظهار وتوسيعَ دائرة الثقافة والمعرفة، من أجل هذا ينبغي لمن يقومون بوظيفة الإرشاد أن يُخَصِّصوا وقتًا معيّنًا للقراءة بصفة دائمة، فمن حُرم من ثقافة العصر لن يَمْلِك ما يقوله لمخاطبه، وبعبارة أخرى: فإن الإنسان السطحي في مستواه الثقافي لا يستطيع أن يروي ظمأ مخاطبه المشغول بإرشاده مدة طويلة، ولذا فعلى أي مرشد يتعامل مع مخاطبين في جميع المستويات أن يحيطَ علمًا بالموضوع الذي يُحَدِّثُ فيه مخاطبَهُ بالقدر الذي يروي ظمأه على الأقل، وعلى ذلك فإنني على قناعةٍ بأن من يتخلّف عن مواكبة عصره لن يملكَ ما يُقدِّمه لإنسان هذا العصر.

أجل، أُكَرِّرُ بإلحاحٍ مَرَّةً أخرى: إنّ مَنْ جعلوا الإرشاد بغيةَ حياتهم لا بد وأن يتزوّدوا بالعلم والمعرفة، لأنّ الداعية الفارغ ينزح من بئر معطّلة، علاوةً على ذلك فإن مثلَ هذه الطائفة من الناس تحاول جبرَ قصورِها

(٥) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **الكلمات**، اللوامع، ص ٨٢٩.

في القضايا التي يُحدّثون الناس عنها باللجوء إلى الحِدَّةِ والعُنْفِ؛ الأمر الذي يجعل الحديث لا يحالِفُه القبول وإن كان عن مسألة منطقية يسهلُ فهمُها، وإنما يقع النفورُ كردِّ فعلٍ على أسلوب هؤلاء الذين تحدَّثنا عنهم آنفًا.

ندعو الله تبارك وتعالى أن يقوم النورانيّون في عهد النور بإنارة العالم وتوجيه الأنظار إلى منبعِ النور، وأن يتزوّدوا بالمعرفة في كلّ ساحات العلم، وأن يملؤوا حِجر كلّ طالب علمٍ يقف على بابهم بالجواهر المحمديّة ويروُوا ظمأه.

خامسًا: اقترانُ جميع الأعمال بالصدق والإخلاص، وأن تكون الغاية منها دائمًا هي مرضاة الله تبارك وتعالى، وأن تُهيَّأَ كلُّ الأعمال وفقًا لذلك، فإن كانت هذه الأعمال في مرضاة الله عملناها وراعيناها وإلّا فعلينا أن ندعها ونصرفها عنا، ولا نتسبَّبَ في خداع أحد.

فلقد اختزلَ النبيُّ ﷺ الجهادَ في سبيل الله بما كان في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

يعني: لو كان كفاحنا في سبيل إعلاء كلمة الله فهذا من أجل الله، وإلا فنحن نتراءى بأنفسنا بِخُطَبِنَا وكُتُبِنَا؛ وحينذاك ينعدم الإخلاص فنُحْرَمَ ثوابَ أعمالنا، فإن أصيبَ الإخلاصُ أو تخلّلَهُ شيءٌ فلا حديث إذًا عن رضا الله أو النفوذ في قلوب الناس.

وقد اضطلع الأسبقون بالقيام بهذا العمل بإخلاص، حتى إنهم إن حدَّثْتَهم أنفسهم بِعُذُوبَةِ منطِقِهِم وبلاغةِ حديثهم كانوا يجثون على ركبهم ويقولون: اللهم ارزقنا الإخلاص في كل أمرنا وفي كلّ شأننا،

ومنهم على سبيل المثال عمر بن عبد العزيز ﷺ، فلقد كان -حينما يرى خطابَهُ بليغًا للغاية- يمزّقه ويطرحه أرضًا خوفًا أن يداخله الكبر والغرور، ثم يَكْتُبُ خطابًا آخر.

وهكذا كانت تُشرح القضايا الإسلامية في تلك الفترة في مثلِ هذا الجوّ من الإخلاص المحضِ، وكأنَّ هؤلاء جعلوا مبدأهم الحديث عن ربّهم في جوٍّ لا ترغبه أنفسهم، ولربما قالوا: ما دامت النفس لا تأخذ حظّها من مثل هذا الحديث فهذا يعني أن هناك إخلاصًا في العمل، واتخذوا من هذا دستورًا لحياتهم.

ولعلّ قراءنا الأعزاء لهذه السطور قد مرُّوا بتجارب كثيرة من مثل هذا النوع، ولذا أعود فأكرّر بأن الإخلاص والصدق هو حياةُ القضايا التي نشرحها وروحُها، فإذا أردنا ألا تشهد علينا أقوالُنا وأعمالُنا فعلينا أن نتحلّى بالإخلاص.

سادسًا: على المبلّغ أو المرشِد أيًّا كان مستواه أن يزوّد قلبَه بالعلوم الدينية وعقلَهُ بالمعارف الحديثة، وأن يتعمق في مراقبته الداخلية بتشغيل قابلياته واستعداداته التي لا تعمل إلا بِكِلا الأمرين معًا، ولا بد للمبلغ والمرشد أيضًا أن يكون لدنِيًّا بقدر ما استطاع في هذه المسألة وفقًا لمستواه وشخصيته، وهذا أيضًا مرتبط -من ناحية- بالموضوع الذي تطرقنا إليه آنفًا، يعني لا بدّ من توسيعِ دائرة الإخلاص والصدق.

ولقد رَكَّزَ رسول الله ﷺ في كثيرٍ من أحاديثه على الإخلاص، وبين أنه أعلى أفقٍ بالنسبة للإنسان.

وعندما يتحدَّث القرآن الكريم عن كثير من الأنبياء يتحدَّثُ عنهم من خلال هذه الصفات، ويُبَيِّنُ أن الإخلاصَ جزءٌ لا ينفكُّ عن النبوّة.

ولقد وصفَ القرآن العظيم سيدَنا موسى عليه السلام بقوله: ﴿**إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: ٥١/١٩)، معبرًا بأوجز الأساليب عن أن موسى عليه السلام ما كان يسلك سلوكًا أو يعمل عملًا إلا من أجل رضا الله تبارك وتعالى، وهذه العبارة تلقِّن المؤمنين درسًا في الإخلاص.

فلقد تربَّع سيدنا إبراهيم عليه السلام على قِمَّةِ مفهوم الإخلاص والوعي به، فلم يتزعزع أو يساوره الشكُّ لحظةً حتى في أحلَكِ الأوقات التي تجري فيها الأمور في غير صالحه، بل لقد رفضَ عرضًا مشروعًا من الملائكة كإعانتهم له وقال: "علمك بحالي يغنيني عن سؤالي"، ورد عرض الإعانة الذي قدمته له الملائكة بقوله: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، وعلى ذلك فإن رضا الله من الأهمية بمكان، فلم يكن بوسعه أن يلقي بظلال طلباته المشروعة على هذا الأمر؛ لأنه يوصف بأنه خليل الله، والخليلية تتطلّب هذا.

فلا يعرف الجوهر إلا من يعلم قيمتَه! وبما أن الإخلاص والصدقَ وصفٌ نبويٌّ فلا بدّ أن يتحلّى بها كلُّ إنسان يتَّخذ من الدعوة وظيفةً وواجبًا، والقرآن الكريم يصف كل الأنبياء بالإخلاص، ويُخبرنا بأن الحقّ ﷻ قد أمر نبينا ﷺ بالإخلاص، وإنني على قناعةٍ بأنّنا إذا ما دخلنا إلى القرآن الكريم من هذا الباب فسنجدُ من المنافعِ الجمَّ الكثيرَ.

أجل، على من يقومون بوظيفة الإرشاد والتبليغ بدلًا من الاهتمام بأمور تافهة مثل: إرغام الآخرين على قبولهم، والاعتقاد بالتأثير فيهم، وامتداحهم بكثرة أتباعهم؛ أن يحاسِبوا أنفسهم على أقوالهم وأفعالهم هل هي تتوافق مع رضا الله ﷻ أو لا، فالمراقبة تعني محاسبة الإنسان لنفسه بنفسه، وهي ركيزةٌ من ركائز عملية الإرشاد والتبليغ.

على الإنسان أن يُراقب نفسَه متسائلًا: لماذا أفعل ما أفعله؟ فإنْ دَاخلَ هذه المسألةَ شيءٌ من هوى النفس والأنانية فعلى الإنسان أن يتوقّف على الفور.

لنفتَرِضْ مثلًا: أنك تجلس في مكان ما مع جماعة من الناس تقرأ لهم كتابًا نورانيًّا، فهذا الفعل في حدِّ ذاتِهِ حسنٌ وجميلٌ، ولكن إن انتبهتَ قليلًا ستجدُ أنَّ أمرَ القراءة قد سيطر عليك أكثر من المسائل التي يحملها هذا الكتاب، وستدرك أن القراءة هي التي تجذبك وتروق لك ليس إلا، ومن ثَمَّ ينبغي لك حينذاك أن تتوقّف عن القراءة أو تغلقَ الكتابَ أو تعطيه لغيرك ليقرأ بدلًا منك.

أو لِنَقُلْ مثلًا إنك تعمل واعظًا، تعظ الناس، ونِلْت بفضل الله وكرمه مقامَ البسط حتى إن الكلمات تنساب منك تلقائيًّا وكأنك تحرك شفتيك فقط، فعليك إذًا في هذه اللحظة أن تنتبه إلى من أنطق لسانك، وتُفكِّر في صاحب هذا الفضل، وتُنكّسَ رأسك إلى الأرض إذعانًا له، فإن حدث ودَاخلَك شيءٌ من هوى النفس، واعتقدتَ أنت أيضًا بهذا؛ فلا بد إذًا أن تقطع حديثك وتنزل عن المنبر على الفور، فحسن الكلام أحيانًا ما يكون فتنة، وعلى الإنسان أن يستعيذ بالله دائمًا من الفتنة، كم من خطباء جاؤوا إلى الدنيا وساقوا الناس وراءهم وربما هم الآن -باستثناء المخلصين بالطبع- يحاسَبُون على كلامهم في الآخرة.

ولنضرب هنا مثالًا واقعيًّا: لنقل مثلًا إننا نقرأ كلّ يومٍ وردًا قرآنيًّا بلا انقطاع، وننزعج إذا لم نتمكن من قراءته، إن شئتم فأطلقوا على هذه المسألة عادةً أو إلفًا، ومن المفترض أن هناك جماعةً تنتظرنا لنلقي عليها الدرس، ولم نكد نقرأ بضع آيات من وردنا القرآني حتى يخيل لنا

أننا ربما نقرأ هذه الآيات حتى نجمّلَ وندرّبَ أصواتنا قبل الخروج إلى الدرس، فنقع في جفول وذهول، رغم أن هذا هو وردنا القرآني كلّ يوم، ولكن يساورنا القلق في الاستمرار في القراءة من عدمه، خشيةَ موافقة التلاوةِ غايات أخرى سوى رضا الله ﷻ، ونبتهل إلى الله قائلين: اللهم إني شرعت في القراءة من أجلك وأتركها الآن من أجلك أيضًا، ثم نغلق المصحف ونقوم.

أجل، إننا مضطرون إلى أن نهيّئ أنفسنا بالمراقبة الداخلية وفقًا لما ينبعث من أعماق قلوبنا وإلا تعذر علينا أن نؤثّر فيما حولنا.

علينا أن نمحو ذاتيتنا وأن نتنازع مع أنفسنا في قرارة أنفسنا، وأن نتحرى رضا الله في هذا النزاع، وأن نسعى في سبيل رضاه ﷻ.

ولمثل هذه الحالة الروحية مظاهر تبدو وكأنها غريبة بعض الشيء أحيانًا، فقد يهزّ الإنسان رأسه أو ينكّسها أو يئن ويكابد أو يسجد ويتلّوى، ولكن لا ريب أن الإخلاص سيصبح سلوكًا اعتياديًّا مع الوقت في كل تصرفاته، ويفعل الإنسان كل ما يفعله في غاية السهولة براحة واطمئنان من أجل الله، ويدعه من أجل الله، ويجلس ويقوم من أجل الله.

علينا أن نبتهلَ إلى الحقّ تبارك وتعالى على الدوام أن يرفع قدرنا بالصدق والإخلاص وفقًا لعجزنا وفقرنا لا لأهليّتنا.

سابعًا: إن كان شرحُنا لمسألةٍ سيُزعِجُ طائفةً من الناس فعلينا أن نحيل شرح هذه المسألة إلى الآخرين قائلين: "رضا الله أولى فالحقُّ يعلو ولا يُعلى عليه"، وليس كذلك فقط بل لا بد أن نستحسن شرح الآخرين للمسألة.

وهنا نُكتَةٌ لطيفة لا بد من الانتباه إليها: وهي التفريقُ بين الرضا بشرح الآخرين للمسألة وبين استحسان هذا الشرح، وعلى ذلك فعلينا أن نستحسن هذا الأمر وفقًا للجانب الثاني، وهذا من الأمور التي لا تحبّذها النفس مطلقًا، رغم أنها شجاعةٌ وإحسان.

قد ينزعج بعضُ الناس منّا لأمرٍ يتعلَّق بنا، وقد يُحدث ما نشرحه تأثيرًا سلبيًّا فيهم، وفي هذا الوضع لا يختلف همُّنا وسعيُنا لشرح الحقّ والحقيقة عن سعينا لعدم تقبُّلهم ما نحدثهم به، وبناءً على ذلك يتضرَّر السامع لعدم تقبُّله الحقَّ، ونُلحق نحن أيضًا الضررَ بأنفسنا لأننا أصبحْنا حائلًا بين هؤلاء وبين تقبُّلهم للحقّ، والحلُّ هنا يكمن في أن يشرحَ المسألةَ شخصٌ غيرنا، وسنحظى أيضًا بالثواب نفسه الذي حصله الآخر في سبيل تقبُّل السامعين للحقِّ لأننا كنا وسيلة فيه.

علينا ألا نُرَحِّبَ بطلب التحدُّثِ وإلقاء الكلِمات، كما لم يرحب النبي ﷺ بطلب الإمارة من أبي ذرٍّ ﷺ، بل كان يعهد بها -بِحُكْمِ صلاحيّاته- إلى أهل اللياقة والخبرة.

ومن ثَمَّ فإن كان هناك شخصٌ بوسعه أن ينفذ إلى قلوب الناس أكثر منا، ويشرح قضية ما على نحو أفضل منا؛ فعلينا أن نهيِّئ له الفرصة للحديث، وعلى الآخرين ألا ينزعجوا من وجودهم بين المستمعين.

ثامنًا: علينا أن نعترف -بارتياح- بعدم المعرفة إذا ما صادفتنا مسائل لا نعرفها، وأن نقول: لا نعلَم، فكما قالوا "نصفُ العِلمِ لا أعلم".

ولقد ضرب لنا مرشدنا ونبينا وسيدنا محمد ﷺ أروع الأمثلة في هذا الموضوع.

ذات يوم سأله اليهود عن الروح، فسكت النبي ﷺ ولم يجب على هذا الموضوع الذي لم يطّلعْ عليه بعدُ رغم ما هو عليه من مكانة جليلة.

أجل، لم يُجب النبي ﷺ على هذا السؤال العدائي الذي طرحه الخصوم الذين حاولوا إثارة الشبهات والشكوك حول نبوته، وبعد مدة نزل قول الله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا**﴾ (سورة الإسْرَاءِ: ١٧/٨٥).

فكان لسكوت النبي ﷺ وتبليغِه هذه الآية بعدما نزل عليه الوحي التأثير الأبلغ في نفس المخاطبين، فكمّموا أفواههم بعد تلقّيهم هذا الجواب الدامغ.

وما كان تفضيلي لهذه الآية إلا لطرح مثال واقعي عليكم، وليس للحديث عن الروح، يعني أنه لم يقل: "أعرف" على كل مسألة عُرضت عليه، ويا له من درس عظيم لنا لو نتعلّم! ولما نزل عليه جبريل عليه السلام يومًا وقال: متى الساعة؟ ماذا كان رد النبي ﷺ وكيف كان؟ قال صلوات ربي وسلامه عليه: "**مَا الْمَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**!"، فهل هناك أبلغ من هذا المثال الذي يوضح أننا لسنا مضطرين إلى الإجابة على كل سؤال.

كانوا يسألون الإمام أبا يوسف مائة سؤال، فلا يجيب على ستين منها ويقول: لا أعلم، فقالوا له: يا إمام، ندفع لك راتبًا، وتقول لا أعلم على ستين سؤالًا؟ فقال الإمام أبو يوسف: إنكم تدفعون لي راتبًا على ما أعلمه، فإن لزم أن تدفعوا شيئًا على ما لا أعلم لما كفتكم الدنيا كلها.

كان الإمام أبو يوسف يتربع على عرش الفتوى حينذاك حتى كان يلقب بـ"قاضي القضاة"، ورغم ذلك يقول: لا أعلم.

ونُقِـل عـن الإمام مالك أنه سُـئل عـن ثمان وأربعين مسـألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: "لا أدري".

كذلك أبو حنيفة سُئِلَ عن تسع مسائل فقال فيها: "لا أدري".

فمثـل هذه النماذج توضّـح أن هذه القامات العظيمة شـرفًا وكرمًا ما كانت تجيب على كل سؤال يُطرح عليها.

فعلينـا أيضًـا أن نعترف بعدم معرفتنا إزاء مـا لا نعرفه، ولكن لا نترك المسألة هكذا؛ بل نصحب مخاطبينا إلى من نرى أنهم أفضل منا في معرفة القضايا المطروحة، ونتعلم، ونهيّئ الفرصة لغيرنا حتى يتعلموا.

تاسـعًا: ينبغـي لرجل الإرشـاد والتبليـغ أن يكون جـوادًا كريمًا، وأن يضحّي بما يملكه في سبيل دعوته، وأن يتخذ من جُودِهِ بُراقًا لفتح القلوب.

وعندما أتكلم عن الجود والسـخاء لا أتمالك مشـاعري وأتذكر على الفور أمنا السيدة خديجة ﵂.

ولـدت السـيدة خديجة ﵂ قبل النبي ﷺ بِسَـنَهات عـدة ورحلت عنه أيضًا قبل رحيله بِسَـنَهات عِدّة، ولعل هذا التبكيرَ مشـتقٌّ من اسـمها؛ فإن خديجـة تعنـي: المولودة قبـل أوانها، عندما تعرفـتْ بالنبي ﷺ لم يكن ﷺ يملك من حطام الدنيا شيئًا، أما السيدة خديجة ﵂ فكانت ثريةً في المالِ، درّةً فـي الجمال، حسـيبةَ النسـبِ طيّبـةَ الخِلالِ، ورغم هذا فقد حدسَـتْ المعنـى الكبيـر الذي يحمله هـذا النبـي الكريم، وعرضت عليـه الزواج، وتزوّجا فعلًا.

ولقـد جهَّزت كثيرًا من القوافل التجارية، وكانت صاحبةَ الكلمة فيها، وأنجبـت للنبـي ﷺ عـددًا مـن الأولاد، ثم ارتحلـت دون أن تُـدرك عهدَ

المدينـة، وهـذا أيضًـا من الأمور التي تؤثّر في نفسـي تاثيـرًا بالغًا، فعندما أتذكّر هذا الموقف لا أتمالك نفسي وأجهشُ بالبكاء.

كانت هذه السـيدة العظيمة -التي وكأنّها ما خُلِقَتْ إلا لتصبح زوجةً لنبيّ- سـخِيّةً كريمةً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فلما بدأ رسـول الله ﷺ فـي تبليـغِ رسـالَتِهِ صدّقَتْهُ وآمنـت به دون تردُّدٍ وكأنها كانت تعلم مسـبقًا أن زوجهـا سـيُعهد إليـه بمثل هـذه المهمة، ثم وضعـت كلَّ ثروتها تحت تصرُّفه ﷺ، فأنفقتها كلها في سبيل الله، ولم يبق منها شيء وقت المقاطعة الاقتصادية التي ضربها الكفار على المسلمين في شِعبِ أبي طالب، حتى إن النبـي ﷺ كاد يُغمـى عليه من شِـدّةِ الجوع، ولم يجد ما يأكله ﷺ؛ حتى ولـو مـن الخبز الجـافِّ، ولَزِمَتْ السـيدة خديجة الفراشَ، ولم يسـتطيعوا توفيـرَ العـلاج لها بسـبب ما حـلّ بهم من بـؤسٍ وفقـرٍ، ورحلت ﵂ إلى الرفيـق الأعلـى فقيرةً مسـكينةً، وآخر أفق فـي الجود والسـخاء أن يجود الإنسان بنفسه، ولقد وصلت أمُّنا السيدة العظيمة خديجة ﵂ -التي نفديها بكلّ أمّهاتنا- قبلَ الجميـع إلى ذلك الأفُقِ.

وكان سـيدنا أبـو بكر الصدّيـق ﵁ يُلهي أباه بحصَـوات من الحجارة يضعهـا فـي جرّته؛ ليوهِمَهُ بأنها مالٌ ومتاعٌ، ويُنفِقُ كلَّ ماله في سـبيل الله، حتى إنه افتقَرَ بعد تولّيه الخلافة، لدرجة أنه اضطر أن يكسـبَ عيشـه بكدِّ يمينه وعَرَقِ جبينه، وحَلْبِ شياهِ الآخرين، لقد ضرب مثالًا رائعًا في الجود والكرم وضحى بكلّ ماله في سـبيل الحقّ، مـع أنه صاحَب رسـول الله ﷺ فـي الغـار والهجرةِ، وكانَ سـيدَ الصديقين، وواحدًا من أغنـى أغنياءِ مكّة قبل الإسلام.

وكان سيدنا عمر الفاروق ﷺ يتعيّشُ على بضعِ تَمَرَاتٍ كأفقر رجل في المدينة المنورة؛ يعني كان فقيرًا من الناحية المادية.

وكأنَّ كلَّ الصحابة كانوا يتنافسون فيما بينهم في هذا الموضوع، فلقد فتحوا القلوبَ والأفئدةَ بما قدَّموه من سخاء وَجودٍ في سبيل الله، فكان يتوالى دخولُ الناس في دين الله أفواجًا؛ لأنهم درسوا هذا الموضوع ككلِّ الموضوعات الأخرى على يد رسول الله ﷺ، قال أنس بن مالك ﷺ: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسلِمُ ما يُريدُ إلا الدنيا، فَمَا يسلمُ حَتى يَكُونَ الإِسلامُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنَ الدنيا وَمَا عَليهَا"، وروى أن رجلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَينِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَومَهُ فَقَالَ: "أَي قَومِ أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْر"(٦).

ومن ثم على كل مرشد ومبلغ شابًّا كان أو شيخًا أن يسعى إلى فتحِ القلوب بهذه المفاتيح والوسائل، فمن أنفق ماله في سبيل الله، وكان وسيلةً لهداية شخص إلى الإسلام؛ كسب شيئًا كثيرًا، وما ضيّع شيئًا ألبتة.

سيَفتح بابَ الجنة الكرماءُ، فافتحوا أنتم أيضًا السبل التي توصِلُ إلى هذا الباب في الدنيا وخذوا بأيدي الكثيرين معكم إليه، وبهذا السلوك فإن من يتعاملون معكم سيصلون إلى مستوى يؤثرون معه الله ورسوله على كل ما سواهما.

أجل، ليس العلماء والوعّاظُ والمشايخ هم أول من يدخلون الجنة، بل هؤلاء الكرماء من تُجَّار وحِرفيين أيًّا كان مستوى دخلهم، لأنهم بذلوا مالهم وأرواحهم في سبيل الله ونَشْرِ الحقِّ والحقيقة.

(٦) صحيح مسلم، الفضائل، ٥٧، ٥٩.

أجل، إن هؤلاء تقرَّبوا إلى ربِّهم بإنفاقِ أشياءَ فانية، فكسبوا أشياءَ باقيةً، فكتب لهم الخلود.

عاشرًا: أريد هنا أن أنوِّه إلى نقطة لها شيء من الخاصية، ألا وهي: أننا نرى الآن بوضوحٍ مشهدًا كان يتعذّر علينا أن نراه قبل خمسة عشر أو عشرين عامًا حتى في أحلامنا، وهذا من فضل الله اللامتناهي علينا.

إننا قد تجاوزنا حتى في العالم الإسلامي تلك الفترة التي يحتاج فيها الدعاة والمرشدون شهورًا لتحديث الناس بالحق والحقيقة. أجل، إنني وأمثالي ما زلنا نذكر تلك الأيام التي كنا إن سمعنا فيها أو رأينا طالبًا جامعيًّا يصلي تأثَّرْنا للغاية وسُرِرْنا سرورًا بالغًا وكأننا تقابَلْنا مع الخضر أو جبرائيل عليهما السلام.

كانت تلك الأرواح التي تذوَّقت حلاوةَ الإيمان تركضُ هنا وهناك، وتجري شهورًا أحيانًا وراءَ إنسان لا حظَّ له من الإيمان؛ حتى تطرح عليه تلك الرسائل النورانية التي تملأ عوالمهم الداخلية، ولكن دون نتيجة إيجابية قطّ، بيد أن الوضع الآن قد تغيّر، وأصبحَ من يتبنّى مثل هذه المسائل الجماعاتُ وليس الأفرادُ، إننا قد أدركنا عصرًا لانَتْ فيه حتى قلوب أكثر الناس تمرُّدًا فأخذوا ينظرون إلى القضايا الإسلامية على أنها محتملة الحدوث، ومن ثم فإن الوظيفة الملقاة على عاتقنا حاليًّا هي استغلال المناهج وتجريب الأساليب الجديدة شريطة عدم الابتعاد عن جوهر الإرشاد وروحه، وإلا فلا ريب أننا سنُصاب بما أُصِيبَ به هؤلاء الذين ضيّعوا كلَّ أعمالِهم لعدم استيعابهم لعصرهم ومواكبتِهم له، نستعيذ بالله من التردّي إلى هذا الوضع، إذًا نحنُ مضطرّون إلى أن نواكبَ كلَّ ما هو حديث من أجل أداءِ وظيفة الإرشاد أداءً تامًّا يتوافقُ مع متطلبات هذا العصر، ويجب ألا ننسى أننا بِقَدْرِ تأخُّرنا في مواكبة عصرنا بقَدْرِ ما سنتأخّر في الوصول إلى غدٍ سعيدٍ.

وانطلاقًا من هذه النقطة يمكننا أن نصل إلى قاعدة عامّة وصالحةٍ للجميع؛ وهي أنه يجب على من يقومون بوظيفة الإرشاد والتبليغ أن يستوعبوا عصرهم ويوطِّنوا إرشادهم على هذا الأساس، وبدهي أنه لا سبيل إلى التوصل لأيّ نتيجةٍ مُجديةٍ ومُرضيةٍ من خلال جرّ الناس إلى دهاليز مظلمة في فترةٍ انفتح فيها الآخرون على الفضاء.

الحادي عشر: من الخصائص المهمّة جدًّا في عملية الإرشاد والتبليغ تطبيقُ الأصول والمناهج التي تيسِّر عودة الجموع الضالّة إلى أصولها عن طريق الاستفادة من الحالة الروحية للجماعة.

وإن مراعاة بعض القضايا التي عجزتم عن تقبل الآخرين لها رغم تحديثكم لهم بها سنين عددًا، وسبرَ أغوار بعض هذه المسائل، ونقلَ العشق والانفعال الراسخ في القلوب المؤمنة إلى الآخرين له من الآثار العظيمة ما له؛ وليس الخبر كالعيان.

وعلى ذلك فإن عرضَ القضايا الإسلامية على من حولنا دون اللجوء إلى أي تمييز، وفي جوٍّ بعيدٍ عن مفهوم الحزبية الذي يقفُ سدًّا منيعًا دون استمرار الدعوة يؤثّر أحيانًا في مخاطبينا وبالتالي في تقوية قوتهم المعنوية حتى إنهم يجتازون على وجه السرعة ذلك الفراغ الذي كانوا يعيشونه لسنوات عدة، بل ويتكاتفون ويقفون معكم على خطٍّ واحدٍ، يمكننا أن نفكر في هذا بالنسبة للجماعات، ولقد أصبحت اليوم المؤسسات التعليمية الخيرية التي أنشأها رجال الخير تسير على رسم بياني يرتقي ليرسم البسمةَ على وجه الأصدقاءِ ويُذكيَ الضيقَ والجنون في صدور الأعداء، فللَّه الحمد والمنّة على إحسانه علينا بهذا الفضل الكبير، وندعوه ﷻ أن يجعل ما تحدثنا به من باب التحديث بالنعمة! آمين.

الهمُّ الأوحدُ للنبيِّ محمّد ﷺ

سؤال: هل يمكن أن تحدِّثَنا عن جهود ومساعي النبي ﷺ والمسلمين الأوائل الرامية لإنقاذ إيمان غيرهم؟

الجواب: هذا الموضوع من الموضوعات التي لا بدّ من الحديث عنها على أنها موضوعٌ مستقلٌّ تمامًا، وقد حاولت من قبل أن أعرض وجهة الصحابة خصّيصًا فيما يتعلق بهذا الموضوع.

في الواقع إنّ ضربَ مثال أو اثنين لهؤلاء الصحابة في كل مجلس أو حديث أو مقال يَهَبُ روحًا وحياةً له، فالصحابة بالنسبة لي مقياس ومعيار، وأنا أضع كل أحكامي في قالَبِ التشبه بهم... وإنّني لأنظر إلى الصحابة الكرام على أنّهم شرطة المرور الموظّفون على طريق النور، وأوقنُ بأنّ علاماتهم وإشاراتهم هي التي توصِّل إلى باب النور الخالد والأكبر النبيِّ محمّد ﷺ، ولقد جعلت هذه الفكرة غاية حياتي قدرَ الإمكان.

وإن كان لا بدّ وأن نُخضع المؤمنين لتصنيفٍ ما فإنني أجعل القرب من هؤلاء الصحابة والبعد عنهم معيارًا لذلك، وقد أشرت على أصدقائي وأحبائي المقربين بوضع تصنيفٍ كهذا.

ولقد شُرح هذا الموضوع مرارًا وتكرارًا، وربما تشرّبته أرواح قرّاء هذه السطور، ووصلوا في تعرفهم على الصحابة إلى أقصى الدرجات.

ومع التسليم بهذا إلا أنني سأحاول أن أنوّه هنا ببعض الأمور تبرّكًا إجابةً على هذا السؤال:

لم تكدْ المشاعر الدينية تلتهب في روح رسول الله ﷺ وأرواح صحابة رسول الله حتى جعلوا هدفهم وغاية حياتهم نقل القضايا الدينية إلى الآخرين، وتمثل الدين، والأخذ بأيدي الناس بهذه الوسيلة إلى الخلاص الحقيقي.

إن لم تكن هناك خدمة للدين فلا معنى أيضًا للبقاء على قيد الحياة، وكما أوضح القرآن الكريم علينا أن نقيِّم نحن المؤمنين -خلفاءَ الله على الأرض- الأحداثَ كلَّها من منظور الفكرِ والشعور الديني.

فلو أن الماء ينحدِرُ إلى أسفل وأمَرَنا ديننُا بأن يجري الماء إلى أعلى صُعودًا، فنحن مكلفون بالعمل الدؤوبِ حتى يتحقق ما أمر به الدين، وهكذا فلو أدركنا ما نحن مكلفون به لأصبحت هناك حكمة لوجودنا ومعنى لحياتنا، وإلا كانت حياتنا فارغةً ووجودنا عبثًا.

لقد بلغ هذا الشعور وذلك الفكر أقصى درجة له عند رسول الله ﷺ، وسردَ لنا القرآن الكريم في كثير من المواضع الآيات التي تبدأ بقوله: "**فَلَعَلَّكَ**"؛ حتى ينبهه، ويوجّه أنظارنا نحن أيضًا إلى قامته العالية السامقة... ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ (سورة الْكَهْف: ٦/١٨)؛ يعني أوشكتَ أن تُهلك نفسك وتُتلِفها... تنهض في الصباح فتشاهد الوجوه غير المؤمنة، وعند رُقادِك تتمثل أمامك أخيلتهم،

وبهذا الشعور ينقصم ظهرُك همًّا وحُزنًا على قدرِ معرفتك بالناس؛ فتنسى حياتك وتوشك على هلاك نفسك.

أجل، لقد كان يَئِنُّ دون توقُّفٍ لأنهم لا ينصتون لكلماته القدسيّة، ولا يتبعون دعوته الإلهية، ولا ينخرطون في هالتِهِ النورانيّة، كان يتلوّى حزنًا عليهم لأنهم لم يؤمنوا ولم يدخلوا في حظيرته القدسيّة، حتى كاد أن يذوب ويتلاشى مثل الشمعة.

ومن المعاني التي تتضمّنها هذه الآيات: دع الأمر للقدر، وفوِّض الأمر إلى القادر ﷻ، ومن إتلاف نفسِكَ حاذر، كما تشتمل هذه الآيات على مديح علويّ للنبيّ ﷺ، وكأنّ الله تعالى يقولُ لنبيّه: أيّها النبيّ إن روحَك عالية، وستصبح هذه الروح في المستقبل منهلًا يُهرول إليه الجميع بأقداحهم ليغترفوا منه ويرؤوا ظمأهم... فلا تُزلزل عالَمك الفكريّ إلى هذا الحدّ، ولا تهلك نفسك في سبيل هذه الوظيفة العظيمة التي ستؤتي ثمارها في المستقبل، فوجودُك ضروريٌّ، وما عليك إلا أن تؤدّي وظيفتك، ولا تتدخّل فيما تقتضيه الربوبية.

وما أكثر المعاني التي تعجّ بها الآيات مدحًا وثناءً على رسول الله ﷺ والتي لا يستطيع إدراكها إلا هو صلوات ربي وسلامه عليه!

ومما نستخلصه من هذا الثناء في الآية السابقة أن جميع الآلام والأحزان التي كابَدَهَا نبيُّنا ﷺ ما كان سببها إلا تبليغ الحقائق العظيمة التي جاء بها، وكأنه ﷺ كان مشحونًا بهذا الهمّ على الدوام كسحابة محمّلةٍ بالمطر، فلم تكن هناك مسألة أخرى تشغل باله سوى هذه الدعوة العظيمة؛ لذا تجِدُهُ وكأنه لا يعلم بما يُمارَس ضدّه من أذًى واضطهاد، وكثيرًا ما كان يسأل أصحابه الأوفياء عمّا يجري حوله، فإذا ما سمع نحيبَهم وقف مدّةً يسيرة عند المسألة ليسرّي عنهم ويسلّيهم ثم يمضي مسرعًا.

لقد أُلقي الأذى على ذلك الوجه الشريف الذي لا تقوى الملائكة على استدامة النظرِ إليه خجلًا، ووُضع سلا الجزور على ذلك الرأس الشريف الذي طوّفَ بالملإ الأعلى، ونُثر الشوك تحت قدميه المباركتين اللتين لو اكتحلَتْ عيناي بالغبار الذي وطِئَتْهُمَا لكنت أسعد الناس حظًّا، ورُمي بالحجارة حتى سال الدم من قدميه المباركتين ﷺ (ولَكَمْ صَرَخَتْ الملائكة حتى ضجّت السماء إزاء كلّ حجرٍ يلامس قدمه الشريفة ﷺ!)، كلّ هذا يحدث وكأنه ﷺ لا عِلمَ له بما يجري أو يحصل.

أضف إلى ذلك أنه عندما سمعَ شهيق عمر ﷺ بالبكاء قال له ﷺ: لِمَ تبكي يا عمر؟ ولمّا رأى أبا هريرة ﷺ وقد انحنى باكيًا قال له ﷺ: ما الذي يُبكيك يا أبا هريرة؟ ولما خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ يومًا تَلَقَّتْهُ فَاطِمَةُ عِنْدَ بَابِ البَيتِ وَعَيناهَا تَبْكِي، فَقَالَ لَهَا: "يَا بُنَيَّةُ مَا يُبْكِيكِ؟" قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا أَرَاكَ شَعِثًا نَصِبًا قَدِ اخْلَولَقَتْ ثِيَابُكَ، فَقَالَ: "**فَلَا تَبْكِي، فَإِنَّ اللهَ ﷻ بَعَثَ أَبَاكِ لِأَمْرٍ لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيتُ مَدَرٍ، وَلَا شَعرٍ إِلَّا أَدْخَلَ اللهُ بِهِ عِزًّا أَو ذُلًّا حَتَّى يَبْلُغَ حَيثُ بَلَغَ اللَّيلُ**"(٧).

أجل، ما ضيّعَ الله نبيه، لقد عاش ﷺ إلى يومنا هذا وسيظلّ فيما بعدُ في قلب كلّ من آمنَ به كوردةٍ أو زهرةٍ من الجنّة، ولقد كان الصحابة ﷺ على نفسِ الشاكلة.

إن الصحابة هم الجماعة الوحيدة التي أجمع عليها كل من على ظهر الأرض بمختلف شرائحهم، واتخذوهم مرشدين وروّادًا لهم، ونحن خدام الباب الأوفياء لهم، وأملنا أن يحشرنا ربنا تبارك وتعالى بهذا الإقرار الذي ألزمنا به أنفسنا.

(٧) الحاكم: **المستدرك**، ١٦٩/٣.

إنني أعتبر نفسي أكثر المؤمنين إثمًا، ورغم هذا فلو انكشف لي عالم المثال عن صورة أحد الصحابة الكرام ﷺ وتراءى لي في الأفق وشاهدته في رؤياي فسأطير فرحًا وسعادةً وأمتلئ بهجةً وسرورًا.

إنني لا أريد أن أحدّث أحدًا بهذا خشيةَ أن ينقطع عني هذا اللطف والإحسان العظيم، وأحيانًا أتغلَّب على قلقي وأحدّث أحدَ أصدقائي المقربين دون إرادة مني، وأقول له: "لقد تجلّى اليوم نجمٌ من دائرة هؤلاء الصحابة في أفق إنسان غير جدير بذلك"، إنهم هكذا بالنسبة لنا...

لقد عكس هؤلاء الصحابة بحقٍّ نور النبوة بمرايا قلوبهم، فكانوا مرآةً حقيقية لهذا النور الخالد ﷺ، وتمثّلوا حياته على أتمّ وجه، ولقد عمدوا -باتباعهم الشديد لإمام الأئمة ﷺ- إلى مبخرة الحقيقة التي كان صدره مجمرَتها ففاضت أنوارهم على الإنسانية كلّها بعون من الله تعالى.

كانت حركةً هادِفةً إنقاذَ الإنسانية في ذلك العصر، فَطُبِّقت على وجهها الأمثل، وإن ما شاهدناه لدى هؤلاء الصحابة ليؤكد لنا إمكانية أن يظهر اليوم مضحُّون يكرسون حياتهم لإنقاذ الإنسانية كما كرّسها الصحابة من قبل؛ لأننا نعلم أن التاريخ عبارةٌ عن تكرُّرِ الوقائع والتشكُّلات، وليس هناك أيُّ سببٍ يستدعي عدمَ تكرُّرها في هذا العصر، سيتكرر ذلك بمشيئة الله تبارك وتعالى.

إننا كنا مضطرّين حتى الأمس القريب إلى ضرب كلّ الأمثلة من عصرِ الصحابة، غير أنه أصبح لدينا الآن فرصة لضرب أمثلة من يومنا وعصرنا الحاليّ، إننا كنا ننتظر هذه الأيام بوعيٍ أو بغير وعيٍ، وعلى ذلك حينما نضرب مثالًا من عصر السعادة ومثالًا آخر من عصرنا ونجمع بين الحلقتين يتحقّق عندئذٍ ما كنّا نصبو إليه.

ولنوضّح المسألة بمثال: هناك مجموعة من الشباب لم يتلذّذوا بحياتهم بعدُ رغم أنهم يتقلّبون في مختلف النِّعَمِ الدنيوية، ويغبطهم الكثيرون على مكاناتهم ودرجاتهم الاجتماعية، ذات يوم جاؤوا لي بقائمةِ أسماءٍ كُتبَ في أسفلِها: "ناشدناك الله أن تدعو لنا ربَّنا أن يعيننا على استغلال كلّ لحظةٍ في حياتنا لخدمة ديننا وأمتنا، فإن حلّ أجلُنا رَحَلْنا إلى الآخرة مزوّدين بثواب الشهادة".

وهذا يعني وجودَ الصحابة من جديد، دعوتُ الله لهم مدَّةً طويلةً حتى يُنْفِقوا أعمارهم في سبيل الدين وأن تختم حياتهم بأجمل خاتمة وهي الشهادة، ودون اعتبار لأهليّتي كتبت اسمي في آخر هذه الأسماء، واستشفعتُ بأسماء هؤلاء الشباب إلى الله وتضرعت إليه أن ينعم علي بإحسانه وفضله وألّا يحرمني من أن أكون في زمرتهم.

إن حال هؤلاء الشباب وآلافٍ مثلهم لَيَعِدُنا بأمور كثيرة تهزُّ قلوبَنا وتدفعُنا إلى غبطتهم، وكلما رأيناهم منهمكين في أداء وظائفهم زادَ أملُنا، ونقول: سيتمّ هذا الأمر بمشيئة الله تعالى.

لأن هناك شبابًا سيمثلون هذا المعنى السامي في أعماق أرواحهم وفقًا لقامةِ وقيمةِ هذا المعنى، وهذا إحسانٌ كبيرٌ ودائمٌ من ربّنا تبارك وتعالى علينا. أجل، لقد ازداد مَن يعتصرون أَلَمًا بهمّ الخدمة حتى عند رقادهم؛ ومن بينهم ألافٌ من الشباب الذين تعيش أرواحهم اليوم هموم الإلحاد والملحدين، وهكذا فهناك جيلٌ جديدٌ على شاكلة هؤلاء الصحابة العظام الذين يُشكِّلون الرعيلَ الأوَّلَ، فهم عزموا على حملِ هذه الدعوة العظيمة، يجاهدون لأداء أعمالٍ تتوافق مع ما كان يفعله الصحابة، ويسعون بحقّ لأداء الوظيفة التي كُلِّفوا بها وقلوبهم تحترق كالمبخرَة التي

اقتبَسَتْ بخورها من النبي ﷺ، ومعهم رسالاتٌ من آمال جديدة، فيا إلهي لا تخذلنا بعيوبنا.

وإذا أردنا أن نلخص هذه المسألة نقول: إنهم قد صعدوا وارتقوا إلى السموات العلى بفضل خصالهم العالية مثل التفاني، والإيثار، ونسيان أنفسهم، بل ونسيانهم أمورهم الخاصة، وإعراضهم عن الملذات المادية والمعنوية في سبيل خدمة دينهم، فلو كنّا نتطلع في الأفق إلى هذه الخصال مثلهم فعلينا أن نشاركهم أفكارَهم نفسَها وأحوالهم الروحية عينَها.

حكمةُ المنع

سـؤال: نتطلّـع في خِدمتنا إلى إحراز غايـةٍ معيّنةٍ، فإن أخفقنا في تحقيقها ينتابنا حزنٌ بالغٌ يؤثّر على وجهتنا الاجتماعية، فهل بإمكاننا الحيلولةُ دون وقوعِ هذا الأمر؟

الجـواب: إن صديقَنـا السـائلَ يُترجـم بسـؤاله هـذا لأمرٍ قـد يعتري الكثيرين، ويُعَبّرُ بلسانٍ صادقٍ عن حادثةٍ ألـمّت به وما خلّفته تلك الحادثة من تأثيرٍ سلبيّ.

يتطرّق القرآن الكريم إلى هذه المسـألة في قوله تعالى: ﴿**أَمْ لِلْإِنْسَـانِ مَا تَمَنَّى**﴾ (سورة النَّجْم: ٥٣/٢٤)، أي يجب على الإنسان أن يتخلّى عن الطمـع، فللّـه الآخرة والأولى، فأحيانًا تُفضِي بعضُ الخسـارات هنا إلى مكاسـبَ هنـاك، فـالله ﷻ هو من يأخذ هنا ويمنح هناك، وأما معرفة ما سـيمنحه لنا في الآخرة وما سيهيّؤه لنا من مفاجآت مقابل ما أخذه منا في الدنيا فمتعذّرٌ علينا.

وفـي سـورة الضحـى يخاطِـبُ ربنـا تبـارك وتعالـى نبيـه ﷺ فيقول: ﴿**وَلَلْآخِـرَةُ خَـيْرٌ لَكَ مِـنَ الْأُولَى**﴾ (سـورة الضُّحَى: ٩٣/٤)، ومن ثـم فإن كانت الآخرة هي أَولى من الأُولى فَلِمَ الحزنُ على ما خسرناه في الدنيا!؟ أليس علينا أن نفكّر في مكسب الغد الأُخْرَويّ ونُسرّ ونحمد الله تعالى عليه!؟

وبإلقاءِ نَظْرَةٍ تدقيقٍ فاحصة على حياتنا العامّة نجدُ أنّ الجميع يتعرّضُ في حياته إلى كثيرٍ من الحوادث المؤيدةِ لما قلناه آنفًا، فبينما كنا نتجرّع الآلام والأحزان في البداية على ما فاتنا رأينا فيما بعد كيف كانت هذه الخسارة إحسانًا ولطفًا إلهيًّا من الله تعالى، فصَمَتْنَا مشدوهين مذهولين إزاء هذا الوضع.

قد يسوقنا الله تعالى جبرًا إلى مكان ما، وربما يكون هذا السَّوقُ وهجران الأهل والأصدقاء صعبًا على نفوسنا في البداية، إلّا أن الله تعالى يجري على أيدينا من الفتوحات ما لو اطلعنا عليه في بداية الأمر لما شعرنا بأيّ حرج، بل وهرولنا إلى ذلك المكان زاحفين حتى.

وأرى أنّ تشخيص هذه المسألة فَضْلَةٌ؛ لأنني أعلم أن عديدًا من الوقائع التي حدثت لكم في الماضي قد تبادرت إلى أذهانكم، وتشخّصت في مخيلتكم الآن وأنا أسوقُ هذه الأفكار.

علينا أن نرضى بما أجراه الله وقدّرَهُ، انطلاقًا من الحكمة القائلة: "الخيرُ فيما اختاره الله"، وهذا القول ترجمةٌ لرضًا يحمل في طياته كثيرًا من معاني التبعيّة والعبوديّة والإخلاص.

وجاء في الدعاء الذي علمنا إيّاه رسول الله ﷺ وأوصانا بأن نقرأه صباح مساء: "**رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**"(٨).

فإن كنا راضين عن هذا كلِّه، فلنُسَلِّم بما يرضاه هو، يعني: ينبغي لنا أن نسلّم له وبما يرضاه بكل ذاتيّتنا، وبهذا العمل ربما نخسر أشياء هنا، ولكن نكسب في الوقت ذاته أشياء أكثر هناك، فليترفّقْ صاحب السؤال بنفسه أيضًا.

(٨) سنن أبي داود، الأدب، ١١٠.

هناك أشياء كنّا نتمنّى وقوعَها في بداية الأمر، ثم فرحنا في المستقبل لعدم وقوعها؛ لأن ما قضى الله به كان أفضل ممّا كنا نتمناه من قَبِيل: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة النِّسَاءِ: ١٩/٤)، وتبيّن لنا أنّ المنعَ أحيانًا يكون هو عين العطاء، فليس الأفضل هو ما نرغبه أو نتمناه، ولكن الأفضل هو ما أراده الله تعالى؛ يعني مشيئة ربنا، وهذا هو السرّ الكامن في روح العبودية، علاوة على ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٢٦/٣)، فكم من أعزّاء أمسِ أصبحوا بؤساءَ وأذلاءَ اليوم، وكم من أذلاء وبؤساء أمسِ أصبحوا سلاطين اليوم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۞ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (سورة الْمَعَارِجِ: ٦/٧٠-٧)، إنه تعالى يرى أمورًا ويكشف لنا عن ماهيتها في المستقبل، ولو اطَّلَعنا اليوم على ماهيّاتها المستقبليّة لتحوّلَتْ رغباتنا، وتغيّرت مجريات حياتنا فورًا، لذا ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا﴾ (سورة الْمَعَارِجِ: ٥/٧٠)، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة التَّوْبَةِ: ١٢٩/٩)، لن ينفعك في الدنيا والآخرة سوى نيل رضا الله تبارك وتعالى، فابحث عنه واجتهِدْ في تحقيقه، فإذا وجدته فاسجد لله واحمده طوال حياتك.

فاتر الهمّة وتارك الخدمة

سؤال: كيف نتصرف تجاه إخوتنا المسلمين الذين تهاونوا في خدمة دينهم وأمتهم، وفقدوا نشاطهم وانفعالهم في القيام بأفعال الخير؟

الجواب: هناك إخوة لنا تهاونوا في خدمة دينهم وأمّتهم لأسبابٍ شتّى، ويمكن أن يقع هذا الأمر في كلّ وقت، ولكنهم مع ذلك يبقون إخوة مؤمنين بالنسبة لنا، ولهم أيضًا كلّ ما يستحقّه المؤمن من منزلةٍ واحترام حسب تعاليم القرآن والسنة، إذًا فالمعيار هنا -كما في كلّ أمرٍ- هو القرآن والسنة، فليس لنا أبدًا أن نغتابهم، لأن الغيبة حرام، وأكلٌ من لحم الأخ ميتًا، أي تستوي إهانتك له قولًا أو فعلًا وسلْقَكَ له في قِدرٍ ثم أكلك من لحمه، ولكن هناك حالات تجوز فيها الغيبة، وكتب الفقه تشرحها بالتفصيل، إلا أنني لا أوافق على الاقتراب من تلك الحالات، فالقليل من الناس مَن يستطيع التصرف بتوازن معها؛ فليس من الصحيح قيام أيّ شخصٍ باستعمال ذلك الحقّ والاقتراب من تلك الحدود.

هذه ناحيةٌ من نواحي هذه المسألة، أما الناحية الأخرى، فهي أنّ ما نقوله بحقّ ذلك الأخ سيصل إلى مسامعه في يوم من الأيام، فيكون هذا

سببًا في ابتعاده عنا أكثر فأكثر، ولكوننا نحن المتسببين في هذا فالمسؤولية تعود علينا، وليس هذا بالإثم الهين؛ لأنّه ما من شخصٍ يملك صلاحيةً وحقًّا في إبعادِ وحرمان أيّ فرد من هذه الدعوة والخدمة الإيمانية المباركة، وقد لا يكتفي هذا الشخص بالابتعاد عن الدعوة التي كان في السابق يفديها بروحه، بل ينقلب عدوًّا لها، ولما كانت الخصومة للدعوة الحقّة ذنبًا كبيرًا وعظيمًا فإنّ المتسبب في مثل هذه الخصومة سينال الإثم نفسه.

كثيرًا ما يقوم بعضُ الناس بنقد الدعوة أو الخدمة التي لا يكونون ضمن دائرتها ويستهينون بها، فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار فإن مِن الحكمة توقّع جميع التصرفات من الذين ابتعدوا عن الجماعة على نسبة ابتعادهم، فذلك هو قدَرهم المرّ وحظّهم التعس، وهذه نتيجةٌ مؤلمة تدعو إلى الرثاء والشفقة، ووظيفتنا هي أن نتعامل معهم المعاملة التي كنا نودّ أن يعاملنا الآخرون بها لو كنا في موقفهم، ثمّ لا نستكثر عليهم مثل هذه المعاملة.

والرسول ﷺ كان يفعل الشيء نفسه، إذْ لم يقلْ شيئًا ضدّ أي شخص وقع في الخطإ أو الزلل أو قلّ جهده في ذلك العهد، ولم يغتبْ أشخاصًا كان يعرف نفاقهم أمثال عبد الله بن أُبيّ بن سلول الذي كان يتظاهر بالإسلام، ولم يقل ضدّه كلمةً واحدة تُشمّ منها رائحة الغيبة مع أن الصحابة رضي الله عنهم طلبوا منه قتله بعد أن ألصق فريةً ملعونةً بسيدةٍ طاهرةٍ عاليةِ المقام مثل أُمّنا عائشة رضي الله عنها... بل قال النبيُّ ﷺ لهم: "**دَعُوهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**"(٩)، ولو قمتم بتدقيق جميع كتب الأحاديث لوجدتم أن سيد العالمين رسول الله ﷺ لم يقل في حقّ أيّ مؤمنٍ أيَّ كلمةٍ قد تزعجه أو تنال منه، فإن استطعتم العثورَ على مثل هذه الكلمة فإنني

(٩) صحيح البخاري، تفسير سورة المنافقين، ٥.

سـأتخلى عن كل ما قلتُه سـابقًا أو ما سأقوله مسـتقبلًا، كلا لن تجد كلمةً واحـدة في هذا الخصوص، وهذا هو المقياس الذي يجب أن يكون؛ لأنه مقياسٌ لن يضلّ، فعلينا ألّا نغتاب إخواننا حتى ولو بكلمةٍ واحدة.

وإذا نظرنـا إلى سـيرة الرجال القدوة فـي الخدمة الإيمانيـة والقرآنية مثل الأستاذ بديـع الزمان سعيد النُّورسي سنرى أنه عندما ابتعد عنه بعضُ تلاميذه لفترةٍ من الزمن ثم عادوا ورجعوا إليه مدحَهم وركّز على رجوعهم فقـط وأثْنـى علـى ما هم عليه أثنـاء الرجوع، وهذا هو ما بقـيَ في ذاكرتنا عنهم، بقيَ في ذاكرتنا أنهم رجعوا، ولكن كان من الطبيعي أن هذا الرجوع سبقه فراق وبُعدٌ ولكن ذلك الزعيم الكبير الذي كان دقيقًا جدًّا في جميع كلامـه وتصريحاته ركّز فقط على رجوعهم، ولم يكتب سـطرًا واحدًا عن مفارقتهـم وابتعادهم، ومـع أن الكثيـرَ في عهده افترَوا عليه وهاجموه، إلا أنـه لـم يقل كلمـة واحدة صريحـة تُفيد الغيبة ضـدّ أحدٍ منهـم ولم يذكر بصراحـةٍ اسـمَ أحدٍ منهم، لأنه عـدّ هؤلاء الأشـخاص إخوانًا له من جهة الإيمـان ولـم يقابل تهجّمهم عليه بكلمةٍ واحـدة، فالإيمان والوقوف ضد الكفر واستحقاقُ الجنة في النهاية ليس من الأمور التي يمكن التهوين من شأنها؛ لذا فكما نهرب من الأفاعي والثعابين ونبتعد عنها، علينا كذلك أن نتجنّب ونحذر من اغتياب إخواننا.

من الممكن النظرُ إلى المسألة من زاويةٍ أخرى؛ فالعقوبات التي تُطبق فـي الظروف الاعتيادية في الإسـلام لا تُطبق في جبهـة القتال، أي إنّ مَن يسـرق أو يزنـي أو يفتـري فـي جبهـة القتـال لا تُطبّق عليـه عقوبات هذه الأفعـال، والحكمـة من هذا الحيلولـة دون لجوء المذنـب -وهو يحاول إنقـاذ نفسـه من العقاب- إلى صفوف الأعـداء، لكن ماذا يحدث إن التجأ

إلى الجبهة المعادية؟... أما هو فيقع في خسران أبَدي، وأما نحن فنكسب عدوًّا يعرف جميع أسرارنا، وكِلا الأمرَين مرٌّ وخسارة لنا، لذا لا بدّ من ضبط المسألة للضرورة القصوى، فكان من الضروري التعامل مع هؤلاء بمنتهى الحكمة وبأجمل أسلوب.

مثلًا قد يبتعد أحدُ إخواننا عن الخدمة الإيمانية والقرآنية بسبب الخوف أو بسبب الرغبة في منصبٍ ما، فيخرج عن دائرتِنا حَيطةً وحَذَرًا، وحمادى القول له هنا: إننا نتفهّم دواعيه وأنه تصرّف كما يجب، ونعمَ ما فعل، فلا يشغلنّ باله بأنه وقع في الذنب بصنيعه هذا، ويجب علينا أن نجعله يصدّق ما نقول؛ حتى لا نسد المنافذ إزاءه، فقد تتجدّد علاقاتنا معه بعد سنوات، وقد يفهم الحقيقة فيما بعد ويرجع إلينا، فإن اعترف بأنه كان على خطإٍ وأننا كنا على صواب، عندئذ نتعامل بكلّ مروءة قائلين: "أنت محقٌّ الآن أيضًا".

ولا ننسى أبدًا أن مَن يغتبْ الآخرين يفقد ثقةَ المستمعين له، والجماعة التي تهتزّ فيها الثقة بين أفرادها لن تستطيع أبدًا حملَ أمانة الحقّ الثقيلة.

ثم قد يوجد أشخاصٌ تربطهم بمن تتمّ غيبته علاقاتٌ من قبيل القرابة أو المودّة أو الفكر المشترك، فتُثيرُ هذه الغيبة في أنفسهم حساسيةً لا تؤدّي بدورها إلا إلى خسارة في جبهتنا.

فقد يؤذينا باغتيابه لنا، ولكن علينا ألا نقابله بالمثل، وأن نحافظ على علاقةِ التوازن فيما بيننا؛ إذ يجب أن نكون بعيدين جدًّا عن الانتقام لكرامتنا، أو التورّط في مسائل شخصية، وعلينا أن نضحّي بكلّ شيء في سبيل دعوتنا السامية، ففي الوقت الذي يُنال فيه من كرامة رسولنا ﷺ، وتُزيّف فيه حقائق القضايا الإسلامية؛ لا نستطيع جعل القضايا الخاصة

بنـا موضوعَ السـاعة، بل لا نسـتطيـع أن نجد الوقت حتـى لمجرّد التفكير فـي ذلـك. إن أفضل معونةٍ يمكـن تقديمُها اليوم لأيّ إنسـانٍ هي المعونة المقدّمـة لإنقـاذ حياته الدينيـة، ووظيفتنا نحن هي الإسـراع لنجدة إخوتنا وإعانتهم.

مفهوم الأخوّة

سؤال: كيف نرسّخ مفهوم الأخوة بيننا؟ وما رأيكم في وضعنا الحالي؟

الجواب: قبل الدخول في هذا الموضوع أودّ أن أنبّه إلى المسألةِ التاليةِ:

لا بدّ من مراعاة الدقة البالغة عند إسناد أعمالنا الصالحة بل وكل أمر اختياري أو إرادي نقوم به لله تعالى، وعلى الإنسان أن يُقنِعَ نفسَه رغمًا عنها بهذه المسألة، بل لا بدّ وأن يكون حذرًا في المواضع التي تبدو وكأنها مترتبة على أفعاله في الظاهر، وينبغي للإنسان كذلك أن ينأى بنفسه عن تخصيص شيء لها، قائلًا: كلا، كل هذه الأشياء ملك له ﷻ، فلا تحاولي يا نفس أن تنسبي شيئًا لك، وعلى الإنسان المؤمن أن يتجنب كافة أنواع الشرك، بل لا بد وأن يكون غيورًا إزاء هذا الأمر؛ فإن الله ﷻ يغار أن يشرك به، فلا قدر ولا قيمة لأي عمل عنده لو أُبتُغي به غيره، ومن ثم لا بد أن تتسم خدماتنا -أيًّا كان اسمها وحيثما وقعت- بالإخلاص، وأن يُنشد فيها رضا الله تعالى حتى تحظى بقدرها عند الله ﷻ.

أما المسألة الثانية التي لا بد من الالتفات إليها فهي المحافظة الدائمة على المعنى الذي يُشيرُ إليه السؤال، وتحويله إلى واقع عمليّ.

إن الأخـوة بمسـتوى تفانـي البعض في البعض هي مـن أكبر العوامل التـي تؤثّر في الآخريـن، فالافتخار بمزايا الآخرين وفضائلهم وتقبل الفرد لها وكأنها مزاياه وفضائله هو من أهم الأسباب التي تفضي إلى ترابط أفراد الأمة بعضهم ببعض، وإثارة روح الإقدام في نفوسـهم، وإشـعال قابلياتهم وإلهابِ استعداداتهم حتى تصير جمرات متعددة، كما تكون وسيلة لنزول الرحمة الإلهية كالغيث زخًّا زخًّا، فلو تكاتفَ المجتمـع كالجسدِ الواحدِ، واتّحـد علـى أسـاسٍ من الوفـاق والاتفاق لحظيَـتْ روحُه وقلبـه بالعون والنصرة والتوجيه الدائم من الله إلى كلّ ما هو إيجابيّ وجميلٌ ومسـتقيمٌ، ولذا يكاد ينعدم الخطأُ في شخصِهِ المعنويّ.

وقـد تُبـدَّلُ الأخطاء التي يرتكبهـا أفراد ذلك المجتمـع إلى حسـنات نتيجـةَ صدقٍ وإخلاص نواياهـم، لكن من المتعذر أن يتحقّق ما قلناه عند من تشـتَّتَتْ قلوبُهم وإن كانوا على المنهج نفسـه، وعلاوة على ذلك فإن الانحـراف فـي المنهج وما يتبعه من اختلافـات يؤدّي إلى الدخول ضمن الدائرة الفاسـدة التي يصعب الخروج منها مطلقًا، وعندما يدخل الإنسـان إلـى مثـل هذه الدائرة الفاسـدة يُصبح مثل ذلك الذي يهـرول مُوليًا ظهره لهدفه، فيبتعد مـع كل خطوة يخطوها عن هدفه وغايته الأساسية.

بيد أن الرسول ﷺ والصحابة هم من حملوا هذه الأمانة على عواتقهم فـي فتـرة ما، يعني أننـا لو تناولنا المسـألة وفقًا لقانون "السـبب والنتيجة" لرأينا أنه من الضروري لهؤلاء الذي سيحملون هذه الأمانة على عواتقهم مـن جديد أن يتحلّوا بنفس الشـعور والسـمات التـي كان عليها الصحابة، ربمـا لا يمكن أن نجاريهم تمامًا من ناحية الكيفية، ولكن علينا ألا ننسـى أنه بقدرِ تشبُّهنا بهم بقدرِ ما يُمكننا القيام بما كانوا يقومون به.

وهذا الوضع ينطبق كذلك على مفهوم الأخوة، فعلينا أن نعرف كيف وبأيّ شكلٍ حقّق هؤلاء مفهوم الأخوة فيما بينهم حتى بلغوا بذلك أعلى المراتب، وعند ذلك لن تتغيّر هذه القاعدة والنتيجة بالنسبة لنا.

منذ نعومةِ أظفاري وأنا أقرأ عن حياة الصحابة ﷺ، وبعد فترة معيّنة أخذتُ أُحدّث الناس عنهم، وكنت أقِف أحيانًا مشدوهًا مذهولًا أمام لوحات الأخوة التي يمثلها هؤلاء، معتقدًا وكأن تلك الصفات خاصة بهم دون غيرهم، أو هي نوع من الطوبيا التي لا سبيل إلى تحقيقها على أرض الواقع حاليًّا، وبعد ذلك شاهدت عند البعض أمثلةً حيّةً لهذا المعنى فاقتنعت تمامًا بأن مثل هذه الأفكار والصفات يمكن معايشتها في الوقت الحالي، حتى إن أمثلة التفاني التي كانوا يتعاملون بها هؤلاء الناس مع بعضهم أثرت في الآخرين كثيرًا؛ لدرجة أنني سمعت بنفسي شخصًا يقول بنبرةٍ مفعَمَةٍ بالحيرة والإعجاب بعد أن أتاهم ولمس بإعجاب هذه الأخوة فيهم: يا الله، ما هذه الأخوة! ما زال هذا القول وما اكتنفه من نبرة لذيذة يحافظ على حيويته في ذاكرتي، ولا جرم أنه أسعدني سعادة بالغة، نحن نقر ونعترف بهذا الخلق الرفيع الذي شاهدناه بين المسلمين، لكننا نرى أن هذا ليس كافيًا، بل ينبغي لنا ألا نشبع من مثل هذه الأخلاق؛ لأن شعور الأخوة قد يكون كافيًا اليوم، ولكن قد لا يكون غدًا بالقدر الذي تحتاج إليه أمتنا لاجتياز العوائق والعقبات التي يحتمل أن تكون حجر عثرة في سبيل تقدمها وعظمتها.

وإذا ما تناولنا المسألة على نطاق أوسع وأجرينا تقويمًا يشمل العديد من الناس الذين وقعوا في رق النظم والأيديولوجيات بالمعنى الحديث لأدركنا جيدًا كيف كان فكُّ الرقبة عقبةً حقًّا.

أجـل، لقد كان فـكُّ الرقبة عقبة، وكذلك إيثار المرء أخاه على نفسـه رغم ما يعيشه من ضيقٍ وضغوطِ العيش هو عقبة أخرى.

وتقديم الآخرين على نفسه في الفيوضات المعنويّة فضلًا عن المادية، واعتبـار ذلـك وظيفـة ملقاة على عاتقـه لهو عقبة أخرى على الإنسـان أن يقتحمهـا، وتجـاوز هـذه العقبة منعقدٌ علـى التمثل بالصحابـة ﷺ أيضًا، الذي أبهر أحدُهم وأذهل ملائكةَ السـماء بحسن صنيعه مـع ضيفه، عندما أطفـأَ المصباحَ وأظلـمَ الغرفة حتى لا يرى الضيفُ ما يفعله، وكان يذهب بملعقته ويأتي بها فارغة حتى يشـبع الضيف، فرسـم بذلك صورة نورانيّةً على الإنسان أن يتمثلها[١٠].

مثال آخر: لما ارْتَثَّ يوم اليرموك الحارث بن هشـام وعكرمة بن أبي جهـل وعيـاش بن أبي ربيعـة ﷺ، فدعا الحـارث بماء يشـربه، فنظر إليه عكرمـة، فقـال الحارث: ادفعوه إلى عكرمة، فنظر إليه عياش بن أبي ربيعة فقـال عكرمـة: ادفعوه إلى عياش، فما وصل إلى عياش ولا إلى أحد منهم حتى ماتوا وما ذاق الماء أحدٌ منهم ﷺ[١١].

هـؤلاء هـم الصحابة الذين نزل فيهم قـول الله تعالـى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٩/٥٩).

وإطعـام اليتيم عقبة أخرى، ولو أطلقنا العنان لأسـاليب المجاز لظهر أمامنـا كثيـر مـن معاني اليتـم، فالذيـن حُرمـوا الثقافة الإسـلامية ووقعوا فريسـةً للآخرين بسـبب الحاجـة الناجمة عن الحرمان يعـدّون من صنف اليتامى أيضًا، وهؤلاء علينا أن نأخذ بأيديهم وندرس السبل التي توصلهم

(١٠) انظر: **صحيح مسلم**، الأشربة، ٣٢.

(١١) ابن كثير: **التفسير**، سورة الحشر: ٨/٥٩؛ الأصبهاني: **الترغيب والترهيب**، ٢٦٦/٢.

إلـى أوج الكمـالات، وأن نلَقِّنَهـم ما يحتاجونه للوصـول إلى هذه الغاية، وهذه عقبةٌ أخرى مختلفة تمامًا.

أمـا النقطـة التي أنشـدها من وراء هـذا الموضوع الـذي تطرقْتُ إليه مُطْنِبًا حتى أنبّهَ على العقبة المحتمل أن تكون حجرَ عثرةٍ أمامنا فهي: يبدو شـعور الأخـوة كافيًـا لنا حاليًا، إلّا أننـا في حاجة إلى ازديادِ هذا الشـعور الدوام حتى نحتضن المسـتقبل على سـعته، وتتمكَّنَ أُمَّتُنا من السير بأمان إلى مستقبلها المشرِقِ.

ولـذا لا بـد مـن علوّ الهمّـة إزاء ذلك، وأن نقول باسـتمرار: "هل من مزيد؟".

الشحذُ الروحيّ والشدّ المعنويّ

سؤال: إلامَ يكون الشدُّ المعنويُّ عند المؤمن؟ وكيف يجب أن يكون؟

الجواب: الشدُّ المعنويّ بالمعنى الإيجابي هو شعور الإنسان برغبة عارمة إزاء الأمور الحسنة وتلهّفه عليها وتشرّبه بها وتيقّظه تجاهها، إنه توقانُ الإنسان -بعشق- للدين والقضايا والأفكار والمشاعر الدينية، والتلوي في ألم وأسًى من أجلها، والقلقُ بهذا الخصوص، والتفكيرُ فيها ليلَ نهار كما يفكّر الشخص في محبوبته، والقيامُ والقعود بها، وترقّبُ ميعادِ أن يكون الدين روحًا للحياة، وكأنه يترقّب الوصال مع محبوبته، وإيمانُه بأن أعظم أمانيه وأسمى غاياته في حياته هو توجيهُه الإنسانيةَ -بدءًا من أمته- إلى تلك الأفكار والمشاعر الدينية.

فضلًا عن ذلك لا بدّ للإنسان أن يشعر بالبغض والنفور من الكفر والجحود والضلالة وسوء الأخلاق حتى يحافظ على حيويته ونشاطه، وعلى العكس فإن حدث وأظهر الإنسان قليلًا من التراخي والتقصير ما استطاع أن يفعل أيَّ شيء، وما تمكن من إنجاز أي خدمة.

ولا يمكن تحقيق ما يرضي الله إلا عن طريق السعي والشوق العارم في سبيل هيمنة ما يأمره ويرضى عنه من الفكر والفلسفة والوئام الاجتماعي على الحياة.

فإن لم يكن لدى الفرد إصرارٌ وعزمٌ على مكافحة كل أنواع الانحراف والتفلّت أو إن كان يدنو من الكفر وشتى أنواع الانحراف ولا ينزعج ولا يتأثر سلبيًّا، كل هذا يعني أنه فقد شدّه المعنويَّ تمامًا واستسلم للعجز كُلّيّةً.

وموقف النبي ﷺ بهذا الخصوص جليٌّ واضح، يقول ﷺ: "**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**"(١٢)، ويقول ﷺ حول مسألة الحفاظ على الشدّ المعنوي تجاه جميع الأوامر والنواهي وتحديد موقفنا منها "**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**"(١٣).

أجل، من أحسّ ووجد في ضميره هذه الثلاث فقد استشعر حلاوة الإيمان.

أولًا: "**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**"؛ يعني ينبغي ألا يوجد شيء يفضُلُهما، فتبادلُ الحبّ الفطريّ بين الأبوين وأولادهما -مهما كان عميقًا- لا بدَّ أن يسبقه -وغيرَه- علاقةُ الإنسان بالله ورسوله ﷺ من حيث العقل والمنطق والفكر والتقدير.

إن الحبَّ والتعلّقَ بالله ورسوله ينطلقان من التفكّر والشعور والبحث والاكتشاف، فإن استشعر الإنسان وتذوّقَ -بالبحث والتفكُّرِ- حلاوةَ هذا الحبّ في وجدانه أيقَنَ بِيُتْمِها وألا شيءَ يعدلها ألبتَّة.

وهذا هو الوصف الأول المنشود في المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان: أن يقدم الله ورسوله على كل شيء، وبعبارة أشمل: أن يُفَضِّلَ أركانَ

(١٢) صحيح البخاري، الإيمان، ٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٧٠.
(١٣) صحيح البخاري، الإيمان، ٨.

الإيمـان على كلّ شـيءٍ، فـإذا ما امتلأت الصدور بحب الله، واسـتضاءت الوجوه بنور الله نستشـعِرُ كلّ شـيء، ونشـعرُ بمعنى الوجود، وإلا فالعدم والوجود سواء.

ثانيًا: إن المؤمن الذي امتزج بهذا المفهوم يُحِبُّ جميع المؤمنين بل يحبُّ كل الكائنات لا لشيءٍ سوى لله الذي يفنى في محبَّتِهِ ﷺ، يحبهم بلا غرض وبلا انتظارِ مقابل. أجل "**يحب المرءَ لا يحبّه إلا لله**".

وإنّ هذه المسألة لَتُعتَبَرُ عامِلًا مهمًّا للغاية في تشكّل مجتمع الطمأنينة والوجدان الذي يرتضيه الله، أما الأمر المهمّ الآخر الذي ذُكر في الحديث -**ثالثًا**- فهو اتخاذ موقف ضد الكفر والشدُّ المعنوي تجاهه: "**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**". أجل، لو لم يكره المؤمن أن يعـود فـي الكفر بعد أن أنقذه الله منـه كما يكره أن يُقذفَ في النار لَمَا ذاق طعمَ الإيمان، أي إنّ على المؤمن أن تأخذه رعشةُ وينتابه التقزُّزُ والتقبُّض عن الكفر والجحود والضلالة وعن كلّ ما هو بغيض وملتوٍ ومنحرِف.

إن مـن خلا قلبه من البغض لهذه الصفات التي ذكرناها آنفًا لا يمكن أن تكون لديه أدنى رغبة في أن يتلاشى الكفر ويحل محله الإيمان فيهيمن على قلوب الأجيال، ولتحقيق هذا لا بد وأن يشـعر الإنسـان بعشـقٍ عارمٍ للإيمان وبُغضٍ دفينٍ للكفر.

أجـل، إن اتخـاذ موقـف مناهضٍ للكفـر الذي يترتب عليـه كل أنواع الشرور والمفاسد والفوضى والاضطراب والتفلّت وعدم الاستقرار شرطٌ جِدُّ مهمٍّ في سبيل حصول المؤمن على الشدّ المعنويّ، ومن أجل صالح الدولة والأمة بل والإنسانية بأسرها.

إن أعظم الجرائم التي ارتكبها أعداء الدين والدولة ضدّ هذه الأمة هي تَغْيِيبُ وإذابة شدّها المعنوي وتبديد روحها وقِيَمِها الأساسيّة، وهذا الفكر الملعون أطلق على الجهاد بغيًا، وعلى النصر احتلالًا، وحوّل أمةً جسورةً عريقةً إلى قُطْعَان من الغنم وعلى حدّ قَول الشاعر «محمد إقبال» فلم يَعُد يؤثّر فيها احتلال أو استغلال، أو تلاعبٌ بعزتها وشرفها، فمثلًا إن انتُهك عرضها، ودُنِّس شرفها، ولم يعد هناك ما يسمى شرف واعتبار، واخْتُرِمَ كلُّ شيء فيها فلن يكون بوسعها حتى أن تتأفَّفَ؛ وذلك لأنها فقدت شدَّها المعنوي.

وكما يمكن للإنسان -بفضل الشد المعنوي هذا- أن ينال كل ما يرغبه ويتوق إليه، فكذلك يمكنه به تجنّبُ ما لا يحبّه الله أو يُناقِضُ رضوانه ﷻ.

والخلاصة: إن الشدَّ المعنويَّ هو رغبةٌ مُلِحَّةٌ في الإيمان، ومَقْتٌ بغيضٌ للكفر والضلالة والطغيان، ولا يَمُتُّ إليه بِصِلَةٍ الاحتشادُ والنزاعُ في الشوارع.

إن ذا الشد المعنوي هو مَن يستشعرُ في وجدانه انفعالًا داخليًّا كأنّه ناجمٌ عن ألف مشاجرة ومشاجرة...

هو الذي يتضوّرُ بما تجرّعه ألوفًا من المعاناة...

هو الذي لا ينشغِلُ سوى بمشاكلِ أمّته...

هو الذي يرضى أن يُقذفَ به في جهنّم، وأن يموت ويحيا مرّاتٍ ومرّات فداءً لأمّته وفي سبيل نجاتها...

هو الذي يستشعر في وجدانه بهموم مجتمعه وأمّته...

هو الذي يتحسّر أنينًا، ويتضوَّرُ أَلَمًا، حيالَ مَن يُشرِفون على جهنّم ويتتابعون سقوطًا فيها كحلقات السلسلة المربوطة ببعضها...

هو الذي يحمِلُ في وجدانه هموم أصحاب الضمائر المعذّبة ممن بلا خلاقَ لهم بالإيمان...

هو مَن تتّقِدُ في أعماقه نار الشعورِ بالمسؤوليّة، وجذوة الشفقة فيقول: كيف يتحمل هؤلاء حياة المعاناة هذه، وكيف يواصلون حياتهم في هذا الجو الخانق من الكفر والضلالة؟!

ها هو ذا إنسان الشد المعنويّ!

إن أمثالَ هؤلاء يُحرِزون كلَّ يومٍ مرتبة الشهادة والجهاد بما يحملونه من الأحاسيس الإنسانية النقية، لذلك لا يمكن أن تُخيفهم أو تُثَبِّط من عزيمتِهم أو تقودهم إلى الفتور والتراخي صعوبةُ الظروف، ولا ضيق السبل، ولا تتابع الظلمات، ولا سيطرة الضباب والدخان على البيئة حولهم، بل لا يمكن لهذا كلّه أن يؤثّر فيهم فضلًا عن أن يلوي أعناقهم للكفر أبدًا، وهذا ما نقصده بالشد المعنوي.

فالمجتمع حين يفقد شدَّه المعنوي كبِّر عليه أربعًا، لأنه ميْتٌ، وإن كان حيًّا صوريًّا، وحتّى تلحقَ أجسادهم بأرواحهم الميتة يسلط الله تعالى الظالمين عليهم فيسحقون أجسادهم لِتُقْبَرَ مع الأرواح.

الموت يبدأ أوّلًا في الروح والقلب، ثم يسري إلى الجسد، أما من لم تمت أرواحهم فإنّ الله يرعاهم فلا تسحقهم أقدام عدوهم، وبالعكس فإن الهزيمة المعنوية تعقبها هزيمةٌ مادّيّة.

فضلًا عن ذلك فإن رغبة هؤلاء في حياة دينيّة ما هو إلا وهم وعبث، لأنّ مَن لم يحافظوا على شـدّهم المعنويّ -أيًّا كانوا- لا عاقبةَ لهم سـوى الموت.

فـإن كنـا ننتظِرُ انبعاثًـا جديدًا، فَلْنَعْلَـمْ أن ذلك يقـع علـى عواتق من يُحرِزُونَ الشدّ المعنوي.

والله أعلَمُ وهو المستعان.

الحفاظ على الأجيال

سؤال: هل يمكن أن تشرحوا لنا كيف نحافظ على جيلنا ضدّ عمَليات التخريب التي يقوم بها المفسدون؟

الجواب: منذ عهد آدم عليه السلام وحتى اليوم اختار الكفرُ طريق التخريب والهدم، واختار المؤمنون دائمًا طريق البناء والتعمير، واليوم يجري الشيء نفسه، لذا نرى مفكر العصر الأستاذ النُّورسي رحمه الله الذي أحسّ بهذا الهمّ في أعماق قلبه يقول: "لذا فمقاومة خدام القرآن الكريم وحدهم تلك التخريبات المريعة إنما هي عمل خارق جدًا، فلو كانت هاتان القوَّتان المتقابلتان على مستوًى واحدٍ من القوَّةِ؛ لكنتَ ترى في التعمير والبناء -الروحي والأخلاقي- خوارقَ وفتوحاتٍ عظيمة جدًا"(١٤).

فلا يقوم مَنْ ليس لهم حظٌّ من الإيمان إلّا بعمليات التخريب والتدمير، إذ يقومون باستغلال مشاعر الإنسان وغرائزه لِجَرِّهِ وإسقاطِهِ في مستنقَعِ الشهوةِ، ويُثِيرون فيه الرغبات إلى أن يُصبحَ أسيرًا وعبدًا لحياة مادّيّةٍ بَحْتة، ويزيّنون له المنصب والجاه ويُغرّرون الناس، وهكذا تقوم جبهة الكفر بعمليات هدم وتخريبٍ واسعة بوسائل بسيطة، فتغوي أجيالًا من الشباب، ولو كانت الأمور تجري بهذه البساطة لصالح أمّتنا لأُحرزت نجاحات كبيرة بعد كلّ هذه الجهود المبذولة، في حين أننا نقوم بإعادة بناءِ وتعمير قلعة كبيرة جدًا تهدّمت جدرانُها وحصونها منذ قرون عديدة.

(١٤) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **سيرة ذاتية**، في منفى قسطموني، ص ٣٤٥.

تأملوا، لقد اهتزت قواعد التوحيد في جميع بلدان العالم الإسلامي، وظهر الكفر بالله وإنكاره، وتعرّض الرسول ﷺ للسخرية والاستهزاء، واستُهين بالدين، وأُهين القرآن الكريم؛ مصدر النور الذي أضاء الكون واعترف أعداؤه بإعجازه، بل فقدَ الدين حتى عند بعض المؤمنين أولويّتَه وثِقَلَه، وتعقّد كلّ شيء...

إن الواجبات لَتتعاظَمُ وتكثرُ في مثل هذا العهد، كما تعظم قيمة تلك الواجبات وأهميتها، وإنَّ سَحْبَ لبنةٍ واحدةٍ من مكانها على يدِ المخرّبين كفيلٌ بسقوطِ وانهيار البناءِ كاملًا، وعند ذلك يجد المسلمون أنفسهم مضطرّين إلى إعادةِ تشْييد البناء لبنة لبنة وحجرًا حجرًا مجدّدًا، وحراسةِ الجزء المشيّد من البناية أيضًا، ومما يجبُ علينا ذكرُه هنا أننا نلمس في عَمَلِنا هذا يدَ العناية الربانية، وهذه الأسطر تذكّرني بإحدى ذكريات العالِم "باسْكال"، لقد كان إنسان وَجدٍ وعِشق، ولكنه لم يكن محظوظًا؛ يقول أحد مفكرينا عنه: "إنه أضاع فرصة الركوب على الباخرة الأخيرة ولم يستطع اللحاق بها...". أجل، لقد اقترب من ميناء سيدنا محمد ﷺ ولكنه لم يستطع رميَ نفسه في أحضان ذلك النور، هذا موضوع آخر، وما أريده هنا هو إيراد إحدى ذكرياته لإيضاح مسألة متعلّقة بنا.

يقول باسكال: "كنتُ راكبًا عرَبة يجرّها حصانان، وكانت العربة تسيرُ بمحاذاةِ نهر "السين"، وفجأةً فقدتُ السيطرة على الحصانين، فبدآ بالعدْو نحو النهر بجنون... لم يكن هناك أيّ أملٍ في النجاة، إذ كان مقدّرًا لي أن أسقطَ في النهر، ولكن شيئًا غيرَ متوقَّعٍ حدثَ، إذ انقطعَ الرباط ما بين الحصانين والعربة وسقط الحصانان في النهر، أما أنا فقد تمّ إنقاذي بِيَدَين نورانيّتَين، حيث بقيت أنا والعربة على حافة النهر".

وبسبب هذه الحادثة عزفَ "باسكال" عن منهجِ حياته السابق المليء باللهو والمجون، وقضى بقية حياته متفرّغًا في الدَّيرِ -كراهبٍ- متأمِّلًا ومتفكِّرًا، أما نحن فقد رأينا هذه الأيدي النورانية مئات المرّات في الحوادث التي جرت معنا، وليست مرّةً واحدةً كما حدث لباسكال؛ لذا فإننا نحمد الله تعالى حمدًا لا نهاية له على نِعَمِه ورعايته.

وبينما يقوم الطرف المعادي بتدمير الشباب بأفلامه ومسرحياته وخَمّاراته وملاهيه الليلية، فإننا نرشد الشباب ونطلب منهم أشياء تبدو في الظاهر صعبة، إذ نقول لهم: "صلّوا وصوموا وضحوا ببعض رغبات أنفسكم، لا تعيشوا لأنفسكم، بل لِمَن حولكم، وضحّوا بأنفسكم من أجل الأجيال القادمة"، ومع كلّ هذه المطالب الصعبة ظاهريًّا نرى إقبال آلاف الشباب علينا، وتمسكهم بإخلاصٍ بمبادئ الإسلام، لقد قلنا قبل سنواتٍ بأن التفكُّك والانهدامَ سيكون مصير الاتحاد السوفيتي والصين، وأصبح هذا من المعلومات الاعتيادية الآن، ومسائل عديدة قيلت في الأمس ولم يفهمها أحدٌ حقَّ الفهم ونراها الآن قد تحققت وأصبحت عينَ اليقين، فهناك تبدّلات وتغيرات مهمة جدًّا نشاهدها حولنا، لقد بدأت الإنسانية تذوب أمام الدين كذوبان الثلج تحتَ أشعّة الشمس المتوهّجة، وبدأت قلعة الكفر تفقد مواقعها في الأماكن المرتفعة منحدِرةً إلى أسفل، أما برج إيماننا فهو يرتفع بسرعةٍ إلى الأعلى.

ولا بدّ أنّ أمورًا كثيرةً ستتغير في السنوات القادمة وسيأخذ العالم الإسلامي موقعَه اللائق به بين الأمم إن شاء الله تعالى.

علينا أن نقوم بما يجب علينا القيام به، أما حفظ أجيال الشباب فهو شأنٌ من شؤونه تعالى، ونحن نأمل من رحمته الواسعة أن يصون هذا

الجيل الناشـئ الذي صاحبَه منذ نشأته كثيرٌ من الآلام والمعاناة، وألّا يدعَ براعم الأمل فريسـةً للوحوش، وفي الواقـع لو لم تمتدّ يد عنايته ورحمته لَما كان هذا بمقدورنا. أجل، لقد تفضّل علينا ربنا سبحانه بإحسانه ولطفه، وسـاقنا إلى مجالاتٍ لا نعرفها أبدًا، وبعد مدةٍ أدركنا أنه كان من الواجب علينـا الدخـول إلى تلك السـاحات، ونحن ندعو الله تعالـى أن يديم علينا عنايتـه ومعونتـه حتى إنجاز هـذا العمل كاملًا غير منقـوص، إنه على كل شيء قدير.

الغُنمُ بالغُرمِ

سؤال: كيف نستطيع صيانة أنفسنا من أخطار الحياة ونزوات الشباب؟

الجواب: إنّ هذه المسألة لتُعتَبَرُ من أهم مشاكل إنساننا الحالي، فنحن في غمار الحياة يرزح معظمنا تحت ضغط عواطف الشباب التي تؤثّر على مشاعرنا السامية، وقد أصبح من الصعوبة بمكانٍ الآن تطبيق الحقائق الإسلاميّة السامية كما أرادَ لها النبيّ ﷺ، ولكن مجاهدة النفس والشيطان فيها من الخير ما فيها؛ فكلما زادت الصعوبات وادلهمّت الخطوب كلّما زادَ ثواب العاملين وأجرهم.

أليست قسوةُ الظروف التي أحاطت بنضال أبي عمارة حمزة بن عبد المطّلب ﷺ هي التي جعلته أسد الله وسمَتْ به إلى مرتبة سيّد الشهداء؟ ألم يشاهد قلَّةَ عدد المسلمين وكثرةَ عدد الكفار؟ لكنّه ومع ذلك اندفع إلى القتال معتمدًا على قوّة إيمانه ولم يعبأ بالموت، لقد كان ذلك وسيلةً مهمةً للسمو به إلى المقام العلوي وأفق سيد الشهداء.

إن الآثام التي تزعجنا الآن كانت موجودةً أيضًا في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عنهم؛ فالنساء كنّ يَطُفْنَ حول الكعبة عاريات، وكان الخمر والرشوة والميسر والربا ينخر في روح المجتمع ويُنهِكُه، ولكن الصحابة أدبروا عن هذه الفواحشِ متوجّهين إلى الإسلام، كانوا هم أيضًا بشرًا، يحملون مشاعر وغرائز البشر مثلنا؛ لكنَّ تَضْحيتهم بكل أهواء النفس هي التي سمت بهم وجعلتهم أعظم العظماء، لقد هجروا الفواحش جميعها في ذلك العهد واختاروا سلوك حياةٍ طاهرةٍ نيّرة وساروا خلف الرسول الأكرم ﷺ على الرغم من جميع المخاطر التي كانت تحفّ بهم؛

فاكتسبوا فضائل كبيرة واستحقّوا بذلك أن يكونوا نجوم هداية لمن جاء بعدهم.

وهذه المهالك والمخاطر موجودة اليوم أيضًا؛ لذا فقد دُعي مفكّر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النُّورسي الذي كان يدعو الناس في هذا العصر إلى حقائق الإيمان والقرآن في مجلسٍ روحاني بـ"رجل عصر النكبة والهلاك"، ولو نادى الرسول ﷺ جيلَ هذا القرن لقال: "تعالوا! تعالوا يا جيل المهالك والمخاطر"؛ لأننا إن تفحصنا السوق والشارع والحياةَ الاجتماعية والتجارية والفرد والعائلة والمجتمع والمدرسةَ المكلّفةَ بمساندة كلّ هذه الوحدات الاجتماعية، وتناولنا جميع الهيئات والمؤسسات واحدةً واحدةً، وقمنا بإصدار تقييماتٍ حولها؛ لَكان هناك وصفٌ واحد فقط ينطبق على الجميع وهو وصف "بائس، في حالة يُرثى لها".

أينما تذهب أو تتجول لا تستطيع الحيلولة دون التلوّث ببعض الآثام، ولا تستطيع أن تعبر في الحياة الاجتماعية من جهة إلى أخرى دون أن تتلم روحك عدة مرات، ودون أن تهتزّ حياتك القَلْبية، إن العيش اليوم وفقًا للمنهج الإسلامي أصبحَ أصعب من المشي على الجمر وعبور وديان من القيح والصديد، إذًا فنحن جيلُ عهدِ النكبة والهلاك، وأهواء النفس المركّبة في طبيعتنا والإغراءات النفسيّة والجسمانية تترصدُنا كالعقرب لكي تلدغنا، وهذه الأهواء والشهوات تتغذّى وتتقوّى على الدوام من المحيط الفاسد الذي ولدت فيه وترعرعت، ومن المحتمل في كل حين أن يقوم هذا العقرب بلدغِنا وتسميمنا، ومع تقبّلنا لكلّ هذا فإننا نقيّم حالنا وفقًا لقاعدة "الغُنْمِ بالغُرْمِ"، ونجد السلوى في المغانم عن مغارمها،

بـل نفرح مـن ناحيةٍ مـا؛ لأنَّ الأجرَ والجـزاء يكون على قـدرِ المصاعب والمصائب والبلاء، فإن كان الصحابة رضوان الله عليهم وُفِّقوا إلى تجاوز تلك الشـروط الصعبة، فاسـتحقّوا أعلى المراتـب؛ فإننا نأمل من صاحب الرحمـة الإلهية سـبحانه وتعالى أن يوفّق المؤمنيـن الحاليين ويعينهم كي يَصِلوا إلى السعادة نفسها.

لا شـكّ أن هناك أخطاءً وذنوبًا ارتكبناها -دون قصدٍ- في هذا الزمن الذي تزاحمت فيه الآثام وسَـهُل الدخول فيها والتلطخ بها، ولكن واجبنا هـو ملازمة بـاب وعتبة الرحمـة والحضرة الإلهية، والاسـتمرار والثبات، واسـمحوا لي هنا بسـرد إحـدى ذكرياتي كوسـيلة للتعبير عن مشـاعري: عندمـا كنـت طفـلًا كان لنا كلـبٌ يرافقُ أغنامنـا ويلازمُ بـاب بيتنا بهدف الحراسـة، كنـتُ أعجـبُ مـن إخلاصـه وألعـب معـه وأحتضنـه وأُطعمه باسـتمرار، لا أناقش هنا مدى الصواب في هذا من الناحية الصحّيّة، وإنما أُريدُ نقلَ بعض مشاعري، وذكرياتُ الطفولة هذه كثيرًا ما ترِدُ إلى خاطري فأرفـع يديّ بالدعاء إلى ربي وأتضـرّع إليه قائلًا: "اللهم كما كنتُ صديقًا لذلك الكلب لإخلاصه ليس إلّا، فاغفر لي أنا القطمير الواقف على بابك، الخاضـع لك دون سواك".

ومن الممكن أن نقولَ الشـيءَ نفسـه بالنسبة للشخصيّة المعنويّة، فثمة خيـر يقـوم به بإخلاص كل مؤمن حمل على عاتقه مهمّةَ خدمة دينه وأمته رغـم كل ما وقـع فيه مـن ذنوبٍ وعثرات، وتقديرًا لهذا لن يطردهم الربّ الكريم سبحانه وتعالى من رحمته.

نحن نقرّ ونعترف بتقصيرنا ونواقصنا، ولكننا في الوقت نفسه نأملُ أن يتجاوز الحقُّ تعالى عن تقصيراتنا بمقتضى رحمته الواسعة التي لا حدودَ

لها، واعْترافُنا هذا يشير إلى نَدَمِنَا وتوبتِنا، والله تعالى يقبل الرغبةَ الصادقة في التوبة ولا يردّها.

كان هـذا تلخيصًـا للواقـع، ولنقف الآن قليلًا مـع الأمور التي يجب الانتباهُ إليها:

أولًا: يجب السـير بكلِّ حذَرٍ على مثل هـذه الأرضية الزَّلَقَةِ والخطرة مـن جميـع الأوجه، فكما يتم المشـي بكل حذر فـي الأراضي المزروعة بالألغام أو في مدينة للأعداء، كذلك يجب إبداء الحذر نفسه عند التجول في الأسواق والشوارع اليوم.

ثانيًا: قبل الخروج إلى الشارع يجب الاستعانة بكل ما يصفّي مشاعرنا وأحاسيسنا ويؤثّر على عالمنا العاطفي، قد يكون هذا بالقراءة أو المشاهدة أو الاسـتماع إلى شيء أو محاسبة عميقة للنفس، أي يجب ألّا نخرج إلى الشارع قبل الدخول في مثل هذا الشدّ المعنوي.

ثالثًـا: علينـا أن نتجنّب الوحدة، ونتخذ صديقًا يرصدُ تصرفاتنا ويعيننا على عالمنا الروحي، فنُلازمه -إن أمكن- عند خروجنا إلى الشارع.

رابعًـا: علينـا أن نصحب معنـا كتابًا دينيًّا أو مصحفًا أو ما شـابه ذلك فـي رواحنـا ومجيئنا وفي الأماكن التي نبقى فيهـا؛ حتى يعيننا على حياتنا الروحيـة ويقـوم بوظيفة الصيانة والحفظ والتذكير لنـا، فهذه المواد تكون سـترًا يحجبنـا عن الآثـام وتكون وسـيلةً للمراقبـة وللتذكيـر الدائم، وإنَّ المفعمَ بمشاعر المراقبة الداخلية نادرًا ما يقـع في الإثم.

خامسًـا: عنـد اقتـراف أي ذنب أو عنـد الوقوع في أي خطـإٍ علينا أن نبـادرَ بالندم وإعلان التوبة حـالًا؛ لأن أقلّ القلوب حملًا للذنب هو قلب المؤمن، فالأخطاء فيه مؤقَّتة وزائلة، وهي كالغيوم التي تحجبنا عن الشمس

فترة قصيرة، لكنّها سرعان ما تمضي وتزول، وكلّما تأخّرت التوبة كلّما اسودّت الأرواح وانفتحت السبل للذنوب والآثام الأخرى مما يُسهل اقترافَها والوقوعَ في شِباكِها، ومن ثم على المرء أن يحول دون حدوث ذلك، وأن يفيق لنفسه، فيسرع بالرجوع إلى رحمة الله تعالى مهما كانت طبيعة وماهية الذنوب والأخطاء التي اقترفها.

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ، لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شَيئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا دَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/١١٤)، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: "**بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً**"(١٥).

أما صلاة التهجد فهي النور في عالم البرزخ؛ وإن إسراعَ العبد إلى مناجاة ربّ العباد في هذا الوقت الذي يحلو فيه النومُ لَمِن أكثر العوامل محوًا للسيّئات؛ لأن تضرُّعَ القلب المفعَمِ بالخوف والرجاء له ﷻ في منتصف الليل البهيم سيلقى -دون أدنى شكٍّ- قبولًا من الله تعالى، يكفي أن يتمّ هذا التضرّع والدعاء بإخلاصٍ ونيّة صافية، فإذا ما وقفنا بين يدي الله ﷻ في الصلاة وأعلنَّا عبوديَّتَنا له بكلِّ خشوعٍ وخنوعٍ استطعنا أن نستجلب رحمته ﷻ حتى يَغفر لنا ما نقترفه من زلّاتٍ وأخطاء بين الصلاة والصلاة، علاوةً على أننا يجبُ علينا السعيُ إلى الرضا الإلهيّ عن طريق النوافل والتهجّد.

(١٥) صحيح مسلم، التوبة، ٤٢.

أجل، ففي نفس الوقت الذي تُحاصِرنا فيه الآثام من كلّ حدبٍ وصوب فإننا نُحاطُ بإيجابيّاتٍ تستطيعُ إزالةَ مخلّفات تلك السلبيّات، وحالُنا الآن التي تُشبه حال الصحابة تمنحُنا فرصة الاقتراب من منزلتهم ومكانتهم، صحيح أنهم كانوا يحسّون بأنفاس الوحي، إلّا أننا إن أمكننا التخلّص من قيود الزمان واستطعنا أخذَ أماكننا في الصف المحمدي خلفهم فسنضمن بذلك خَلاصنا، ندعو الله تعالى ألّا يخيب رجاءنا... آمين.

الحفاظُ على الشدّ المعنويّ

سؤال: ما السبيل إلى تماسك شدّنا المعنوي المتراخي، والتوجه به مرة أخرى إلى غايتنا المثالية؟

الجواب: الشـدّ المعنوي عنصر مهمٌّ جدًّا لأيّ مؤمن، ويعني الإقدام على الخير والإحجام عن الشر، وعلى ذلك فهو -من جهةٍ- يعني: تفعيل السـبل الخاصـة بالخدمـة، وتشـكيلَ آلية معينـة عاملة على الـدوام، ومن جهـة أخرى يُقصد بـه: مقاومة المعاصي وجبهـات التخريب بعزمٍ وثبات وإصرار.

أو قُـلْ: هو الانقياد إلى الله ورسـوله والتمسـك بما جاء به الرسـول، والفرار من الكفر والكفران والكذب كالفرار من الأسد.

ويوضـح هذه المسـألةَ هذا الحديثُ الشـريف الذي يرويه سيدنا أنس بن مالك ﷺ: "**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**"(١٦).

فأنت ستصبح عاشقًا والله ورسوله هما المعشوقان، ولن تحبَّ الناسَ إلّا للهِ، وهـذه هـي الوجهـة الإيجابية للمسـألة، أمـا وجهتُها السـلبية فهي ضرورةُ اتخاذ موقفٍ معيَّنٍ ضدَّ ما يوصل إلى الكفر والكفران.

(١٦) صحيح البخاري، الإيمان، ٨.

أجـل، علـى المؤمن الحقيقـي أن يكون -بقدر حبّه للإيمان- ذا شـدّ معنـوي وعـزم أكيـد على عدم سـلوك طريـق الضلالة حتـى يحافظ على ذاتيّته، غير أن المحافظة على الشـد المعنوي أصعب من كسـبه ونيله، من أجل ذلك كان الثبات والعزم شرطين أساسين في هذا الموضوع.

قد يتراخى الشـدّ المعنـوي أحيانًا بالأنس والألفة بـه والاعتياد عليه، وقد يدخل في النفس أحيانًا بعض الصفات الذميمة مثل الأنانية والحرص والطمـع وحـب المنصب والسـكون إلى الراحة والدعـة، التي تؤدّي إلى انطفاء جذوة الحبّ والشوق في الخدمة وفساد الروح وشلل الإرادة.

فلو أن هناك من يسعى سعيًا حثيثًا في سبيل دعوة الحق، ولا يأبَهُ بليل أو نهـار، ثـم فرّ مـن الخِدمة بعد ذلـك مختلقًا المعاذير عنـد كل دعوة له فهذا يعني أن ثمة ارتخاءً قد طرأ على شَدِّهِ المعنوي وانحراف نحو الفساد والانحطاط، بيد أنه لا يمكن تحقق مثل هذه المهمّة العظيمة التي تتطلّب شدًّا معنويًا قويًا على أيدي أناسٍ فقدوا شدّهم المعنوي.

إن المؤمنين الذين اتخذوا من الإيمان أجنحةً يُحلّقون بها نحو الآفاق هـم في غاية الحَذَرِ إزاء العمل والشـدّ المعنـوي وغيره من الأمور، وكثيرٌ منهم حريٌّ بنا أن نُقَبّل جباهَهم لما يقدّمونه من شـدٍّ معنويٍّ يُشـكّل مثالًا لأصدقائهـم، ولا يمكننـي أن أنسـى أحدهم عندما قلت لـه ذات يوم: "لا تبـرحْ بيتـك ثـلاثَ ليالٍ، وأنجز المهمـة التي كلفتُك بها، فـردّ علي قائلًا: أسـتاذي، أنـا لا أسـتطيع أن أبيتَ فـي منزلي منذ آخر عمـلٍ عزمتُ على القيام به من أجل الخدمة".

وهكذا لا بد من المحافظة على بقاء الشدّ المعنويّ مشدودًا لا يتراخى، فبالشدّ المعنويّ يمكننا الوصول إلى رسول الله ﷺ وأصحابه الأخيار.

إن الأطبـاء على سـبيل المثال يوصوننا ببعـض الأمور لمقاومة بعض الأمراض، ويطلبون منا اتباع هذه التوصياتِ دون اعتراضٍ أو نقاشٍ، وعلى ذلـك نُحْقَـنُ بالحُقَـنِ ونتناولُ الأقراصَ التـي كتبوها لنـا وإن كنّا كارهين لها، وهكذا فَبِقَدْرِ ما نُظْهِرُه من حساسـيّةٍ حيال الالتزام بالوصفة العلاجية للأمـراض الماديّة بِقَـدْرِ ما يجب أن تكون عليه حساسـيتنا في اتباع كلام الحكماء في مسألة الشدِّ المعنويّ.

والآن سـأحاول هنـا أن أشـير إلـى بعـض الوصايـا فيما يتعلّـق بهذا الموضوع:

أولًا: عـدم الركون إلى العزلـة: "**فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَـا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**"(١٧).

فمن ينفصل عن مجتمعه ويبتعد عن أصدقائه وأحبابه فهو مُعرَّض لا محالةَ إلى افتراس النفس والشيطان والتهامِهما.

يبـدأ أمـرُ الوحدة لدى الشـخص أوّلًا بالتحسّـر على عدم اسـتطاعته القيـام بعملـه، وهـذا أمـر جيد في الواقـع، لكنه غيـرُ كافٍ، ولا يُكتب له الديمومة، ثمّ يتطوّر الأمرُ لِيَصِلَ إلى الاسـتهانة بما يفعله الأصدقاء، ومـع تطوّر الموقف شـيئًا فشيئًا يقوم ذلك الشخص بإنكار أفكار الدعوة ومُثُلِها العليا كلّيّةً، وادّعاءِ فضلةِ وعدم ضروريّة هذه الأنشطة، فمثل هذا الشخص مسـكينٌ ومُعرَّضٌ للمحو، فإن لم نَحُلْ بينه وبين الوحدة التي أوصلته إلى تلـك الحالة مـن البُعْدِ عن المجتمـع؛ فمن الصعـب أن يتخلَّص من تلك العاقبة السـيّئة، وعلى ذلك فلا بد وأن توصدَ كلّ الأبواب التي يُحتمل أن تؤدّي إلى مثل هذه النتيجة.

(١٧) سنن أبي داود، الصلاة، ٤٧.

ثانيًا: البحثُ بعزمٍ وإصرارٍ دائبين عن التجدّد العلمي والمعرفيّ، فالله ﷻ عرضَ لنا الكونَ كتابًا منظورًا، ثم أرسل إلينا الأنبياء وأنزل عليهم الكتب السماويّةَ هدايةً وتعليمًا لنا لما في الكون، ثم ظهر من بعدهم آلافٌ من الأولياء والأصفياء والعلماء الذين تحلّقوا حول الهالة نفسِها، وشرعوا في شرح الكتابين: الشريعةِ، والكونِ؛ كلٌّ حسب استعداده وقابليته ومشربه، كانوا يعملون كالنحل؛ يحطون وينهضون من زهرة إلى أخرى ليجمعوا الرحيق الشافي ويضعونه في أقراص المعرفة المتنوّعة، وحتى نُخضِعَ أعمالنا إلى التوافقِ مع الحِكمة الإلهية فعلينا أن نربط كلّ ما يجري في الكون بغاية وهدف مُعَيّن، وأن نقيّمه وندرُسَه بما يتوافق مع مقتضى الحكمة الإلهية، فإن لم يستطع الإنسان أن يتبع السنة الفطرية، أو يشارك معرفيًّا في التجدُّدِ الحادِثِ في الكون كلَّ لحظة، أو ينسجَ النسيجَ نفسَه فلسوف يخسر حيويته المعرفية بالتتابُعِ شيئًا فشيئًا، وسرعان ما يتعرّض لانحطاط وفسادٍ غير متوقّع، وبعد مدّةٍ لا يجد نفسَه صالحًا لأي عمل.

ثالثًا: التفكُّر الدائمُ في الموت، والذي نُطلق عليه "رابطة الموت"، وهذا أيضًا يعد من أهمّ العوامل في المحافظة على شدّنا المعنوي، وإنّ "التفكر في الموت قبل الموت" و"الوصول إلى الحياة الحقيقيّة" تسميتان لمسمّى واحد، أو هما وجهان لعملةٍ واحدة، فلا سبيل إلا الموت لاستئصال رغباتنا وأهوائنا التي لا تنفد أو تهدأ، إضافةً إلى ذلك ينبغي أن يكون هناك اعتقاد بأن كلَّ أحبابِنا ينتظروننا من وراء القبر، وأن السعادة والفرحة الحقيقيّة في نهاية مَمَرِّ القَبْرِ.

أوَليست آخر نقطةٍ وأسمى فكرة تزدان بها غاية رجل الدعوة هي ملاقاة الأحباب ومرافقتهم والنظر إلى الجنة ورؤية جمال الله ﷻ؟!

إذًا على كلّ فردٍ منا أن يتحوّلَ -في الطريق الذي يؤدّي بنا إلى هذه النتيجة- إلى فرس عربي أصيلٍ يُسابق الريح، وأن نواصل السير في طريقنا دون توقّف أو راحةٍ حتى تخور قوانا.

أجل، مثل فرس عربي... لأنه لا يعرف التعبَ، ولا يختلق الأعذارَ، يجري ويجري حتى تخور قواه فيهلك ويموت، ومن ثم فإن ذريعَتَه الوحيدة هي الموت، ولذا أحبُّ هذا الحصان حبًّا جمًّا، وأودّ أن يتشبه كل رجال الدعوة به.

رابعًا: علينا أن نختار لأنفسنا صديقًا يوقظنا ويرشدنا إلى الخير والصلاح إذا ما لاحظ علينا أيَّ تراخٍ أو دَعَةٍ، وهذا من العوامل التي تعمل على تيقُّظِ الشدِّ المعنويّ لدى الفرد.

وقد تستصعب النفس هذا الأمر لأوّل وهلةٍ، ولكن لا ريب أنه مهمّ جدًّا لحياتنا الدينية، وتتمخّضُ عنه نتائج إيجابية.

فالصديق الصالح مثل ينبوعِ الخضر، إن شعرتم بشيء من الدعة في نفوسكم أو برجفةٍ في قلوبكم أو ببلادة في أحاسيسكم فاهرعوا إليه وقولوا: "أَوْصِنا"، شاطروه همومَكم فلا ريب أنه سيأخذ بأيديكم ويخلّصكم من الدُّوامات والمتاهات كافة، وسيوصلكم إلى الإقليم المشرق من جديد.

قد تشعرون في ظاهر كلامه بِلُذُوعَةٍ وامتعاضٍ داخليّ، ولكن المهم هو النتيجة، فبمجرّد أن تتحمّلوا أوّل ضربة مشرطٍ منه تذهب عنكم كل آلام الجروح التي تؤلمكم بالحقيقة أكثر من مائة ضعفٍ من ضربات المشرط العادي، ويحلّ الذوق الروحاني محلّ الآلام.

أنـا شـخصيًّا لجـأتُ -في فترة مـا- إلى أحد أصدقائي الذين جلسـوا أمامـي وأخـذوا الدرسَ عني فاستشـرته في هذه المسـالة فأوصاني بدورِه بأشـياء، فلما التزمتُ بها لم يمسّـني أيّ ضررٍ، بل على العكس اسـتفدْتُ وانتفعْتُ.

ولا بـأسَ فـي أن تلجؤوا أنتم أيضًا إلى الحيلة نفسـها، بشـرطِ أن يتمّ تناولُ المسألةِ في إطار التفاني والإخلاص.

خامسًـا: قديمًـا عبّـر أجدادنـا بعبـارة موجـزة للغاية عـن أن الحديد الذي يُعالَـج لا يشـوبه الصدأ فقالوا: "الحديد المعالَـجُ لا يشـوبه الصدأ"، وهـذا المَثَـلُ يجري أيضًا على رَجُلِ الخدمـة، ومن ثم فإنني أرى في هذا الموضوع سبيلًا آخر للحفاظ على الشدّ المعنوي.

فالإنسـان مرتبـطٌ بمـا يقـوم به مـن عمل مـن الناحية النفسـية، أما ما يقـوم بـه الآخـرون من عمل فلا يهمّه مباشـرة وإن كان مـا يقومون به هو على الحقيقة أهم من عمله، لذا فيجب اسـتغلال نقطة الضعف هذه لدى الإنسان من خلال تبنّيه من الأعمال ما له علاقة بخدمة الدين والأمة، وإنّ انتشار هذا الأمر لهو ضرورة لا يجوز تركها.

فـإذا مـا حافظْنا على تطبيـق المواد التـي ذكرناها آنفًا بـات عندنا إن شـاء الله شـدٌّ معنوي نشِطٌ مثل قوسِ ألوان الطيف، ووصلنا إلى أفق رجل الدعوة الحركيّ.

التحرّر والإلحاد

سؤال: ما السبب في انتشار الإلحاد كل هذا الانتشار؟

الجـواب: إن انتشـار الإلحاد متعلّقٌ بانهدامِ الحياة القلبيّة وسـقوطِها إلى جانبِ تعلُّقِه بأسـباب متعدّدة، والإلحاد من الناحية الفكرية: إنكار الله وعدم قبوله، وهو على صعيدِ التصوّر: الحريّة المطلقةُ دون حدود، وعلى صعيد العمل والسلوك: تبنّي الإباحيّة والدفاع عنها.

إنّ انتشارَ الإلحادِ الفكريّ ما هو إلا نتيجة إهمالِ الأجيال الشابّة وسوءِ التطبيق في دُور العِلْمِ ومعاهده، علاوةً على أنّ تلقّي الإلحادِ المساعداتِ الكثيرةَ من هنا وهناك كان كفيلًا باكتسابه السرعةَ والقوّة.

إن أكثرَ البيئاتِ قابليّةً لنموّ الإلحاد هي تلك البيئة التي يسودُها الجهل ويغيـب عنهـا القلب، فَكُتَـلُ الجماهيرِ التي لا تتلقّى تربيـةً روحيّةً وتغذيةً قلبيّـةً سـتقـعُ -إن عاجـلًا أم آجلًا- فـي براثن الإلحاد، وإذا لـم تتداركْها العناية الإلهية فإنها لن تسـتطيـع إنقاذَ نفسـها. نعم، إذا لم تبذل الأمة عنايةً خاصّـةً فـي تعليم أفرادِها ضروراتِ الإيمان ولم تُظهِرِ الحساسـيّةَ اللازمة في هذا الأمر، وتركت أفرادها في ظلام الجهل؛ فإنّها بذلك تدفعهم لتقبُّلِ كلِّ إيحاءٍ معروضٍ عليهم.

والإلحاد في بادئ الأمر يتجلى باللَّامُبالاة تجاه أُسُسِ الإيمان وعدمِ الاهتمام بها، ومثل هذا السلوك الذي يبدو وكأنه يتّسم بحرية التفكير ما إن يجد أي أمارة صغيرة تعِين على فكرة الإنكار والإلحاد حتى ينمو الإلحاد ويزداد، مع أن الإلحاد لا يستند إلى أيّ سببٍ علميّ ذي قيمة، ولكن قد يتولّد أحيانًا من إهمالٍ بسيطٍ أو غفلةٍ أو تقييمٍ خاطئ.

وفي أيامنا الراهنة كثيرٌ ممن هلك تحت ضغط هذه الأسباب، غير أننا سنقف هنا فقط على أهمّها وأكثرها تخريبًا وتدميرًا، وأنوّه بدايةً بأننا لسنا في مجال التعرّض هنا إلى الأدلة التي تهدم الإلحاد وتزيله، ومن الطبيعي ألّا يتوقّعَ القارئُ منا في هذا الحيّز الصغيرِ التعرُّضَ إلى موضوع يحتاج مجلداتٍ، وإنّه ليَنُوءُ بزاوية الأسئلة والأجوبة هذه التي ننتجها، فهي عاجزةٌ عن استيعابه ولا تستطيعُ وفاءَه حقَّه، فإن مواضيع معقدة وعميقة بهذا المستوى لا يمكن تناولها وإيضاحها حقّ الإيضاح في مثل هذه الزوايا، ثم إن هناك كتبًا ثمينةً جدًّا وممتازةً للغاية في هذا الموضوع، ولن يتعدّى كلامنا سوى أن يكون تكرارًا لما ورد فيها.

لِنرجع إلى ما نحنُ بصدده؛ إن كل شيء رسالةٌ إلهية وكل حادث انبثق من يد القدرة، رغم هذا كله فإن الأشياء والحوادث، كذلك الطبيعة وقوانينها قد تُستخدم على أيدي طائفةٍ من الناس وسيلةً لاستغفال الأجيال وساحةً لبذرِ بذورِ الإلحاد، مع أنه سبقَ وأن كُتِبَ آلاف المرات في الشرق والغرب وذُكِرَ أن قوانينَ الطبيعة هذه ليست إلّا آليةً تعمل بِدِقّةٍ واتّساقٍ واطّرادٍ، ومعملًا ذا إنتاجٍ وفيرٍ، ولكن من أين أتى هذا الاطّراد وهذه القدرة على الإنتاج؟ ومن أين نتج هذا النظام والاتساق؟ هل يُعقَلُ أن تكون هذه الطبيعة الجميلة -التي تسحر النفوس والأرواح مثل شِعر مُنَظَّمٍ ونغمٍ موسيقيٍّ- نتيجةَ مصادفاتٍ عمياء؟!

إن كانت الطبيعة تملك -كما يُتوهّم- قوّةً قادرةً على الإنشاء والخلق؛ فهل نستطيع إيضاح كيف استطاعت الحصول على مثل هذه القدرة؟ أنستطيع أن نقول: إنها خَلقت نفسَها بنفسِها؟ أيمكن تصديق مثل هذه المغالطة المرعبة؟! فالوجه الحقيقي لهذه المغالطة هو: "الشجرة خَلقت نفسَها، والجبل خلق نفسه، والسماء خلقت نفسَها..."، لا أعتقد أن هناك شخصًا واحدًا عاقلًا يستطيع أن يؤيّد مثل هذه المغالطة والبعد عن المنطق.

أما إن كان القصدُ من ذكرِ "الطبيعة" هو الإشارة إلى القوانين الفطرية فهذا أيضًا خداع لكنّه من نوعٍ آخر؛ ذلك لأن القانون -بتعبير القدماء- عَرَضٌ من الأعراض، والعَرَضُ لا يقوم إلا بالجوهر، أي يتعذر علينا تصوُّرُ قانونٍ متعلقٍ بمركَّب أو جهاز ما دون تصوُّر الهيئة العامة لهما والأجزاء التي تشكلهما؛ وبتعبير آخر: فإن القوانين قائمة بالموجودات، فقانون النمو يظهر في البذرة، وقانون الجاذبية يظهر في الكتل وفي الحيز (المكان)... إلخ، والأمثلةُ على ذلك كثيرة، إذًا فإنّ التفكيرَ في القوانين قبلَ التفكير في الموجودات والزعمَ بأن هذه القوانين هي منشأُ الوجودِ ليس إلا خداعًا وبهْلَوانيّةً.

وليس النظر إلى الأسباب واعتبارها أساسًا وقاعدةً للوجود أقلَّ خداعًا وتضليلًا، فالحقيقة أن محاولة القيام بتفسير وإيضاح هذا العالم المملوء بآلاف الحِكم والنظُم الدقيقة بالأسباب أو بالصدف محاولةٌ فارغةٌ تفتقرُ إلى أدنى قيمةٍ علمية، بل هي تناقضٌ وهذَيانٌ مضحكٌ، لأنها كالإعلان عن بُطْلانِ العلم.

بينما أعلنت تجارب "مولر (*Müller*)" قصورَ الأسبابِ والصُّدَفِ وعجزَها، تكلّمت العلومُ وأعطت أحكامها. فقد أعلن مثلًا معهدُ الكيمياء في الاتحاد السوفيتي تحت رئاسة "أوبرين (*Oparin*)" بعد بحث دام اثنتين وعشرين سنة أن قوانين الكيمياء والتفاعلات الكيمياوية بعيدة عن تسليط الضوء على الكون والوجود، هذا ما يقوله العلم والعلماء.

ونظرية "التطوّر والتكامل" التي دُرِست في المدارس سنواتٍ عديدةً وكأنها حقيقةٌ علميّةٌ ثابتةٌ... هذه النظريةُ أصبحت -بعد الاكتشافات العلمية الحديثة وتطوّر علم الجينات- مجرّدَ خيالٍ عِلْمِيٍّ وقصّة من قصص التاريخ ولم يعد لها أيّ قيمةٍ علميّةٍ، ولكن كم يؤلمنا أنَّ مثل هذه المسائل الواهية لا تزال من أسباب الإلحاد لأجيالنا الشابّة التي لا تبرح معلقةً في الفراغ لا تملك -مع الأسف حتى الآن- قاعدةً ثقافيّةً متينةً.

ولِحُسْنِ الحظِّ فَعَلَى الجانبِ الآخرِ بدأت تُعرَض في الأسواق كتبٌ من شأنها أن تزيلَ مثل هذه الاستفهامات التي تجرح مشاعرنا وأفكارنا، وأن تعالجَ أمراضنا القلبية والروحية، فمن الممكن الآن الحصول على مئات من الكتب الشرقيّة والغربيّة بمختلف اللغات والتي أوضحت الوجهَ الحقيقي للطبيعة وللأسباب.

ومع أننا نستغرب الكتب المنحرفة التي كتبها بعض «المستغربين» عندنا، إلّا أن كتبًا عديدة كُتبت في الغرب أمثال "لماذا نؤمن بالله" الذي اشترك في كتابته العديد من علماء الغرب تشكل جوابًا لأمثال هؤلاء المستغربين.

وبعد كلّ هذا الوضوح الموجود في الوسط العلمي حول الموضوع، فإن الإلحاد لا يُعَدّ إلّا انحرافًا نفسيًّا وعنادًا وحكمًا مسبقًا ومزاجًا طفوليًّا،

ولكـن لا يـزال شـبابنا بعدُ -رغم كل هـذا- غيرَ متخلّـصٍ تمامًا من تأثير هذه الأفكار التي أكل عليها الدهرُ وشربَ، إذ يتوهمون أنها تحمل حقائق علمية، وما ذلك إلا لأنهم لم يتلقوا التربية العلمية والروحية الكافية.

لـذا كانت التعبئة العلمية والتربوية لنشـر المعارف الصحيحة ضرورةً فـوق كل الضـرورات الأخـرى، أما عدم إيفاء مثل هذه الوظيفة المقدسـة حقّهـا مـن الاهتمام فسـيؤدي إلـى جروح غائـرة في المجتمـع لا يمكن اندمالهـا، وربمـا هذا هو مناطُ كثيـر من الآلام التي عانـى منها المجتمـع مـدة سـنوات طويلة، لأننا كنا محرومين من المرشـدين الممتلئين بعشـق التعليـم والذيـن جمعـوا بيـن العلم والروح وبيـن العقل والقلـب وبرزوا وتعمقوا فيهما حتى إنهم إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله، لذا نأمل من هؤلاء المرشدين الحقيقيين التصدي لحمل هذه المهمّة البشـرية الأساسـية وأن ينقذونا من هذه الآلام التي كابدناها طوال قرنٍ من الزمان، عند ذلك ستصل الأجيال في أفكارها ومشـاعرها وخيالها إلى الاسـتقرار، وتتخلّص من الانجراف فـي تيار الأفـكار الخاطئة، ومن التذبذب -كَرَقّاصِ السـاعة- ذات اليمين وذات الشمال، وتمتلكُ مناعة حقيقيّةً ضد الإلحاد.

والخلاصـةُ: إن الإلحاد الفكري هو نتيجة للجهل وعدم امتلاك قابلية التحليـل والتركيـب، وهو عاقبةُ الجفـافِ الروحيّ والقلبي، لأن الإنسـان حبيبُ ما يعرف وعدوّ ما يجهل، أو على الأقل يتحاشاه.

والآن لنلـق نظـرةً علـى الكتـب الموجـودة فـي الرفـوف وواجهات المكتبـات، ونتفحّـص الأفكار التي تـروّج لها هذه الكتب والشـخصيات التـي تقدّمهـا لنا؛ عند ذلك نـدرك لماذا يحاول الصبيان في الأزقّة التشـبُّهَ بـ"زورو (*Zoro*)" أو الشباب بـ"دون جوان (*Don Juan*)"، ما ذكرته ليس إلّا

مثالًا أو مثالين على ما نُحاولُ إيضاحه، وإذا ما نظرنا إلى عناصر التخريب الاجتماعية والاقتصادية الأخرى فليس في وسعنا إلّا أن نرتجف حتى النخاع من المنظر المتشكّل أمامنا.

لقد جسّدَ إنسانُنا من قبل -وما يزال- المقولةَ المذكورة آنفًا فسارَ خلفَ ما يحبّ وما قُدّمَ له على أنه جيّد، وأصبح عدوًّا أو غريبًا عما لا يعرفه، ووظيفتنا الآن هي التفكيرُ بالشيء الذي يجب علينا تقديمه له من الآن فصاعدًا، وإرشادُه إلى طريق النور، وعدمُ تركه في حالة تسيُّبٍ وفراغ.

العامل الثاني في انتشار الإنكار وانجراف الجيل[١٨] إلى الإلحاد: هو طبيعة الشباب، إن الشباب يميلون إلى الإلحاد أكثر لأن لهم رغبات لا تعرف الشبع، وميولًا إلى حرّيّة لا يستعبِدُها أيُّ قيد، فمثل هذه النفوس تتقبّل وتتحمّل من أجل درهمٍ من اللذة العاجلة أطنانًا من الألمِ مآلًا والمعاناةِ مستقبلًا، وهكذا يُهَيّؤون لأنفسهم عاقبةً وخيمةً وينخدعون باللذّة الموهومة التي يُزَيّنُها لهم الشيطان ويقعون في فخِّ الإلحاد مثلما تقع الفراشات التي تحوم حول النار في النار.

وكلّما زادَ الجهلُ وافْتَقَرَتِ الروحُ والقلب أكثر تيسَّرَتْ غلبةُ المادّة والشهوات الجسديّة على المشاعر السامية، وكما سلَّمَ "فاوست (*Faust*)"[١٩] بِسَذَاجَةٍ روحَه للشيطان فالشبابُ أيضًا يُسَلِّمُونَ قلوبَهم للشيطان. أجل، عندما تكون الأرواح مَيتَةً والقلوبُ فقيرةً والعقولُ هاذيةً؛ فلا سبيلَ أمامها

(١٨) هذا يصح بالنسبة إلى تركيا قبل ثلاثين أو أربعين سنة حيث نشأت أجيال محرومة من التعليم الديني. (المترجم)

(١٩) فاوست: بطل المسرحية المشهورة المسماة "فاوست" للشاعر الألماني الكبير "جوته"، يمثّل فاوست شابًّا وقع في شباك الشيطان الذي يمثله في المسرحية نفسها "مفستو (*Mefisto*)". (المترجم)

سـوى الإلحـاد، أمـا إذا كانت القلـوب والأرواحُ غنيّة بالتربيـةِ والتهذيب ومسـلّحةً بالعقيدةِ والشـعور بالمسـؤوليّة فإنّ هذا يُعتَبَرُ أكبرَ ضمانٍ ليقظةِ الشـباب؛ وإلّا فإن مجتمعًا تسلّط فيه الشيطان على النفوس سيبقى يتقلّبُ مـن هَذَيَـانٍ إلى آخـر، ويُغَيِّرُ على الـدوام محرابَه وقِبْلَتَهُ، وسيَسـيرُ خلفَ كلِّ فلسـفة جديـدةٍ، بل وسـيعدّها منقذةً له فَيَرْتَمِي فـي أحضانِها ويرضعُ من ألبانها، فعندما يسـتيقظ صباحًا سـيصفق للفوضويـة، وفي الظهر يقفُ احترامًـا للنظام الماركسـي-اللينيني، وفي العصـر يُحَيّي "الوجودية"، وفي العِشَـاءِ قد يُنْشِـدُ نشـيدًا "هتلريًّا"، ولكنه لن يلتفت أبدًا إلى جذور روحه، ولا إلى شجرة أمّته أو ثقافتها، ولا إلى ثمارها أو روحها أو مدنيّتها.

يصعب كثيرًا على جيل تشـوّهت نظرته كلّ هذا التشـوّه التخلّصُ من الأهواء والرغبات، ويصعب -إذا لم يكن مستحيلًا- تقويمُ ذهنِهِ وتفكيرِه. لـذا كان مـن الضـروري تقديـم مصطلحات الأفـكار التي كانت أسـاس وجودنـا وكياننـا حتـى الآن، وإيصالها -بأسـلوب منظَّمٍ ومـدروسٍ- إلى جيلِنـا لِيَصِـلَ إلى مسـتوى القدرة على التفكير السـليم الصائب، لأننا مع هذه الشهوات الفردية نكون كما قال الشاعر محمد عاكف[٢٠]:

لا تُـــصـدِّق! إن قـالـوا لــك: إن الـمجـتـمــع،

يــمــكــن أن يــعــيـش بــمـشاعره الميتة...

أروني مجتمعًا... استطاع العيش بمعنويات ميتة!

هنـاك عامـل وسـبب آخر للإلحاد، وهـو اعتبار كلّ شـيء مباحًا، أي "النظرة الإباحية" التي ترى الاستفادةَ من كلّ شيء مهما كان ذلك الشيء،

(٢٠) **محمد عاكف** (١٨٧٣-١٩٣٦م): من أكبر شعراء الأدب التركي المعاصر، وهو ناظم النشيد الوطني التركي. (المترجم)

أي النظرة التي تستند إلى الفائدة والتلذذ من جميع النعم، وإنّ المحاولات اليوم لتُبْذَلُ بُغيَةَ صبّ هذه النظرة في قالبٍ فلسفيٍّ وفكريٍّ منهجيّ، فعندما أقبل هذا الفكر إلينا جاءنا أوّل مرّة في شكل فلسفة "فرويدية (*Freud*)" تحت مصطلح "اللبيدو (*Libido*)" الذي جرح مفهوم الحياء لدينا، ثم طغت عندنا الفلسفة الوجودية لـ"جان بول سارتر (*Jan Poul Sartre*)" و"كامو (*Albert Camus*)" فهدمت حصون الحياء عندنا بِرُمّتِها، وجعلتها أثرًا بعد عين.

هذه الفلسفة التي تجعل الإنسان يشمئزُّ من إنسانيّته، والتي ترمي به إلى برميل القاذورات والزبالة قُدِّمت للأجيال على أنها الفلسفة التي توضح الوجهَ الحقيقي للإنسان، فهرع شبابُ أوروبا في أوّل الأمر، ثم شبابُ البلدان المقلِّدة للغرب نحو هذا التيار الفلسفي وكأنهم نُوِّموا تنويمًا مغناطيسيًّا، وقد تصوّرت الإنسانيّةُ أن هذه الفلسفة الوجوديّة سوف تردّ إلى الفردِ قيمتَه وأهمّيَّتَهُ اللّتَين تضاءَلَتا نتيجةً للفلسفة الشيوعيّة، وأن رجوع القيمة إلى الفرد سيُنمّي شجرةَ الإنسانيّة ويُعِيدُ إليها حيويَّتَها من جديد، ولكن هيهات هيهات! فالإنسانية لم تنتبه إلى أنها خُدعت مرة أخرى.

وهكذا فلأن الإيمان بالله والارتباط بمفاهيم الحلال والحرام لا يتماشى مع فلسفة التهام اللذات لهذا الجيل الذي تشوه بهذه الدرجة، نرى هذا الجيل يرمي بنفسه إلى أحضان الإلحاد، ظانًّا أنه سيعثر فيها على الجنة، إلا أنها جنة مزيّفة مثل جنة "حسَن الصبّاح" زعيم الحشاشين.

لقد عرضنا بعض الملاحظات التي تهمّ من يملك البصيرة من الإداريين والمرشدين والمعلمين في المستقبل لكي يستطيعوا إيقاف تيّار

الإلحاد، ولكننا لا نعتقد بأن التسـيب والهذيان الفكري محصوران داخل هذه الأسباب، كما أن التدابير التي يجب اتّخاذها غير محصورة أيضًا فيما ذُكر، وإني لَأَتَمَنَّى أن تسـتفيق أمتنا في هذا العهد الجديد وتثوب وترجـع إلى نفسِها ورُشْدها.

داء الإلحاد ودواؤه

سؤال: ما الذي يجب ذكره أولًا للمُنكِر والمُلحِد، وكيف؟

الجواب: قبل الإجابة على السؤال أرى من المفيد أولًا إيضاح بعض الأمور:

إن أنواع الإلحاد تختلف باختلاف القناعة الشخصية للمرء، وسلوكياته تجاه الإيمان، والتصديق وعدم التصديق بكل ما يجب الإيمان به، ويختلف الشخص اللامبالي بأُسُسِ الإيمان عن الشخص الذي يُنْكِرُ هذه الأسس ولا يؤمن بها أصلًا، وكذلك يختلف كليةً عن الشخص الذي يرفض كلَّ هذه الأركان والأسس ولا يقبلها وينكرها تمامًا، وبعبارة أكثر وضوحًا نستطيع أن نضع الترتيب الآتي:

١- هناك إنكارٌ ناشئ عن لا مبالاة محضة دون تفكير فيما يجب الإيمان به، ومعظم هذا الإنكار نراه عند مَن لم يتعوّد على التفكير المنطقي، وعند الذين استعبدتهم الأهواء والشهوات، وعند الحمقى والبلهاء، ومن الصعب أن تُعلّم هؤلاء أو تحدّثهم بشيءٍ عن الإيمان، بل يستحيل هذا أحيانًا، فسلوك هؤلاء يتَّصف بالانسياقية، يتحرّكون بشكلٍ موازٍ لحركة الجماهير وحسب الضغط الاجتماعي الموجود حولهم، يندفعون مع التيار، ويسايرون الركب البشري حيث اتَّجَهَ وسارَ...

٢- الصنف الثاني هم الذين لا يقبلون أسس الإيمان؛ وهؤلاء أيًّا كانت العوامل التي ساقتهم لهذا الإنكار مُلحدون ومُنكرون.

٣- الصنف الثالث هم الذين لا يتقبّلون ما يستدعي الإيمانُ قبولَه، وقد ازدادت نسبةُ هؤلاء حاليًّا عن نسبتهم الموجودة في سابق العصور.

ونستطيع تقسيم الصنفين الأخيرين إلى:

أ. من يُرجِع كلّ شيء إلى المادّة ولا يؤمن بأي حدثٍ غيبيٍّ.

ب. مَن يؤمن ببعض الظواهر الميتافيزيقية والروحية كَعِلمِ "ما وراء النفس" أي "الخارقيّة" التي تُسمّى: "باراسيكولوجي (*Parapsychology*)".

يُعدّ الإنكار من أبرز صفات بني الإنسان المتجبّر الطاغي، وأحد أسباب الأزمة التي يعيشها شبابُ هذا العصر، والإنكار هو المصدر الأساس للهلاك والمصائب والفوضوية، حتى إننا نستطيع القول إن البشرية عاشت أكثر أحوالها اضطرابًا وتوترًا في فترات الإنكار والبعد عن الإيمان، وكان السادة الأحرار في عصر النهضة ودهماء الثورة الفرنسية أوّل مَن مثلوا هذا الإنكار ونشروه، ثم جاء فيما بعدُ مَن اتخذ هذا الإنكار دينًا، إلى أن انتشرَ هذا الاتجاه انتشارَ النار في الهشيم حتى استولى على أرجاء العالم الحالي.

لقد اتّضَحَ جليًّا في عصرنا الحالي أن الإلحاد ليس إلا فلسفةً بهيميّةً وجنونيّة، وهو موضوعٌ يجب أن يُعْنَى ويهتم به علْم النفس أكثر من اهتمام علم الاجتماع أو علم الاقتصاد؛ ذلك لأننا عندما نقوم بمقارنةِ نماذجِ الجنون وأنواع المجانين في كتب علم النفس مع نماذج ملحدي هذا العصر لا نملك إلا التصديقَ بأن الإلحاد مرضٌ نفسي يجب أن يهتمّ به علم النفس.

ومع أن هذا الموضوع ليس من اختصاصي ولا علاقة مباشرة له مع السؤال؛ إلا أننا عندما قمنا بتصنيفٍ بسيطٍ للإلحاد أردنا أن نُبيّنَ بأنه كما أنّ للإيمان درجات ومراتب، كذلك للإلحاد دركات وأنواع، فليس من الممكن اعتبار كلِّ ما يقالُ للمنكِر علاجًا وشفاءً؛ لذا يجب تناول الأنواع المختلفة للإنكار تناولًا مختلفًا، وأن يكون الإرشاد بشكلٍ مختلف، وحسب وضع المنكر ونوعه، لذا فبقدر الاختلاف الموجود في الإنكار يجب أن يكون هناك أصولٌ مختلفة للإرشاد والتنبيه والإصلاح؛ وبذلك نحول دون صدور سلوك خاطئ أو بيان غير لائق، ولكي يعطي الإرشاد والتنبيه ثمرته يجب أولًا معرفة إلى أيّ صنفٍ من الأصناف المذكورة سابقًا ينتسب إليه المنكِر، فإذا طُرِقَ هذا الموضوع بحذاقة طبيبٍ يتّضِحُ -نوعًا ما- ما يجبُ قولُه للمنكِر وكيفيّةُ إرشاده، ومع ذلك نودّ أن نذكر ما نراه ضروريًّا هنا على النحو التالي:

١- معرفة نوع إنكار المخاطَب وعمّا إذا كان هذا الإنكار كلّيًّا أم جزئيًّا، وما إنْ كانَ هذا المخاطب يتّسم باللامبالاة أو التعصّب الأعمى؛ حتّى يتمّ إعطاء الأهمية اللازمة للمسألة التي يجب التركيز عليها، ولكي لا نصرف وقتَنا وجهدَنا هباءً.

٢- من المهم معرفة المستوى الثقافي والأفق الاجتماعي لمَن تخاطبه لكي تستطيع التحدّث معه بالمستوى الذي يستطيع فهمه، فالواصل إلى مستوًى ثقافي معين لا يستسيغ سماعَ شيءٍ ممّن هو أقل ثقافةً منه، بل يبدي ردّ فعلٍ سلبي تجاهَه، ويصعب في أيامنا الحالية التي شاعَ فيها العجبُ بالنفس والأنانيةُ -ولا سيما عند من قرأ وحصّل بعض المعلومات- أن تقنعه أو تُفهمه شيئًا ما، ولكي يتمَّ الوصول إلى نتيجةٍ

مُرضية مع أمثال هؤلاء يجب أن يقوم بمخاطبته مَن هو في مستواه وألا يوجّه الكلام إليه بشكلٍ مباشرٍ.

ومن المهم أيضًا استعمال لغة يفهمها المخاطب، فالتشوّهات التي أصابت الفكر في عصرنا وانعكاساتُها على لغتنا أدّت إلى تخريب هذه اللغة؛ حتى إننا لا نستطيع اليوم القول إن الأجيال التي تعيش داخل حدود الوطن الواحد تستعمل اللغة نفسها، والحقيقة أن محطات الراديو والتلفزيون وكذلك الصحف تستطيع تقديم خدمات إيجابية في توحيد هذه اللغة. ولكن الجماعات المختلفة التي انساقت وراء أيديولوجيات مختلفة تستعمل أساليب متباينة أو أشكالًا متمايزة من اللغة في مجلّاتها وكتبها وصحفها، فلم يستطع الجيل المسكين أن يتخلّص من عزلته، فالمصطلحات المختلفة والطرق المتمايزة المستعملة في اللغة شكّلت هُوّات سحيقةً بين الأجيال.

فمن الواجبِ معرفةُ وتحديدُ اللغةِ والأسلوبِ المناسِبَين لمخاطبة هؤلاء بهما، وإلّا كان الحوار مع هؤلاء شبيهًا بحوارٍ يجري في عجبٍ وحيرةٍ بين غريبين لا يعرفان بعضَهما، أي يجبُ الاهتمام باستعمال الكلمات والمصطلحات التي توضِّحُ الغايةَ والفكرَ أفضلَ إيضاحٍ.

٣- علينا أن نتضلّعَ من العِلمِ بشكلٍ جيّدٍ حيالَ ما نريد تبليغَه وإفهامَه، وأن نُجهّز أجوبةً مُقْنِعَةً للأسئلة المتوقّعة، وإلّا فإنّ خطأً صغيرًا أو هفوةً يسيرةً ستقلب كلّ شيء رأسًا على عقب، أما إن كنّا جاهلين فظاظًا فإن هذا سينعكس على الحقائق السامية التي نريد الدفاع عنها ويهون شأنها لدى مخاطبنا وتفقد قيمتها فتتشكل نظرةٌ محتلفة لدى المخاطبين تجعلهم ينأون بأنفسهم عن الدخول معنا في أيّ حوار جادّ.

ومن يتسبَّبُ في مثلِ ذلك يرتكبُ خطأً فادحًا مهما كان حسنَ النية، فكم من شابٍ انغمرَ في وَهْدَة الإلحاد نتيجةَ جهل المرشدين ونقصِ معلوماتهم، وقديمًا قيلَ في المثل الشعبي "الطبيب الجاهل يذهب بالروح والإمام الجاهل يذهب بالدين"، والحقيقة أن المرشد الجاهل أكثر ضررًا من الطبيب الجاهل، لأن جهل الطبيب وضرره محصور بالحياة القصيرة الأمدِ في الدنيا، بينما يمتدّ جهلُ المرشِدِ ليصلَ إلى تخريب الحياة الأبدية الخالدة.

٤- يجب الابتعاد عن أسلوب الجدل ومحاولة الإفحام والإلزام، فهذا الأسلوب إضافة إلى أنه يثير مشاعر الأنانية لدى الفرد فإنه لا يفضِي إلى أي نتيجة إيجابية، فإثارة نور الإيمان في القلب متعلِّقٌ بدرجة ارتباطِ هذا المرشد بخالقِ الإيمان وهو الله تعالى، فإن المناقشات الحامية والمناظرات التي تتمّ حسب أسلوب أهل الغفلة إذا لم تَتَغَيَّ رضا الله -وإن أدّتْ إلى التفوّق في الإفحام والإلزام- فلنْ يكون لها أي تأثير إيجابي، ولا سيما إن كان معروفًا مسبقًا حدوث مثل هذا النقاش والجدال وتم التهيؤ له بأعصابٍ متوتّرة ومنفعلة. فأمثال هؤلاء لا يحضرون كمناظرين، بل كخصوم ويجلسون كحاقدين ويتركون النقاشَ والغضبُ يملأ قلوبهم، وقد وطّنوا أنفسهم على البحث عن أجوبةٍ حول المسائل التي تُقَدَّمُ إليهم، ومعلوم ما يحدث بعد هذا... سيقومون بمراجعة أصدقائهم وبتقليب الكتب وطَرْق كلّ باب وسبيلٍ لتهيئة الأجوبة للمسائل والأمور التي حاولنا أن نُفهمها له، وهكذا يكون قد خطا خطوةً أخرى تزيد من إنكاره، أي إنّ المرشد في هذه الحالة يحصل على نتيجةٍ معاكسةٍ تمامًا لما أراده.

٥- يجب مخاطبةُ قلبِ المخاطَبِ وضميرِهِ عند التحدُّثِ إليه، كل جملةٍ يجبُ أن تبدأ وتنتهي بالصدق والحبّ، وألّا تحتوي على أيّ تعريضٍ

بشـخصية المخاطـب أو تجريحٍ بأفكاره، وإلّا فقـدَ حديثُنا معه تأثيرَه، بل ربما جعله خصمًا لنا، على المرشد أن يتصرَّفَ كطبيبٍ رؤوفٍ مُصِرٍّ على معالجة مريضِه، فيحنو عليه، ويُنصِت إليه ويحسُّ بآلامه المعنوية في قلبه كَحَـوَارِيٍّ صادقٍ، وكرجلٍ باحثٍ عن الحقِّ والحقيقة، فإنْ تناغم الصوت والحديـث في مثل هذا الجوّ انسـابت المعاني إلى قلـبِ المخاطب كماء زمزم لتفتحه وتطهره، وهنا نسـتطيع التأكّد بأننا وصلنا إلى قلبه، علينا أن ننتبـه -ونحـنُ نُحاولُ الإرشـادَ- إلـى تعابير وجه مَن نخاطبـه، فنعدّل من أنفسنا ونقوّمها على الدوام ولا نكرّر شيئًا آلمه أو أقلقه أو أزعجه.

هنا يجب ألا تغيب عن بالنا نقطةٌ مهمةٌ هي أنه عندما يفارقنا مخاطبنا هـذا، عليـه أن يفارقنـا وهـو محمّـل بانطباعـاتٍ جيدة عنـا... عن صدق تصرفاتنـا، عن إشـراق أبصارنا، عـن الإخلاص الذي عبّر عنـه كلُّ عضوٍ مـن أعضائنـا، فإن أبدى رغبتَه في اللقـاء بنا مرّةً ثانية تأكدنا أننا نجحنا في إيصال معظم ما أردنا إيصالَهُ إليه.

٦- يجـب ألا ننتقـد الأفكار الخاطئة لمخاطبنـا أو بياناته غير الصائبة بشكلٍ يجرح غرورَه، وألا نهوّن من شأنه أمام الآخرين أبدًا، فإن كان هدفُنا الوصـولَ إلى قلبه، وإهداءَ شـيءٍ إلى هذا القلـب فعلينا أن نضحّيَ -بكلّ رحابة صدر- بغرورِ أنفسـنا، بل حتى بما يجرح كرامتنا، هذا عِلمًا بأننا لا نستطيـع جعلَه يتقبّل أيَّ شيءٍ منّا إن جرحنا كرامته أو آذينا إحساسه، فكلّ تَصَرُّفٍ من هذا القبيل يبعده عنّا أكثر فأكثر.

٧- أحيانًـا يكـون تعريف مثل هـذا المنكِر بالأصدقاء الذين سـلمت عقيدتهم واسـتقامت تصرفاتهم واستنارت قلوبهم أفضل من ألف نصيحة وأكثـر تأثيـرًا، ولكن مثل هذا السـبيل قد لا يصلح لـكلّ منكِر، لذا يجب على المرشد أن يعرف نفسية تلميذه ويتصرف على ضوء هذه المعرفة.

٨- وعلى النقيض فمن الواجبِ الحيلولةُ دون تعرّفه بأشخاص غير جدّيين في سلوكهم وغير صائبين في أفكارهم، ومعلومٌ أن التعرّف بالذين ضَعُف توجُّههم إلى خالقهم سبحانه وتعالى لا يجرّ أيَّ نفعٍ مطلقًا، لا سيما أولئك الذين يدّعون التديّن ولكنهم محرومون من عشق العبادة، الذين تعكرت أفكارهم ومشاعرهم؛ فيجب الحذر تمامًا من تعريفه بأمثال هؤلاء.

٩- علينا أن نتركَ له فرصةَ الكلام بين الحين والآخر لِيُفْصِحَ عما يختلجُه من مشاعر، فهو إنسانٌ ويجب احترامُه ومنحُه فرصَةَ التعبير عن أفكاره، إنّ عمق العقيدة إن كانتْ متوجهةً إلى داخل الفرد كانت عاملَ نضجٍ وفضيلة، وإن كانت متوجهةً نحو الخارج، وخاصة نحو مَن لا يعرف شيئًا كانت عاملَ تنفيرٍ وإضاعة فرصة التفاهم معه.

صحيح أنّ الاستماع للأفكار الباطلة يَجْرَحُ الروحَ ويعكِّرُ صفوَ الفِكْرِ، ولكن التحلي بالصبر في هذا الخصوص، وتَجَرُّعَ هذا الألمِ في سبيل اكتسابِ قلبٍ جديدٍ واجبٌ علينا؛ وإلّا فإننا إن لم نُعْطِ له حقَّ وفرصة إبداء الرأي وتوضيحِ الفِكر، واحتكرنا الحديث، وملأنا المجلسَ بكلامنا فقط... فقد لا يدخل شيءٌ من هذا الكلام إلى عقلِه، فكم من مرشدٍ اشتُهر بهذا الأمر وأصبح مكروهًا بسببه، ومثل هؤلاء يشبهون من يحاول نقل الماء بغربالٍ؛ فهو على رغم بذله الجهود الجبّارة لا يستطيع الوصول إلى أيّ نتيجة إيجابية، لذا فويلٌ للمبتلين بحبّ الكلام، ولا يبدون ظرافةً في السلوك وأدبًا في الاستماع إلى الآخرين.

١٠- من المفيد أن يذكر المرشدُ في أثناء كلامه أنّ الأفكار التي يقدّمها ليست خاصّةً به وأن كثيرًا من المفكّرين العظماء السابقين والحاليّين

يشاركونه فيها، وأنّ كثيرًا من المفكرين الموجودين حاليًّا باستثناء فئةٍ قليلة جدًّا هم من أصحاب العقيدة السليمة، ويذكر أسماءهم ويضرب بهم المثل لكي لا يبقى كلامه كلامًا مجرّدًا.

١١- لا شك أن أوّل ما يجب علينا تبليغه وإفهامه وشرحه هو شرح ركني كلمة الشهادة، فإن ظهر أنها من معتقداته وأنها بعضُ موروثاته السابقة، أو أنه اعتقدها وآمن بها بعد حديثنا معه؛ عند ذلك يمكن الانتقال إلى مواضيع أخرى، ويجبُ الحذر هنا والابتعاد عن إثارة المسائل التي يتجرّأُ المنكِر على نقدها، وذلك قبل التأكُّد والاطمئنان إلى استقرار الإيمان في قلبه.

نستطيع أن نلخّص الموضوع ونقول: إنه بعد تعيين وضع المنكِر فإنّ أسُس الإيمان هي أوّل ما يجب ذكرها وطرحها له، وذلك ضمن الإطار الذي تمّ ذكره، وبعد الاطمئنان إلى استقرار الإيمان في قلبه، بعدَ ذلك يمكن التطرّق إلى مواضيع ومسائل أخرى، وإلّا فإن تقديمَ المسائل بترتيبٍ خاطِئٍ يُشبه تقديم الحلوى أوّلًا في الوليمة، أو يشبه تقديمَ اللحم إلى الحصان والعشبَ إلى الكلبِ، ومثل هذا الترتيب الخاطئ في التقديم -وإن أُعْجِبْنا به- لا يأتي بأي نتيجة بل يمنح المخاطبَ انطباعًا سلبيًّا.

ونحن نهدي هذه المقالة إلى ممثلي التربية والتعليم الأعزاء الذين يتكبّدون حاليًّا أعباء ومهمّة إنقاذ هذا الجيل المسكين الظامئِ إلى العقيدة والشعور الوطني، والذي يدنو من الموت عبرَ كلّ حركة له في دُوّامة الإلحاد.

تنوّعُ المشارب في الإسلام

سؤال: هل توجد مشارب ومدارس مختلفة في الإسلام؟ وهل حدث مثل هذا الخلاف بين الصحابة الكرام؟ وما الفكر الذي يوحّد بينها؟

الجواب: المشرب كلمة تأتي من جذر "الشُّرب"، أما المعنى الدارج لدى العامة فهو يُطلَقُ على أحَدِ فروع الحقيقة الواحدةِ جرّاءَ اختلاف الناس في فهم فروعها، لذا يمكننا اعتبار اختلاف الآراء والأفكار في الدعوة إلى الإسلام والإيمان والقرآن على أنها مشاربُ مختلفة للحقيقة الواحدة، فالهدفُ موحّدٌ ومشتركٌ للجميع ولكن الطرق الموصلة إليه مختلفة.

لذا يجب تأييد ومساعدة كلّ مَن يخدم الدين والإيمان ويعمل على إعلاء شأن الإسلام سواء أكان في المشرق أم في المغرب، وأيًّا كان مشربه، صحيحٌ أن الطرق والمسالك قد لا تكون نفسُها، ولكن المهمَّ هو توحيد الهدف والغاية.

هناك أسبابٌ عديدة تؤثّر في اختلاف هذه الطرق، فالبيئة التي ينشأ فيها الإنسان، والثقافة التي يحصّلها لها تأثيرٌ كبيرٌ فيه، كما أن لكيفية تجلي أسماء الله الحسنى تأثيرًا فيه أيضًا، لذا فظهورُ مشارب مختلفة أمرٌ طبيعي، وقد ظهرت في السابق ولا تزال تظهر.

لـم يكن مشـرب الكرّار علـيّ كرم الله وجهـه كمشـرب الصدّيقِ أبي بكر ﷺ، ولم يكن مشـرب الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ كمشـرب أبي ذر الغفـاري ﷺ، بـل كان هناك اختلافٌ كبير بينهما، مـع أنهما يتمتّعان بنفس الشـهامة والشـجاعة ومـع أنهما تلاميذ المدرسـة النبويّة نفسها، فعُمر ﷺ كان رجلَ دولة ورجلَ إدارةٍ وتنظيمٍ من الطراز الأول، بينما كان أبو ذر ﷺ ذا مشرَبٍ انفراديٍّ.

ويُفهـم مـن هـذا أنـه حتى فـي عهـد رسـول الله ﷺ الذي اجتـاز كلّ الأذواق والمشـارب، ووحّد الأديان وألّف بين المسـالك لـم تَنْمحِ تمامًا الأذواق والمشارب المختلفة، ولم يحاول أحدٌ القيام بمثل هذه المحاولة، والحقيقـة أن محاولة توحيد المشـارب تصطَدِم والفطرةَ الإنسـانية؛ ذلك لأن الذيـن خُلقـوا بطبائـع مختلفة لا يمكـن أن يفكروا بطريقـةٍ موحّدة، وطبعًا هناك احتمالٌ قويٌّ لظهور مصاعب وتعقيدات ومشاكل عديدة عند محاولة فرض التوحيد بين المشارب بالقوة.

ويمكـن أن نقـول: إن الذين يرومون توحيـد المذاهب لم يفقهوا هذه الناحية الدقيقة في الفطرة الإنسانية، ولم يُدركوا الطبيعة الإنسانية، وتناسَوا الاسـتعدادات البشـرية الفطريّة، فإن بدأت القابليات المختلفة التي خلقها الله بالعمل والظهور وفقًا لمقتضى الحكم الإلهية -موفّيةً مهامَها بحقٍّ- فلا بدّ من ظهور مذاهب ومشارِبَ مختلفة.

لـذا فقـد كان لا بدّ لهـذه القابليـات المختلفـة أن تُجَسِّـدَ الفقه على شـكل مذاهب أبي حنيفة والشـافعي ومالك وأحمـد والأوزاعي والثوري والزهـري... إلــخ من المذاهـب، وكان لا بدّ لها من الظهـور في الطرق الصوفية التي تخاطبُ قلبَ الإنسـان ومشـاعره ووجدانه، وتسـعى لخدمة

الشريعة الغرّاء وخدمة الدين الإسلامي المبين، اعتبارًا من عهد النبوة إلى يومنا هذا مستهدفةً توسعة الروح والقلب.

كان سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم رحِمهما الله من أوائل الصوفية، ثم جاء أبو يزيد البِسطامي فجنَيد البغدادي، ثم الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني ذلك العملاق الذي أحبّه أهلُ الحقّ كافة، ثم الشيخ شاه النَّقشَبند؛ كلُّ واحد من هؤلاء كان يمثّل مَشْربًا مختلفًا ومزاجًا مختلفًا، ولكنهم كانوا جميعًا كأضواء ودَرجات مختلفة من اللون نفسه، وحاولوا جميعًا إحياء الحقيقة التي جاء بها الرسول ﷺ.

إن وضعتُم طريقة محيي الدين بن عربي بجانب طريقة الإمام أحمد الفاروق السرهندي الملقَّب بـ"الإمام الرباني" لَرأيتم فَرقًا واضحًا بينهما؛ فالوَليّ الكبير الإمام الرباني يُعَدُّ ممثّلًا لمَسلك الصحابة وطريقهم وهو قطب مذهب "الفرق"[٢١]، وهو باتفاق الجميع مِن أفضل مَن فهم الحقيقة الأحمدية، وأفضلِ مَن كتب عن الظاهر والباطن للشريعة الأحمدية وأفضل شارحٍ للوحدة والتناسب الموجود بينهما، ولا نزال نحسّ في قلوبنا بنور الضياء الذي نشره قبل أربعمائة سنة.

ولقد عارضَ هذا العملاقُ محييَ الدين بن عربي في مواضع عديدة فكان دائمًا ما يوجه إلى المنهج النبوي الصحيح وطريق الصحابة الكرام

(٢١) الفَرقُ: مَا نُسب إليك والجَمعُ: مَا سُلب عَنْك، ومعناه أَنَّ مَا يَكُون كسبًا للعبد من إقامة العبودية وَمَا يليق بأحوال البشرية فَهُوَ فرقٌ، وَمَا يَكُون من قِبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فَهُوَ جمع، وهَذَا أدنى أحوالهم فِي الجمع والفرق، لأنه من شهود الأفعال فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفته فَهُوَ عَبْدٌ بوصف "التفرقة"، ومن أشهده الحق سبحانه مَا يوليه من أفعال نَفْسه سبحانه فَهُوَ عَبْدٌ يشاهد "الجمع"، فإثبات الخلق من بَاب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع، ولا بدّ للعبد من الجمع والفرق، فَإِن من لا تفرقة لَهُ لا عبودية لَهُ، ومن لا جمع لَهُ لا معرفة لَهُ، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إِلَى الفرق، وقوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إِلَى الجمع، انظر: القشيري: **الرسالة القشيرية**، ص ١٦٦. (المترجم)

قائلًا: ليست "الفتوحات المكيّة"، بل "الفتوحات المدنيّة"، وهو طريق أهل السنة والجماعة التي تمثّل بدورها الحقيقة الأحمدية، والحقيقة أن هذه المسألة مسألةُ مشرَبٍ وذوق، صحيح أن ابن عربي قال بـ"وحدة الوجود" إلّا أنه بدلًا من معنى "لا وجود لأيّ موجودٍ سوى الله" كان يعني "لا وجودَ حقيقيّ وقائم بذاته سوى الله"، أي كان يُومِئ بشكلٍ ما إلى "وحدةِ الشهود".

لقد أطنَبتُ واتخذتُ طرقًا بعيدةً ومختلطةً حتى أُبَيّنَ استحالة اتّحاد المشارب والأذواق، لِنَعُدْ إلى صُلْبِ السؤال والموضوع فنقول:

إنّ المشارب والمذاهب المتعدّدة باقيةٌ ما بقي الليل والنهار ولن يستطيع أحد الحَيلولة دون هذا، ولكن من الممكن دائمًا الاتحاد في الهدف والغاية مع اختلاف الطرق والمسالك، أي يمكن أن تختلف الألسن، ولكن الحقيقة التي يتمّ شرحها بِشَتّى اللغات حقيقة واحدة، وكما قال الشاعر:

عباراتُنا شتَّى وحُسْنك واحد

وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشيرُ

الكلمات مختلفة، والتعابير متنوّعةٌ، والأجواء متعدّدة، ولكن الجمال الذي تصِفه هذه الكلمات هو الجمال نفسه. أجل، فما دام رضا الله تعالى متوطّنًا في الأرواح، ومَحبة الشريعة الأحمدية -ﷺ على صاحبها- موجودة في القلوب، والروحُ تتحرّك وفقَ هذا الأساس، فإن التفاهم والاتفاق ممكنٌ -وإن وجدت الاختلافات والاحتكاكات- في كلِّ حينٍ وآنٍ، فإذا كان اليوم ثمّة أُمورٌ ضرورية لتأمين الوفاق والاتّحاد في ظلّ فهمٍ إسلاميٍّ صحيحٍ -وأنا أعتقد أنها موجودة- فيجب الوقوف عندها والاهتمام بها.

ويمكن أن يتمّ هذا الاتفاق والاتحاد وتجاوز المشارب على الصعيد العاطفي أو على الصعيد الفكري والمنطقي، بالنسبة للصعيد العاطفي قد يكفي لتحقيق هذا الائتلاف والاتفاق اجتماعُ الجماعات الإسلامية المختلفة وتكوينها اتحادًا ما وإن كان صوريًّا، ولكن لكون الإنسان لا يستقرّ على حال، وهو في تطوّرٍ فكريٍّ وروحيٍّ دائمٍ، فإن هذه الوحدة العاطفية الضعيفة -ضَعْفَ الخيطِ القطني- قد لا تكون كافية، لذا فإنه متى ما تبيّن عدم كفاية هذه الرابطة الضعيفة، فعلى الجماعات الاجتماع حول مائدةٍ واحدةٍ ومحاولة تأسيس وحدةٍ فكريّةٍ ومنطقية. أجل، لكي ننقذ الحق من براثن الباطل، ولكي نتخلّص من الذل أمام الظالمين، ولكي نجعل من الأمة المحمدية مثالَ الأمن والطمأنينة لكلّ الأمم، ونمكّن لها نشر حقائق القرآن المعجز البيان في العالم كله يجبُ الاتفاق على الصعيد الفكري والمنطقي.

فإن أردنا إيضاحَ المسألة بأمثلةٍ ملموسة نقول: إنه كان قبل عِقدَين أو ثلاثة من الزمن اتفاقٌ واتحادٌ عاطفي بين جماهيرنا، وكان هذا الاتفاق والاتحاد ردّ فعلٍ للتيار الإلحادي والشيوعي، أي كان في الجانب المقابل زمرةٌ تُنكِر -حاشا لله- اللهَ تعالى ورسوله ﷺ والقرآن الكريم، وتجمَّعَ في الجانب المقابل كلّ معارضي الشيوعية، ويشبه هذا اتفاقُ الدول الحرّة ضدّ الشيوعية، فتجمّع في الجانب المعارض للشيوعية المؤمنون الذين يحاولون نشرَ أسس الإيمان، الذين يتبنّون فلسفة الإحياء والانبعاث من جديد، وكذلك القوميون الذين اتخذوا الفكرة القومية أساسًا لهم، أما في الساحة السياسية فقد تجمّع ألوان وأصناف عديدة من معارضي الشيوعية واتحدوا واتفقوا ضدها، لذا كنّا نرى في الجانب المعارض للشيوعية مَن يقرأ المجلات الإسلامية ويتابع المجلات القومية، كان بعضهم يتحدث

بحماسٍ وبلسانِ العاطفة بينما كان البعض الآخر يتحدث بلغة العقل والمنطق، في مثل هذا الجو العاطفي كان الكثيرون يقولون: "مهما حدث يجب أن نُحافظ على وحْدتنا ضدّ الملحدين والمنكرين".

فقد كان الاتفاق آنذاك مؤسّسًا على العاطفة تمامًا، ولقد جاء الوقتُ الذي لم يعُدْ فيه هذا المفهوم للأخوّة كافيًا، فلقد تقدّمَ المسلمون على الصعيد الفكري والعاطفي، لقد فكّروا وبحثوا وقرؤوا فتقدموا، وأدركوا أيَّ الأفكار المضادة للإسلام، أو ظنّ معظمهم أنهم أدركوا؛ فقد كان يجمعهم الفكر والعمل والدفاع المشترك، فظلوا لفترةٍ طويلة معًا تحت السقف نفسه يُحافِظون على هذه القواسم المشتركة، وكما اجتمع الملحدون والمنكرون لله ولرسوله تحت سقفٍ واحد كذلك فقد اجتمع المسلمون تحت سقفٍ واحدٍ آخر، ومَن يدري فلربما توفرت لهم آنذاك فرصةٌ كافيةٌ للتمييز بين الأسود والأبيض وبين الغثّ والسمين. أجل، لقد شاهدوا كلّ شيء وأدركوه جيدًا، وبينما كانت قلوبهم وعقولهم تسترجِعُ عهد الحضارةِ في المدينة المنورّة على عهد النبيّ ﷺ كي تَسود الحقائق الإلهية التي جاء بها كانت عقول بعضهم الآخر وقلوبهم بعيدةً جدًّا عنهم وفي وادٍ آخر، وهكذا بدأت روابط هذا الاتفاق بالتقطّع، إذ تبين أن المشاعر والعواطف مختلفةٌ ومتباينة.

بعد هذه الفترة ظهر أن الروابط العاطفية ليستْ كافيةً، لذا اتجه كلّ فريقٍ إلى جهة معينة وتفرقت بهم السبل، فالاتحاد والائتلاف كان بحاجةٍ -إلى جانب الرابطة العاطفية- إلى أسسٍ فكريّةٍ ومنطقيّةٍ.

أما من جهتنا فإننا نشاهد الصحوة الإسلامية في تركيا وفي البلدان الإسلامية الأخرى، وإننا نرى من المفيد أن نذكّر بضرورة عدم تناسي

الأسس التي يجب مراعاتها حتى وإن كانت لدينا قناعةٌ بأن كلّ إنسانٍ يقوم بما عليه ويهيّئُ ما يمكن تهيئته لمستقبل الأمة.

أولًا: يجب على كلّ سالكٍ في طريق الحقّ أن يتخلّى عن محاولة قسرِ الآخرين على التفكير مثله؛ فكلّ خدمةٍ في طريق الحق نُصفّقُ لها ونُثْنِي عليها، فكما يتقبّل أرباب المهن المختلفة وأصحاب الفنون المتنوّعة بعضُهم البعضَ الآخر ويتداولون ويتبادلون ثمار سعيهم ويتعاونون في سبيل هدفٍ مشترك، كذلك على أصحاب المشارب والأذواق المختلفة إبداء الفهمِ نفسِهِ والمرونة نفسها، والابتعاد عن التصلّب في فرض طرقٍ معينة ما دام الهدف المنشود مشتركًا، لذا فما يجب عمله هو القيام بالثناء على كلّ مَنْ يقدّم خدمةً في ساحته، وقبول كل مَنْ يقول: "إن كل من يذكر الله تعالى ويسعى من أجله ويبجّل رسولنا ﷺ فهو أخي..."، ولكي لا تزدرئنا الرأسمالية أو الشيوعية، ولكي لا نقع في بئر الإلحاد علينا أن نضع اتفاقًا ما ولو كان صوريًّا، فالإنجليزيّ حقق وحدة "الأنجلوسكسون والغال" لكي يؤمّن مستقبله، مع أن هذين العنصرين -"الأنجلوسكسون والغال"- يكره أحدهما الآخر وينفر منه نفورًا كبيرًا، ومع ذلك فلم يظهر بينهما أمام العيان أيّ خلاف أو نزاع حتى اليوم؛ لأنهما جلسا على طاولةٍ واحدة وتفاوضا واستعرضا القواسم المشتركة ونقاط الخلاف، وأخذا بنظر الاعتبار مستقبلَ إنكلترا ومصيرها، فتنازلَ كلٌّ منهما عن بعض الأمور في هذا السبيل.

ما يعنينا من هذا في دعوتنا هو أننا جميعًا باختلاف مشاربنا وأذواقنا نؤْمن بربٍّ واحد، ونؤمن بأنّ رسولَنا واحد، وكتابَنا واحد، وقبلتَنا واحدة، وطريقَنا واحد، إذن نستطيع أن نقيمَ وحدَتَنا على هذه الأسس المنطقية

السليمة، وليس على أساسٍ عاطفي مجرّد، فهذه الأسس القوية المشتركة فيما بيننا تقتضي وتوجب علينا الوحدة فيما بيننا، أما الزعم بخلاف هذا فليس إلّا همسات النفس الأمّارة ومعاذيرها.

لقد عقدنا العزم جميعًا على إيصال كنزٍ نفيس إلى مكانٍ معيّن، فإن كان علينا أن يُبارزَ بعضُنا البعضَ الآخر، فلنتبارز تلك المبارزةَ الملعونة بعد قيامنا بإيصال ذلك الكنز وتلك الأمانة إلى أصحابها، ولكن علينا أوّلًا أن نفكّر في حاضر هذه الأمة الكريمة ومستقبلها فلا ندعهما نهبًا للملحدين والفسقة.

ثانيًا: الطريقة الثانية في هذا الموضوع هي ألا يقوم أحدٌ بإكراه الآخرين على سلوك طريقه والدخول في نظامه، بل لندع كلَّ واحد يعمل بالطريقة التي يفضّلها ويراها أصلح من غيرها؛ لأنه من المعروف أنّ مِنَ الصعب على الكثيرين تغيير أفكارهم، بل يستحيل ذلك في كثيرٍ من الأحيان، فالإجبار ليس طريقًا سليمًا ومجديًا، بل يؤدّي إلى مشاكل وانشقاقات لا يمكن التئامها، بينما التسامح واللين والتفاهم بالحسنى هو الطريق الذي أوصانا به القرآن، والذين يتعاملون بالحسنى والتسامح يحلّون مشاكل مستقبلية مهمة.

وهناك شيءٌ آخر يجب الوقوف عنده وهو: بما أن المشارب والأذواق المختلفة لا تتّحد، لكن كلّ مَن يعمل في سبيل الإيمان والقرآن يؤدّي في الحقيقة خدمةً مهمّة؛ فمثلًا هناك كثيرٌ من الأقلام اللامعة التي تقوم بتناول حياتنا الاجتماعية ومشاكلها بالتدقيق وبالبحث عن حلولٍ لها، والإسلام بحاجة إلى مثل هذه الحلول أيضًا، لذا فلندَع هؤلاء يقومون بحلّ المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، ولنقم نحن بما نستطيع القيام به،

فكما تمّت حمْلة تَكيّف وتوفيق في العصر العباسي، كذلك يجب أن تتم مثل هذه الحملة اليوم، ولتكن مقاييس وموازين أهل السنة والجماعة هي الحكم فيما نأخذ وفيما ندَع، ولنحاول إنشاء عالم جديد أو على الأقل تهيئة الأسس للوصول إلى هذا العالم الجديد من خلال توليفات جديدة.

لنفرض أن هناك مجموعةً أخرى لها جوانب يمكن انتقادها من منظور أهل السنة والجماعة، ولكن بالنسبة لموضوع الدراسة والبحث فإنّ لها -بل حتى للغرب- جوانب إيجابية يمكن الاستفادة منها؛ فما الضرر في الأخذ عنهم بعد الأخذ بنظر الاعتبار كرامتنا وعزتنا وكذلك عداوتهم لنا وإجراء حساباتنا على هذا الأساس؟ والحقيقة أن كلّ مذهبٍ باطل يحتوي على جزء صغير من الحق، وهو مَدِين في وجوده وبقائه لهذا الجزء الحق؛ لذا يمكن أخذ ذلك الجزء الصغير من الحق والحقيقة، بل هذا أمرٌ لا بدّ منه.

لِأَشْرَحْ هذه المسألةَ بمثال: هناك مذهبان خارج دائرة أهل السنة والجماعة يمثلان منذ القديم قطبين متضادين وهما "المعتزلة" و"الجبرية"، فمذهب المعتزلة يقول: "إن العبد خالقٌ لأفعاله"، أما المذهب الجبري فيقول: "الله خالق كل شيء، والإنسان مسيَّر مثل الآلة"، فلهذين المذهبين وجهتا نظر متناقضتان تمامًا حول إرادة الإنسان وحول خلق الله تعالى للأفعال، فالمعتزلة تقول: إن الإنسان يخلق أفعاله، ولا يتدخّل اللهُ تعالى في هذا الأمر، وأصحاب الفلسفة العقلية "راسيوناليزم" في أيامنا الحالية يفكرون أيضًا التفكير نفسه، أما الجبرية فترى العكس تمامًا ولا تعطي للإنسان أيّ حرية أو اختيار أو إرادة، بل تراه مكتوف اليدَين والرجلَين وهو على مثال قول الشاعر النابلسي:

ألقاه في اليمّ مكتوفًا وقال له

إيـاكَ إيـاكَ أن تبتـلّ بالمـاءِ

أما أهل السنة فقد أخذوا جزءَ الحقيقة من هذا المذهب وجزءَ الحقيقة من المذهب الآخر ومزَجوهما معًا ليُخرجوا تركيبًا آخر؛ فقالوا للمعتزلة: "أجـل، هنـاك إرادة للإنسـان، لأن آيات عديدة في القـرآن تدلّ على هذا، فالإنسـان يعمل عملًا صالحًا بإرادته ويسـتحق الجنة على ذلك، فالإرادةُ موجودة لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَـانِ إِلَّا مَا سَـعى﴾ (سورة النَّجْم: ٣٩/٥٣)، ولكن دون أن ننسـى أنّ مشـيئة الله أساس في هذا الموضوع حسَب قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة التَّكْوِير: ٢٩/٨١)".

إن مسـاحة الإرادة التي تذكرونهـا ضيّقة إلى درجة قد يكون وجودها أو عـدم وجودهـا سـواء، ولكـن الإرادة -كشـرط عادي- موجـودة وهي الأساس في البرّ والإثم والثواب والعقاب.

مـا أريـد قوله من هذا الشـرح، أن هناك جزءًا مـن الحقيقة في النظام الرأسماليّ، وكذلك جزءًا من الحقيقة في النظام الشيوعيّ، هذا الجزء هو الذي تقوم الشيوعية باستغلاله، إذ تقوم باستغلال الملكية العامة واستغلال الفقيـر زاعمـة الدفاع عن الفقراء، أي إنها تنافـق في هذا الموضوع، وهذه الأنظمة هي التي تقود الجماهير الآن، أما الإسلام فجميـع أنظمته وجميـع مبادئـه حقّ وحقيقة وعدالة مَحْضـة، فهو مجموعة من المبادئ التي تؤمّن الوحدة والاتفاق.

أمـا المشـارب فإننا نقول بأن كل مشـرب يحوي جانبًا مـن الحقيقة؛ لذا فمِن الخطإ تَنَاسِـي أن الله تعالى خلق الناس بمشـارب مختلفة وأذواق

مختلفـة، ومـن الخطإ محاولـة التصدي والعمل ضدّ الفطـرة التي فطر الله النـاس عليهـا، ومحاولة جمع جميع الميـاه المتدفّقة من جداول مختلفة في مسارٍ واحد، فهذه محاولة خيالية علينا ألا نقوم بها، بل على كل واحد منـا محاولة نشـر الأنـوار القرآنية والإيمانية، كلٌّ في سـاحته، ولا يصرف جهده في النزاع مـع الآخرين، فإنْ لم يستطـع الاتفاق مـع الآخرين فلا يُثِرِ النزاعَـات والخصومات على الأقلّ، وليحذر انتقادهم واغتيابهم، وليتعلّمْ كيف يثني على كلّ عمل خيرٍ، وكيفَ يكون ظهيرًا لكلّ مَن يذكر الله، فإن فعلنا هذا فإننا نأمل بعون الله تعالى تأسيس تعاونٍ واتحادٍ واتفاقٍ فيما بين المسلمين بعد مدة وجيزة.

شرحُ الإسلام بالعلم

سؤال: لقد انتشر في أيامنا الاستعانة بالعلوم الحديثة في شرح الإسلام، كيف تنظرون إلى هذا الأمر؟

الجواب: أجل، لقد اعتدنا في أيامنا الراهنة على التدقيق في فروع العلم المختلفة، وجعلنا من كل فرع عدسةً ننظر بها إلى الحوادث والأشياء، بل وإلى المسائل الدينية، بل وراعينا المنهج نفسه عند شرح هذه المسائل، فمثلًا عندما نقول: "إن الله تعالى موجود" نقول إن علم الفيزياء يشير كموضوع علمي بحت إلى وجود الله تعالى، وإن علم الكيمياء بطبيعته وهويته الخفية يرمزُ ببعضِ تفاعلاته وتركيباته إلى الشيء نفسه، وإن علم الفيزياء يُعلن في مُعادَلَةٍ كذا عن وجود الله تعالى... إلخ.

وأحيانًا ما نأخذ هذه العلوم جميعها والحوادث الجارية على مستوى الذرّة وعلى مستوى المجرات، ونفتِّش عن الأدلة التي تبرهن على وجوده سبحانه وعلى وحدانيّته.

لقد سبق وأن قرأتُ كتابًا بعنوان "الطبّ محراب الإيمان" فأعجبني العنوان كثيرًا، إذ إنني لا أتصوّر أن يَدرس أيّ إنسان علم الطب ثم لا يؤمن بالله، ففي محراب هذا العلم هناك مسائل إيمانية عديدة؛ ذلك لأن الإنسان مخلوقٌ بدقّةٍ مذهلة تُحيّر العقول وعلم التشريح يبين هذا، فإذا أنعمتَ النظَرَ إلى أيّ عضوٍ من أعضاء الإنسان ذُهلتَ من روعة تركيبه، فلا تملك إلّا أن تقول: "الله أكبر"، وهكذا فالطبُّ محرابُ الإيمان حقًّا.

عادةً ما نقوم بتفسير ديننا استنادًا إلى علوم مختلفة، ونستعمل العلوم كوسيلةٍ لِجَلْبِ الأنظار إلى إعجاز القرآن، فمثلًا نرى أن المراحل التي يعيشها الجنين في بطن أمه موضَّحة في القرآن، وتتطابق تمامًا مع المراحل التي توصَّل إليها العلم الحديث، فكيف كان باستطاعة شخص أميّ صلوات ربي وسلامه عليه أن يصل إلى هذه الحقائق العلمية قبل أربعةَ عشرَ قرنًا من الزمان دون أن يملك الأجهزة الحديثة وأجهزة الأشعّة السينيّة -الكهرومغناطيسيّة- التي لولاها لَما أمكنَ الوصول إلى معرفة هذه المراحل؟ فلو كان هذا الأمر متعلِّقًا بقدرة إنسانٍ لَما كان ممكنًا، إذًا فالقرآن الكريم لا يمكن أن يصدر عن الرسول ﷺ وكل هذه الأدلة العلمية تُفضي إلى أن القرآن هو كلام الله تعالى، وعندما نُبرهِن بالأدلة على أن القرآن هو كلام الله، فإننا نبرهن أيضًا على نبوة محمد ﷺ وهكذا نستطيع تناول المسائل الأخرى للإيمان على هذا المنوال.

ولكوننا فصّلنا الكلام بشكلٍ مستقلٍّ في موضوع إعجاز القرآن فإننا نكتفي هنا بهذا القدر ولا نرى حاجةً للتفصيل ولكننا نريد هنا أن نقول:

إننا نرجع إلى مختلف العلوم ونشرح ديننا بواسطتها؛ لأن عقل الإنسانية الآن مرتبطٌ بها، وأعداء الدين من أصحاب الفكر المادّيّ يحاولون استغلال العلم والتقنية كوسيلة للإلحاد والإنكار؛ لذا فنحن مضطرون لاستعمال السلاح نفسه لإزالة الأوهام والشبهات التي تجول في أذهان الذين تكدّرت عقولهم واسودت نظراتهم بسبب هذا التضليل، وإثبات أن العلم لا يناقض ولا يعادي الدين، وبعبارة أخرى: إن علينا إزاء ما يقوم به الماديون من أمثال "ماركس" و"أنجلز" و"لِينِين" من استغلالٍ للمادة وجعلِها واسطةً للإنكار والإلحاد أن نستعمل المادةَ نفسها كأداةِ إثباتٍ وبرهنة على صحة الدين.

وأنـا لا أجـدُ أيَّ حـرج فـي هـذا الأمـر، بل إننـي أدعو رجـال العلم المؤمنيـن فـي أيامنا إلى إعداد أنفسـهم إعدادًا يُؤهّلهـم للحديثِ عن مثل هذه المسائل في راحةٍ تامّةٍ؛ لأن آيات القرآن الكريم تأخذ بِأيدينا وترتقي بنا إلى السموات، وتجول بين النجوم والمجرّات؛ لتعرّفنا ببدائـع الصنائـع ممـا فيهـا وعظيـمِ قدرتِهِ وسـلطانِهِ جلّ جلالـه، ثم تجول بنـا بين الناس، وتلْفتُ أنظارنا إلى أعضائنا وروعتها، وتبسط أمام أنظارنا الوجود بأكمله، وتعرّفنا بالوضـع التشـريحي للإنسـان، ثمّ تمتدّ هـذه الرحلة الطويلة حتى عالـم الـذرات، وتذكّرنا بـأن العلماء هم الذين يخشَـون الله حقًّـا؛ فتحثُّنا وتُشـوّقنا إلـى تحصيـل العلم، وتؤكّد على مسـائل علمية أخـرى، وتدعو الإنسان إلى التأمّل والتفكر في ملكوت السموات والأرض، وبالطبعِ فإنّ كلّ هـذا يجـبُ أن يُؤَطّرَ بإطار روح القرآن، وإلّا نكـون قد قُمنا بتحريف القـرآن باسـم القـرآن، لذا فهناك نقـاطٌ يجب أن نضَعها نُصـبَ أعيننا من ناحية المنهج، وهي:

أولًا: يجب استعمال هذا الأسلوب في شرح حقائق الإسلام كوَسيلة وأداة فقـط، والابتعـاد عـن محاولة اسـتعماله لإظهار عِلمنـا والتّفاخر به؛ لأن المعادلـة تُقلَبُ آنذاك، ولن يكون لكلامنا أيّ تأثير على المسـتمعين، فهـذه الحقائـق النورانيـة الخارجة من أفواهنـا تَفْقد أنوارهـا وترجـع إلينا كالِحة متناسـبة تناسُـبًا عكسـيًّا مـع نيّات قلوبنا، وإذا كان كلامنا موجَّهًا لا لإقنـاع المخاطبيـن بل لإلجامهـم وإفحامهم فإننا لن نكـون مؤثّرين فيهم ألبتـة؛ لأننا سـددنا الطريق للنفوذ إلـى قلوبهـم، وإنْ تصرفنا بعكس ذلك اسـتفاد الذين يحتاجون إلى هذا الموضوع من المسـتمعين دون أن نشعر، لأننـا فـي هذه الحالة نحمـل نيّة إيصال الحقائق إلـى الآخرين لا نيّة إبرازِ أنفسـنا، وأحيانًا ترى أن حديثًا بسـيطًا منك تعتقد أنك لم تُوفِّه حقَّه قد أثَّر

فـي نفوس الحاضرين أكثـر من خطبةٍ بليغةٍ نمَّقْتَها في مُناسـبة أخرى، إذًا فـإن الغاية الوحيدة عند شـرح هذه الموضوعات هـي تحصيل مرضاة الله تعالى وتقديم الحقائق بما يتناسب مـع مستوى المخاطبين.

ثانيًـا: علينـا أن نتخلّـى عن عقدة الشـعور بأن الجميـع يتكلّمون عن العلم وعن التقنية، وألا تكون هذه العقدة أُسَّ شـرحِنا للقضايا الإسلامية، فهذا أمرٌ غير صحيح ألبتة، لأن التهالك في تناول هذه القضايا -كما لو أننا نرتاب في مبادئنا فنسـتعين بهذه العلوم لتقويتها- أمرٌ يُشـكِّل عدم احترام الحقائق التي نؤمن بها، فضلًا عن ذلك فإن اعتبارَ العلم والتقنية أصلًا ثابتًا ومبادئَنا شيئًا تابعًا يحتاج إلى تصديق العلم أمرٌ غير مقبول على الإطلاق.

نسـتطيع تلخيـصَ الموضوع كما يأتي: إن العلوم تُعدّ وسـائل لإزالة الغبار المتراكم على الحقائق الكامنة في ضمائرنا، أما إن اعتبرنا ما تشـير إليـه هذه العلومُ حقائـقَ -والعياذ بالله- وجعلنا الآيـات والأحاديث تابعةً لها، وتعسّـفنا في التأويل والتفسـير لكي تتطابق الآيات والأحاديث معها، فإننا سنسـوق أنفُسَنا ومخاطبينا إلى الشـكّ والارتياب فيما لا يتمّ الاتّفاق عليه من المواضيـع.

بينما يجب أن يكون أسلوبنا كالآتي: إنّ كلام الله تعالى وكلام رسوله حقّ لا ريبَ فيهما، والعلوم صحيحةٌ بقدر تلاؤمها معهما، وغير صحيحةٍ بدرجـة انحرافها عنهما، وحتى القسـم الصحيح مـن العلوم لا يُعدّ قواعد أو مسـتندًا تسـتند إليـه الحقائـق الإيمانية؛ غيـر أنها تلعـب دورًا في زيادة التأمّل والتفكّر في المسـائل الإيمانية ليس إلّا، أما ما يرسّـخ هذه الحقائقَ الإيمانيـةَ فـي قلوبنـا فهي يـد الهداية الربانية مباشـرة، وهـذه النتيجة التي تتحقق بفضل نعمة الله لا يمكن استشـرافُها من العلوم، ومثل هذا التوقـع

والأمل والاستشرافِ يضرب حياتنا القلبية والروحية فيُصيبُ منها المقتَلَ، بحيث لا يفلح بعدها مَن تلقّاها؛ ذلك لأن مثل هذا الشخص الذي يقضي عمره في جمع الدلائل الكونية ويحاول أن يجعلها تتحدث باسم الله سيظلّ دون أن يعيَ مرتبطًا بالطبيعة وقوانينها المادّية ومفاهيمها، سينظر إلى الماء وسينظر إلى جمال الربيع، ولكن لن تنبت في قلبه نبتة إيمانٍ خضراء، ولن يحسّ طوال عمره بوجود الله تعالى في وِجدانه ولو مرةً واحدةً خارج الأدلة التي جمعها، ومع أنه قد يبدو في الظاهر وكأنه ليس من "الطبيعيّين" إلا أنه يقضي عمرَه كله كـ"طبيعيّ (*Naturalist*)".

لذا يجب النظر إلى العلوم وإلى جميع الأدلة العلمية وعدُّها تابعةً واعتبارُها وسيلةً لإزالة الغبار فقط عن الحقائق، وعندما ينفث الشيطان وسوسته في الصدر يمكن الرجوع إلى هذه الأدلة لإزالة هذه الوسوسة؛ لأننا نقول بأنّ نور الإيمان في قلوبنا راسخٌ وقوي وعميق لدرجة أن من يغنون في الظلام بل ومن يعظمون من شأن هذه المسألة في وضح النهار لن يستطيعوا ألبتّةَ أن يُؤثّروا -بالسلب أم بالإيجاب- على هذا النور الذي نملكه في وجداننا.

فالإيمانُ لا يُناطُ بالمعلومات المتراكمة في العقل، وإنما بِقَرَارَةِ القلب، لذلك فإن ما يستطيعه هذا الإنسان المشغول بجمع الأدلة في الآفاق وفي الأنفس هو تحقيق قَفزة صغيرةٍ فقط، فإن لم يستطع الخلاصَ من هذا الأَسْرِ لم يستطع الترقّي في مدارج القلب والروح قطّ، أما إن نَحّى هذا جانبًا -بعد وصوله إلى مرحلة معيَّنة- وسار في نور القرآن وفي الطريق النوراني الذي رسمه قلبه ووجدانه؛ فإنه سيصل حتمًا إلى ما ينشُدُه من انشراحٍ قلبيٍّ، يقول أحد المفكرين الغربيّين: "لقد شعرتُ أنّ

علـيّ أن أضـرب عرضَ الحائط بجميـع الكتُب التي قرأْتُها لكي أؤمن بالله حقّ الإيمان".

لا شك أنّ كتاب الكون وكتاب ماهية الإنسان والكتب التي تشرحهما لهـا دورٌ كبيرٌ فـي هذا الأمر، ولكن عندما تقومُ هذه الكتب بإيفاء وظيفتها حقَّهـا، فعلـى الإنسـان أن ينحّيهـا جانبًا ويبقى وحده مـع إيمانه، وكل ما شـرحناه آنفًا مسـألة تستند نوعًا ما إلى التجربة، والذين لم يمرّوا بتجارب وجُدانيـة لتعميـق الإيمـان قـد يبدو لهم هـذا الكلام شـيئًا نظريًّـا، ولكن الأرواح التي أضاءت لياليها وحلّقت في اشتياقٍ إلى ربّها سبحانه وتعالى تعي جيدًا ما نقول.

الإلفُ والعادةُ

سؤال: ما الأُلفة؟ وما تأثيراتها السلبية؟

الجـواب: الأُلفة تأتي بمعنى التعوّد والصداقة والمحبة والانسـجام، أمـا المعنـى المقصود هنا فمـع كونه ذا علاقة بهذه المعاني إلى حدٍّ ما إلّا أنه أكثر شموليّةً، فالأُلفة هي علاقة الإنسان بالأشياء والحوادث، والمعاني الناتجـة عن أمثال هـذه العلاقة بتَدَاعي الأفـكارِ وترابطِها، وانعكاس هذه المعاني وهبوب نسـيمها على أعماق النفس، ثم التغيرات التي تطرأ جرّاء ذلك على سـلوكيات الإنسـان، وهكذا فهناك سلسـلةٌ متعاقبةٌ من الوقائـع تتمخّض عنها نتائج تُبقي الروح حيّة نشِطة حساسةً.

أجل، إنّ حساسية الإنسان وإعجابه بجمال الوجود وجاذبيته، وتطلّعه وشـغفه بالنظام العام الذي يعمل بدقّة تفوق دقّةَ السـاعة، ثم زيادةَ خبرته ومعرفته بعد كل اكتشافٍ يَتوصل إليه، ووصولَه إلى التفكير المنهجي بعد ربـط أجـزاء معلوماته بعضها مـع بعض... كل ذلك يشـحذُ مشـاعره إزاء الأحداث ويحرّك ذهنه ويجعله في فعالية روحية ويقَظة دائمة.

أما إن بقي الإنسـان دون مشـاعر أو أحاسـيس أمام آلافٍ من لوحات الجمـال والنظام، غير مبالٍ بالأشـياء المتناغمـة مـع بعضها، لا يبحث عن أسـبابِ وحِكَـم ما يراه، بل يمـرّ غافلًا، ويمضي جاهـلًا، ولا تبلُـغُ روحُه أيّ مسـتوًى للعرفـان... فهذه أمـارةٌ على موت أحاسيسـه وروحه وعمى

بصيرتـه، فلا كتابُ الكون المليء بالأسـرار -بالنسـبة لهؤلاء- ولا انفتاحُ عوالم النفس الإنسانية أمام أنظارهم ورقةً ورقةً يعني شيئًا: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾ (سورة يُوسُفَ: ١٢/١٠٥)، لم يستفيدوا ممّا وقـع، ولم يعتبروا بما هو واقـعٌ وجارٍ.

إنّ مـن يَحْـدُسُ ويَفهم ما يحدثُ حوله، ويحـسّ بالإعجاب بالوجود وبالفضول حيال كنه أسـراره، يُشـبِهُ تمامًا مَنْ نَشـر شـراع سفينته في بحر لا نهايـة لـه، وهو في كلّ مرحلة من سـياحته هذه يحصـل على المفاتيح الذهبيـة لقصـور الأسـرار الخافية عنه، وكلّما سـار بقلبه النقي ومشـاعره الجياشة وروحه المهيأة لنسائم الإلهام أخذت بساتين الجنة في عالم فكره المليء بالجماليات في النمو والازدهار.

أما مَن لم يصل إلى هذا الفهم وإلى هذه الروح نراه يشكو على الدوام من الوتيرة الواحدة التي تسـير عليها الحوادث والأشـياء؛ لأنه لم يستطـع الخـلاص مِـن أسـرِ ما اعتاد عليـه أو ما ألفه، فكلُّ شـيءٍ بالنسـبة لهؤلاء فوضـى وظـلام وبلا معنى: ﴿**وَإِنْ يَـرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا**﴾ (سـورة الأَعْرَافِ: ٧/١٤٦)، أي سُلسـلت عقولهم وغُلّت أرواحهـم: ﴿**وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُـونَ**﴾ (سـورة التَّوْبَةِ: ٩/٨٧)، فلا ثمـرةَ ولا خيرَ يُرجى من هؤلاء، وانتظار أيِّ خيرٍ أو أيّ ثمرةٍ منهم أمرٌ لا طائلَ منه.

ثم إن الإنسـان ينغمر أحيانًا في الأُلفة بعد المعرفة والمشـاهدة، أو ما يُحسَـب ويظنُّ أنـه معرفة ومشـاهدة، وأعتقد أن السـؤال موجّهٌ نحو هذه النقطة، أي بعد الإدراك والمعرفة والتصديق والوصول إلى مسـتوًى معيَّن مـن العرفـان قد يفقد الإنسـان صلته بمـا حوله، ولا يأخـذ العبرة من أي شيء، على رغم العوالم التي تتغيّر والجماليات التي تتجدّد، وهذا يقتضي

مزيـدًا مـن التعمّق، غير أن ما يحدث هـو العكس، وهذا يعني والعياذ بالله سقوطَ الإنسان وموتَ مشاعره.

فإن لم يُسـرع مَن أُبتلي بهذا إلى رفـع الغشـاوة عن عينيه بسـرعة وإن لـم يبـادر إلى تأمّلِ الحِكَمِ والأسـرارِ الموجودة في الأشـياء حواليه، وإن لم يُنْصِتْ بسَـمْعِهِ وقلبه إلى الرسـائل والإشارات الإلهية القادمة من الملإ الأعلـى، ويحـاول فهمها؛ فالمصيـر المحتوم أمامه هـو الموت المعنوي، والاحتراق الداخلي الذي يحوّله إلى فحم ورماد.

تأمَّـلْ سطـور الكائنـات فإنّها

من الملإ الأعلى إليك رسائل

ولهـذا أرسـل الله تعالى خالقُ هـذا الكونِ المرشـدين الأصفياءَ دائمًا لإيقـاظ النـاس وتنبيههـم، وجهّزهم بلسـانٍ بيّنٍ وبآيات بيّنـات، وجعلهم يـردّدون كلامـه الأزلي، فأضـاء القلوبَ ونوّر الأبصـار، وبذلك نبّه عقول وضمائر الذين سـجنوا أنفسهم داخل أسوار الإلْفِ والعادة، ووجَّههم إلى إعادة التأمّل في ملكوت السموات والأرض.

لذا فقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم وفي مواضـع عديدة وبعبارات وأساليب مختلفة كيف أنه خلق الإنسان وجعله في الأرض خليفة، وخلق له زوجه ليسكن إليها، وجعل بينهما مودةً ورحمة، ووجّه الأنظارَ إلى تأمُّل السـماوات والأرض، وإلـى عَظَمَةِ خلقهما، وإلى اختلاف ألسـنة الأقوام وألوانهم، وإلى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وإلى النعم التي يرسـلها مـع الأمطار والبروق... أي إنه لم يبق هناك مجالٌ لأي ألفة لِمَن يستخدم عقله وعلمه وسـمعه وفكـره: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ**

بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الرُّوم: ٢٠/٣٠-٢٤).

إن البيان السماوي يبدّد الأُلفة بمئاتٍ من تنبيهاته وإرشاداته، ويلفت انتباهنا إلى آلاف الخوارق والمعجزات الجارية في الكون والتي تقع أمام أعيننا ونعجز عن إدراك كنهها، ولكن مع هذا يوجد مَن لا يستطيع سماع صدى الحوادث والآيات التي تغرّد من حوله وكأنها البلابل.

وهناك شيءٌ آخر في هذا الخصوص، وهو الأُلفة في الفكر والتصوّر، وهذا ينعكس على سلوك الإنسان وعلى عبادته، ومثل هذه الأُلفة والعادة يعني موت الوجد والعشق والانفعال لدى الفرد، وإنّ مَن ابتُلِيَ بها ليزول عنه -كُلِّيَّةً- الإحساسُ بالمسؤولية، والنفورُ من الإثم والبكاءُ على الآثام التي يرتكبها، ومن الصعب للغاية إرجاع مثل هذا الفرد إلى حالته الأولى، ولا يفيد معه سوى تذكرة طيبة ونقيّة لكي يعود إلى رشده من جديد ويرى ما حوله ويراقب خَطَراتِ قلبه.

وكلّ مرشد يأتي لتجديد الروح في الإنسانية كان ينفث فيها هذا المعنى، صحيح أن الإنسان قد يفقد عزيمته وتتبلّد مشاعره، ولكن تجديد نفسه ليس مستحيلًا، إذ يكفي أن تمتد إليه يدٌ بمبضع الجراحة لتسحَقَ هذا الجمود وتجدّد الدورة الدمويّة فيه: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ**

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (سورة الْحَدِيدِ: ١٦/٥٧).

وخلاصةُ القول: إن الأُلفة بهذا المعنى تُعدّ مصيبةً كبيرة للإنسان وإن الكثيرين معرَّضون لها، والذي يقع فيها يكون غافلًا عما يحدث حواليه، أعمى عن الجمال الموجود في كتاب الكون، أصمّ عن صوت الحقّ من ألسنة الحوادث؛ لذا يكون إيمانه سطحيًّا وغير كافٍ، وعبادتُه باردةٌ لا وجدَ فيها ولا عشق، وتعاملاتُه البشَرية جائرةً لا يضع لها حسابًا، وإن خَلاصَه من هذا الحال مرهونٌ بامتداد يدِ عنايةٍ قويّةٍ نحوه لكي يرى ويسمع من جديد.

يحتاج مَن سقط في هاوية الأُلفة إلى تشجيعه على التأمّل العميق في الآفاق وفي الأنفس، وتذكيره بالموت ومشاهد الآخرة، واصطحابه إلى مؤسّسات الخدمات الإيمانية، وتشويقه إلى القيام ببعض المهمات والوظائف الإيمانية، واطلاعه على الصفحات المشرقة لماضينا، وجمعه مع أصحاب الفكر والثقافة وأصحاب الوجد والقلب لتتهيّأ له فرصة تجديد نفسِهِ هناك.

وإضافةً إلى الاقتراحات السابقة هناك اقتراحات ومجالات أخرى يمكن التفكير فيها والانتفاع منها، إلّا أننا نكتفي بما ذكرناه لكونه أعطى فكرةً ملخّصةً حول الموضوع، ندعو الله تعالى أن يُزيل الأُلفة والعادةَ من قلوبنا، فمفاتيح القلوب كلها بيده...

ثقافة القراءة

سؤال: كيف يمكننا أن نعوّد إنساننا على القراءة؟

الجـواب: هناك كلمة يرددها الجميـع حتى أَلِفَهَا السـامعون من كثرةِ سماعِها فَأَضْحَتْ لا تُحْدِث في القلوب وقعَها المناسب لمعناها ألا وهي: ﴿**اقْرَأْ**﴾ (سورة العَلَق: ١/٩٦)، أول أمر للإسلام.

اقرأ: يعني تعرّفْ على الماهيّة الإنسانيّة، ودقّق النظر في كتاب الكون، واقـرأ القرآن الـذي هو ترجمانٌ لكل ذلك... اطّلـع على حياة رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، وتوصـل إلى التركيبات الجديـدة، وافحص مرات ومرات النتائج التي توصلت إليها.

ابحـث في جميـع التجليات الدالّـة على الوحدانية، ارتـقِ كلَّ لحظةٍ درجةً في مراحل المعرفة، واقرأ باسـتمرار قائلًا: "هل من مزيد؟" بظمإٍ لا يرتوي بأي شيء، واقرأ كتاب الكون، وتعرف على ماهية الإنسان التي تُعَدُّ فهرسًا لهذا الكتاب.

وإن مـن يحـاول أن يقـرأ هذا الكتاب وماهيةَ ذلك الإنسـان في ضوء البيانات النورانية للنبي صلى الله عليه وسلم يتعمّق في عالم القلب تعمّقًا تتضاءل إزاءه المحيطات، عند ذلك ندرك حقيقة: "ما عرفناك حق معرفتك يـا معـروف"، وتصبح بالنسـبة لنا كَعَين اليقين، ونصِـلُ مكانةً "العجزُ فيها عن الإدراك إدراكٌ".

إنني أرى بقناعتي المتواضعة أن عالَمَنا قد تجاهلَ أيضًا هذا الأمر الإسلامي، ولقد استخدمتُ هذا التعبير؛ يعني "عالمنا"؛ حتى لا يُظنّ أنني أقصد الدولة التي نعيش فيها ليس إلا؛ لأنني أعتبر كل بلادنا قديمًا عالمًا لنا. أجل، إن عالمنا عالمٌ عظيمٌ يضمّ بين جناحيه عديدًا من الدول مثل مصر والسودان والمغرب وتونس والجزائر وكل بلاد المغرب العربي وبخارى وسمرقند وطشقند وجميع دول آسيا الوسطى وغيرها من البلاد الكثيرة التي رفرفت في آفاقها الروح المحمدية وتمتعت قرونًا بالعزة والشرف.

إن "إنساننا" هو تلك الجماعة المباركة التي تربّعت على القمة في عالمنا المنفتح على العلم والمعرفة فأبهرت غيرها من الأمم الأخرى.

بعد أن قصمتْ الحملات الصليبية ظهْرَ هذه البلاد وقعت فريسةً لاعتداء الأفكار الإمبريالية واحتلالها، ورُبما استطعنا بعد مدة أن نتغلَّب على أولئك المحتلّين ونخرجَهم من أرضنا إلا أنهم قاموا خلال الفترة التي جثموا فيها على صدورنا بتربية أشخاص ضعفاء الشخصية، اسْتَلَبوهم من بيننا، ثم أطلقوا سراح أنصار أفكارهم بيننا، وقام هؤلاء بدورهم بتربية أجيالٍ تكفلُ لهم عدم انقطاع الفساد من أسلافهم، فعلوا هذا اعتمادًا على خطّةٍ مسبقة و"أمورٍ دُبِّرت بِلَيل"، حتى أنتجت أعمالُهم أعمالًا أخرى تليها، فتتابعت التخريبات تلوَ بعضها متعاقبة.

فنشأ عالمٌ فكريٌّ خاصّ بهم، وبهذا دحروا الأنشطة الفردية المتنوّعة التي قام بها إنساننا، لدرجة أنه قد بدا اليوم من الصعب، بل من المستحيل أن نعود إلى عالمنا الروحي ونتوحد معه، ونُعيد ذاتيّتنا إلينا ما دمنا لم نستطع محوَ كلّ هذه الأفكار.

إن من أهمّ الضّرَبات التي مُنينا بها أنهم أبعدونا -بأساليبهم الخاصّة- عن ماضينا وتاريخنا وثقافتنا وجعلونا غرباء عن عالم الكتاب الخاص بنا؛ وبذلك حرموا جيلًا من مكتسبات القرون وخبراتها، ولم يكتفوا بهذا فحسب، بل أطلقوا سراح الأنشطة الهدامة في جميع المجالات، وملؤوا قلوب الشباب بالقضايا الشهوانية، وجعلوهم لا يفكرون بغيرها، وسرعان ما استولت على الأجيال فكرة "البوهيمية"، إلى أن أغرقتهم في دوّامتها، ورغم ذلك لم يبرز أحدٌ ويتجرّأ على الوقوف في وجه هذه المصيبة، أو أن معظمَ من يشغلون منصبًا يستطيعون من خلاله مواجهتها كانوا سعداء من حالهم، ولذا لم يحركوا ساكنًا.

وكما شاهد النبي ﷺ بعضَ المذنبين ليلة المعراج وما يتجرّعونه من عذاب، كنا نحن أيضًا نشاهد المجتمع في ذلك الوقت على مثل هذه الصورة، حيث غَرِقَت الأجيال في مستنقع الخمر والقمار والزنا والرشوة والاحتكار والربا وما إلى ذلك، وأخذت تسير بيننا بفراغٍ معنويٍّ كبير، وأفكار مظلمةٍ قاتمة، وكأنها قد اكتسبت شخصية أخرى ووجودًا آخر، كانوا يتسكعون هنا وهنالك مثل رقّاص الساعة بعد أن جُمّدت قلوبهم، وقد تمّت التجهيزات اللازمة كي يُصبِحوا ضحايا للفوضى والإرهاب، ثم دُعُوا بعد ذلك إلى أن يكونوا فضلاء وهم الذين دُفعوا إلى السفاهة دفعًا؛ فأشبهت حالتهم حالةَ ذلك الذي أُلقي به في البحر بعد أن رُبطت يده وذراعه، ثم طُلب منه فيما بعد أن يحذرَ البللَ.

أجل، كانوا يطلبون من الجيل في ذلك الوقت أن يكون فاضلًا، غير مثير للفوضى، محبًّا لوطنه، حاميًا لأمته، رافعًا من شأن لواء بلده، فهذه المطالب متطابقة من ناحية الشكل وإن كانت مختلفة من ناحية المحتوى،

وكما لا يمكنك أن تطلب ممن أُلقي به في البحر ألا يبتلّ كذلك لا يمنكك أن ترجو من هؤلاء أن يكونوا فضلاء.

وبعد ذلك نشأ مفهومٌ جديدٌ؛ لا يبدو منه أنه يخدم أيّ فكر، مفهومٌ يفضّل فتح جميع قنوات وحواجز الشهوة على مصراعيها لإنقاذ الشبيبة من الفوضى.

أجل، كانوا ينشدون من وراء هذه المفاهيم الغريبة أن ينقذوا الشباب من بعض الهواجس الضارة ويجعلونهم لا يفكرون في شيء آخر سوى إشباع شهواتهم، بيد أن الفوضى الحالية نشأت هي أيضًا وترعرَعت في مثل هذه البيئة، إلى أن صارت وحشًا كاسِرًا.

فوقعت الأجيال تحت وطأة جميع هذه العوامل الداخلية والخارجية وابتعدت يومًا بعد يوم عن القراءة والتفكير، وكأنها أصيبت بالهذيان، وفي اعتقادي أن هذا الابتعاد وذلك الهذيان ما زال مستمرًّا حتى يومنا هذا، ومن ناحية أخرى كانت محاولة إقحام الكلمات التي لا أصل لها بلغتنا بمثابة ضربة أخرى على فَهْم ما يُقرأ، فأصبحنا لا نفقه شيئًا من لغتهم، والعكس صحيح، وأصبح رجال الجيل الواحد لا يتفاهمون مع بعضهم البعض إلا بصعوبة بالغة، فإن لم نستأصل شأفةَ هذه المشكلة لدَمّرت حياتَنا الفكرية بما لا يقلّ عن غيرها من المشاكل.

أجل، نحن اليوم أبعد ما نكون عن القراءة، والنتائج المخزية لهذه الحالة ظاهرة عيانًا بيانًا، لقد أصبحنا سطحيين في التفكير، وحُرِمنا من تقديم إبداعات جديدة، إننا لَسْنَا لا نشتهي القراءة فقط، بل إن معظمنا في الوقت ذاته ينفرُ منها، حتى إن بعضًا من قرّائنا يقرأ قراءةً سطحية، جعلَتْنا عاجزين عن إنتاج أيّ جديد في الفكر.

وإنّكَ لترى عقولَ وأرواح الأمس المظلمة التي تعلمت منا القراءة وغيرَها من الفضائل قد أضحت اليوم تقرأ وتفهم وتفكّر، تجدها في البيت والسيارة وموقف الحافلات تفتح الكتاب الذي تحمله في حقيبتها وتستغلّ وقتها أفضل استغلال على حسب معاييرها.

وإذا ما نظرنا إلى المسألة في إطار دائرتنا الضيقة لألفَينا السابقين الذين سنّوا الطريق أمامنا يقول أحدهم: إنه قد قرأ بعض المؤلفات التي حرّرها ثمانين أو مائة مرّة، وهذه وصِيّة فعلية لنا بضرورة القراءة.

وبعدما كان يقرأ بنفسه هذا القدر من مؤلفاته التي يمليها على طلابه ارتجالًا من نتاج قريحته يتابع طلابه قائلًا لهم: اقرؤوا، وبذلك يكون قد وضع يده على أهم وأخطر داء في عصرنا، وأرشدنا إلى سبيل العلاج منه.

فعلى من يتبعون هذا الطريق أن يقرؤوا، ويتزوّدوا بثقافة عصرهم، ويمحّصوا المعلومات التي اكتسبوها من قبل، ويحملوا هذه الخبرة الثقافية إلى المحتاجين؛ حتى يكون لكلامهم صدًى وقبولًا لدى المخاطبين، ولا يدعوا الفرصة سانحة أمام مَن يفسدون في المجتمع.

إن تَرْكَ القراءة يعني الخيانة؛ وكيف لنا أن نبعث الطمأنينة في غيرنا وننقذ الأجيال من التيارات الهدّامة ونحن نتخبّط في الفضاء، رغم أن هذه مهمتنا الأولى وغاية حياتنا المنشودة.

إذًا نحن في أمسّ الحاجة قبل الجميع إلى الاستجابة للأمر القرآني الأول "اقرأ".

مقوّمات بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى

سؤال: يقول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ (سورة التَّوْبَة: ٩/٤١) **ولكننا لا نستطيع بذلَ ما بوسعنا، فما السبب في هذا؟**

الجواب: هناك آياتٌ عديدة في القرآن الكريم تحضّ على بذل الأموال والأنفس في سبيل الله، وهناك أوامر عديدة صريحة أو غير صريحة في القرآن تهدف إلى تنظيم حياتنا الخاصة وحياتنا العائلية ضمن إطار الإسلام، وإقامة الحياة الدينية في المجتمع الإسلامي، وصبغ الأفراد بشعور الإحسان والأخلاق الإسلامية في البلد الذي نعيش فيه، والحقيقة أنه ما لم تتمّ سيادة مثل هذه الروح وهذا الشعور فلا نبالغ إن قلنا إنه لا يمكن لإنسان أن يكون مسلمًا على الوجه الأكمل، بل ولا أن يظلّ على إسلامه ويعايشه.

إن الحياة الإسلامية تعرّضت -ولا سيما في أيامنا الراهنة- لضربات قوية ضَعْضَعَتْ أُسُسَ المؤسّسات فيها، هذا مع العلم بأن علماء الاجتماع المسلمين متّفقون على أنه لا يمكن أن يكون ثمّة إسلامٌ حقيقيّ إلّا في مجتمعٍ إسلاميٍّ تنطلق فيه الأسُسُ الإسلاميّة بِحُرِّيَّةٍ في إطارٍ ديموقراطي، فإن لم تكن السوق منتظمةً وفق أخلاق التجارة وشعور الإحسان ومفهوم الحقّ والعدل، وإذا لم تكن المؤسّسات التربوية -التي تُحاول رفع الإنسان إلى مستوى الإنسانية- تأخذ بيدك على نفس منوالِ الروح والشعور، ولا

تسرع إلى نجدتك ولا تنير الطريق أمامك ولا ترشدك فإنك لا بد أن تتعثّر بعد بضع خطوات أو تضلّ أو تنحرفَ أو تسقطَ وتَضْطَرّ إلى أن تُقدّم تنازلاتٍ كثيرةٍ باسم الأخلاق والفضيلة، والنتيجة هي أنك لن تُوفّق في العيش كمسلمٍ بشكل تام؛ لأن المجتمع سيقوم أحيانًا بقَطع الطريق أمامك، وكذلك الشارع أحيانًا أخرى، والأسوأ من كلّ هذا أن التربيةَ الخاطئة ستقف أمامك كوحشٍ كاسِرٍ وتقطع عليك الطريق، لذا فإن السبيل الوحيد للعيش كمسلمٍ لا يتمّ إلا بتطبيق الوازع الدينيّ بشكلٍ جِدّيّ.

إن الوازع الدينيّ عبارةٌ عن تنبيه وإيقاظ القلوب وتبليغ الدين للناس، وإعلامهم أن الإنسانَ مسافرٌ وضيفٌ في هذه الدنيا، وأن هذه الدنيا ليست إلّا عالَمًا واحدًا من العوالم الكثيرة التي يمرّ بها الإنسان، وأنه كما جاء إلى هذه الدنيا فسيرحل عنها إلى دار القرار. أجل، يجب تذكير الإنسان بهذا وتنمية الوازع الروحيّ والدينيّ في قلبه كي يستطيع القيام بوظيفة الجهاد بالنفس والمال على الوجه الأمثل.

إنّ القلوبَ الظامئة لا تحتاج كثيرَ كلامٍ حيالَ هذا الموضوع، ونستطيع أن نقول إنه يوجد اليوم مِن المسلمين المضحّين الذين يخدمون الإسلام مَن يستحقّ -وهذا ظنّنا فيهم- أن يأخذَ مكانه خلف الصحابة الكرام، نذكر فضل الله هذا ونعمته ونَنْحَنِي بخشوعٍ وخضوعٍ في حضرته وكبريائه، ذلك لأنه في عَهْدِ الجفاف هذا؛ الذي لا تنبت فيه الأرض نبتةً ولا تُمطر السماء فيه قطرةً واحدةً؛ نرى أن الله تعالى قد أحسن مرّةً أخرى بالإسلام والقرآن على هذه القلوب المؤمنة التي تجيش بمشاعر السخاء، ويحدوها الشوق إلى خدمة ديننا وأمتنا، ثم كسرَ القيود التي تُعرقل نهضةَ أمّتنا، وقلبَ هذه الصحراء القاحلة إلى بساتين مزهرة وإلى جنات وارفة الظلال مورقة، فله

الحمدُ حمدًا طيّبًا مباركًا يليق بجلاله وعظمته.

وأنا أُحِسُّ أن هذا السؤال الصادر من هذه القلوب المتحمّسة الصادقة التي تعرضت لشدٍّ معنويٍّ كبيرٍ يستتر تحته السؤال الآتي: كيف نستطيع إثارة الرأي العام وعاطفته وإحساسَه لكي يجاهد بماله ونفسه في سبيل خدمة ديننا وأمتنا؟ كيف نستطيع هذا لكي نقطعَ بسرعةٍ أكبر نَفَقَ الزمنِ المكلَّفونَ باجتيازِهِ، ولكي نقطع البراري والصحارى والجبال الشامخة والوديان العميقة المملوءة قيحًا ودمًا قبل أن تُحِسَّ بنا الأعين الخائنة في الداخل وفي الخارج التي وصفها القرآنُ الكريم بـ﴿خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ (سورة غَافِرٍ: ١٩/٤٠) والتي ترصد وتراقب كلّ ما يهمّ المسلمين، وتحاول عرقلة كلّ شيء إيجابي ومفيد لهم؟ وإلّا فإن المسلمين الذين يسيرون بين عوائق وموانع عديدة إذا ما واجهتهم الأرواح الفاسدة لما استطاعوا قطع طريقٍ يستغرق سنةً واحدةً إلّا في عشر سنوات.

لذا كان لِزامًا على المسلمين تناولُ هذه المسألة وإنجازُها بسرعة أكبر، مثلًا لنفرض أن المسلمين يستطيعون بالإمكانيات المتاحةِ بين أيديهم فتحَ مدرسة واحدة في سنةٍ واحدةٍ لتربية جيلنا وتوجيهه إلى الكمال؛ فإن عليهم أن يضغطوا على أنفسهم قليلًا فيفتحوا مدرستين في سنةٍ واحدة، وهذه ضرورةٌ من ضرورات عملية إحياء الأجيال والعهود القادمة، فإن لم نقم بما يجب القيام به حالًا نحو إنساننا الحاليّ بشكل صحيح فلن نستطيع غدًا القيام بأي شيء حتى لو بقينا محتفظين بقوّتنا كما هي الآن، لأن الموانع أمامنا تتفاقم مع مرور الزمن وستكون في الغد أكبر وأشد وأقوى، ومن الصعبِ تجاوزها والتغلُّبُ عليها آنذاك بإمكانيّاتنا الحالية.

ومن هنا فإنّ الصحابةَ الكرامَ قاموا في ظرفِ ثلاثين سنة بفَتْحِ بلدان

واسعة ووضعِها تحت قيادة الرسول ﷺ والخلافة الراشدة، هذه البلدان كانت تُعادِلُ تقريبًا من ناحيةِ الكمّ والكيف ما تمّ فتحُه من البلدان في عهد كلٍّ من الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين، وإذا أردتم التأكُّد من هذا فألقوا نظرةً إلى خريطة العالم وسترَون... فمثلُ هذه المساحة الواسعة الشاسعة تم فتحها في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة، وهو أمر فريدٌ لا يمكن إيضاحه وتفسيره، والأغربُ من ذلك أنّ الكمّ الأكبرَ من هذا الفتحِ تحقّقَ في عهد الخليفةِ عثمان بن عفان ﷺ... هذا جانب من المسألة.

أما الجانب الآخر فهو أن هذه الفتوحات لم تعتمد على الاستبداد والقهر، فلم يَحْدُثْ وأن أُكْرِهَت القلوبُ أو مُورِسَ الضغطُ على الضمائر، بل فُتِحَت القلوب بتحبيب الإسلام إليها، وجَعْلِ العقولِ متشوِّفةً لتلقّي أوامر الإسلام بكلّ رحابة صدر، لذا فإن الإسلام انتشر انتشارًا كبيرًا وسريعًا في جميع الأماكن التي وصل إليها الصحابة الكرام، وأعقب عهدَ الانتشار هذا عهدُ العلم والعرفان والثقافة، وما تم إنجازه آنذاك لا يزال مثارَ دهشةِ وذُهُولِ العالم، وقد يقول قائل: وما الفائدة من إعجاب العالم بذلك العهد؟ فنقول: إن هذا فضلٌ وحقٌّ كبير، فالحقّ ما شهدت به الأعداء.

أجل، إن الآثار الثقافية والحضاريّة التي تمّ إيصالها إلى نقطةٍ وأُفُقٍ أذهل العالم، والتمثيل الجيد للإسلام كان من أهم أسباب انجذاب الناس إلى الإسلام، فإن كان في هذه البلدان تواصلٌ مع الإسلام الآن؛ فإن الفضل يعود إلى تلك البذور التي ألقتها تلك الأيدي المباركة النورانية المخلصة، وأنا أعتقد أن هذه المسألة مهمّة جدًّا.

فالإنسان لا يستطيعُ منعَ نفسِهِ من الإعجاب الشديد بمدى الإخلاص

الذي كان الصحابة ﷺ يتمتّعون به، فقد أحسنوا ترتيبَ الأزمنة التي يجب فيها التضحية بأموالهم وأنفسهم وأرواحهم، فمثلًا عندما قيل لهم يومًا "يجب عليكم ترك مكة" تركوها دون أن يلتفتوا إلى بكاء أطفالهم وثغاء ضأنهم ومأمأة خرافهم وصياح أنعامهم، لقد كانوا يتمتّعون بروحٍ إبراهيمية وفهمٍ خليلي، لذا تركوا حتى أولادهم وزوجاتهم، فلو قيل لأبي بكر ﷺ: لماذا هاجرت دون أن تلتفت وراءك؟ لقال لهم: إنني بشرٌ من لحمٍ ودمٍ، ولو فعلتُ هذا فلربّما تُؤَثِّرُ فيّ توسّلات عائشة وهي تناديني وتقول: أبتاه!... أبتاه... ولو حدث هذا لقيل لي آنذاك: يا أبا بكر لا يجتمع حبّان في قلبٍ واحد، عند ذلك كنت سأقول: إذًا فخذْ أحدهما!

بمثل هذه الروح لم يتردّدوا قطّ في تنظيم أيامهم وأوقاتهم وزمانهم، وعندما جاء يوم التضحية ضحّوا بكلّ شيء، وقاموا بعملِ ما يجب عليهم على الوجه الصحيح، وقد أنعم الله عليهم فيما بعد من الناحية المادية والمعنوية بأضعاف ما ضحّوا به آنذاك، كان المهاجرون قد تركوا أموالهم وأملاكهم في مكة، ولكن ما إن أقاموا في المدينة المنوّرةِ بضعَ سنوات حتى أعطاهم الله أضعافَ ما تركوا، فمثلًا بعد أن هاجر عثمان ﷺ وترك كلَّ أملاكهِ في مكة اغتنى في المدينة إلى درجة أنه جهز ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وتبرّعَ بها لاستكمال تجهيزات "جيش العسرة" الذي توجّه إلى "تبوك"[٢٢]، وقد يصعب على العقول فَهْمُ كيفَ استطاعَ عثمان ﷺ في تلك المدّة القصيرة تكوين مثل هذه الثروة الضخمة، ولكنه كان مظهرًا لقوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (سورة الأَنْعَام: ٦/١٦٠)، والحقيقة أن هذا العطاء هو الحدّ الأدنى، فقد يُعطي الله تعالى مائةَ أو ألفَ ضعف. أجل، لقد أنفقوا في الوقت المناسب والمكان المناسب كلّ ما

(٢٢) انظر: سنن الترمذي، المناقب، ١٨.

يتوجّبُ عليهم، فحصلوا من الله تعالى على أضعاف ما أَعْطَوا وأنفقوا، ويوجد اليوم من المؤمنين من يقول "أنفقوا في سبيل الله، وأنا أضمن أن الله تعالى سيعوّض عليكم بأضعاف ما أنفقتموه، فإن لم يتحقّق هذا فسأقوم أنا بالبذل بدلًا عنكم".

ولو كان لدى أبي بكر أو عمر ﷺ أيُّ ميلٍ إلى الدنيا لكان في مقدورهما أن يُصبحا فيما بعد من أغنى أغنياء العالم، ولكن لم يشأْ أيٌّ منهما الانحرافَ عن طريق رسول الله ﷺ أو الافتراق عنه، فما كانوا يحصلون عليه بِيَدٍ، كانوا ينفقونه باليد الأخرى ويتصدقون به، وهكذا كان ينفد ما يأتي إليهم، وقد كان هناك من الصحابة الأغنياء مَنْ لا يستطيعُ إحصاء ثروته كعبد الرحمن بن عوف ﷺ، وكأنس بن مالك ﷺ الذي شبّ في بيت الرسول ﷺ ونال بركةَ دعائه، ففي رواية عن أنس بن مالك ﷺ عن أم سليم ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، أَنَسٌ خَادِمُكَ، ادْعُ اللهَ لَهُ، قَالَ: **"اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ"**[٢٣].

كان أنس ﷺ في العاشرة من عمره عندما دخل في شرفِ خدمة النبي ﷺ، وعندما أغمض الرسول ﷺ عينيه عن هذه الدنيا الفانية كان في العشرين من عمره، وأصبح من الأغنياء في عهد الخلفاء، حتى إنه قال مرةً: لقد رأيت أبناء أحفادي، وربما مَن دفنتهم بيدي من أحفادي يتجاوز المائة، أما بالنسبة لثروتي فلا أعرف قدرها، ولا أعلم عدد أغنامي من كثرتها، معنى ذلك أنه كان مظهرًا لفضل الله تعالى عليه.

لقد أعطوا وضحّوا بأرواحهم وأموالهم عندما حان حين العطاء والتضحية، ثم عندما آن الأوان حصلوا على الثمرات الدنيوية والأخروية، فكما تُنقَل البُذور الموجودة في المخزن وتُبذر جميعها في الأرض في

(٢٣) **صحيح البخاري**، الدعوات، ٤٦؛ **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ١٤١.

موسم الربيع، وعندما يحين الأوان تقوم الأرض بإرجاعها سنابل عديدة، كذلك يجب على الإنسان أن يتحوّل بكلّ كيانه إلى بذرة ويلقي بنفسه إلى التراب، عند ذلك سنرى أن كل بذرة ستنشقّ عن سبع أو عشر سنابل، في كل سنبلةٍ مائةُ حبّة كما جاء في القرآن الكريم، عندئذ سيذهل الجميع من عظيم فضل الله، حتى الزرّاع سيصيبهم الانبهار والدهشة من هذا، بينما يصاب البعض بالغيظ من امتلاء المخازن بكل هذه البركات، وهنا يظهر سرُّ الآية الكريمة ﴿**لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ (سورة الفَتْح: ٢٩/٤٨).

إذًا عليكم أن تتخيّلوا أنفسكم في موسم الربيع الصالحِ للبذار، ثمّ تجودوا بكل أنواع البذل والعطاء، وإياكم أن تتوقّفوا أو تقولوا: "يكفي هذا الإنفاق الذي أنفقته"، إلّا إذا وقف أمامكم من تثقون به وقال لكم: "كلا، يجب ألا تبالغوا مثل هذه المبالغة في الإنفاق"؛ أي لا تنفق كل هذا الإنفاق اليوم، لأنه سيحين في المستقبل أوانُ الإنفاق أيضًا، فلو لم نحسب حساب الإنفاق في المستقبل لقلنا لكم "أنفقوا اليوم كل ما تستطيعون إنفاقه"، وإذا أتينا إلى سؤالٍ مفترَضٍ يقول: "حسنًا! وماذا عن المستقبل؟" قلنا: إن الغدَ في ضمانةِ الله تعالى... فالمناسب لنا هو التحلّي بالروح الخليليّة ليس إلّا؛ أي أن نفعل كما فعل إبراهيم الخليل عليه السلام عندما ترك زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرعٍ ثمّ قَفَلَ راجعًا دون أن ينظر خلفَه، فهذا هو ما يليق بنا، وما سنّه لنا سلفُنا الصالحُ وعلى رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلقد قال النبيّ ﷺ في حقّه: "**لَو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي**"(٢٤).

هكذا أحرز أبو بكر رضي الله عنه هذه المرتبة الرفيعة، فكما كان إبراهيم عليه السلام

(٢٤) **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ١.

خليلَ الرحمن، كذلك كان أبو بكر ﷺ خليلَ رسول الرحمن ﷺ، فعندما سأل الرسول ﷺ أبا بكر ﷺ قائلًا: "**مَا أَبْقَيتَ لِأَهْلِكَ؟**" قَالَ: أَبْقَيتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ"[٢٥]، هذا هو الجوابُ اللائقُ بمن حازَ مرتبةَ الصديقية، وهذا الجواب من الصديق الأكبر تعبيرٌ عن حُسْنِ تقييمِ زمان الإنفاق.

والذي نفهمه من الآية الكريمة ﴿**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ (سورة التَّوْبَةِ: ٤١/٩) هو وجوب تقييم الزمان بهذا التقييم الجيد، ويمكننا أن نقول باطمئنانٍ أن ثمة كثيرين اليوم قد أحسنوا استثمار هذا المعنى السامي.

ولو قام أحدهم بتسجيل صور الكرم والبطولة للمؤمنين الحاليين على غرار ما قام به "الفردوسي" في كتابه "الشاهنامة" -ويعني بالعربيّة "كتاب الملوك" أو "ملحمة الملوك"- المؤلَّف من ستين ألف بيت من الشعر لاحتاج إلى تسطير ستين مليون بيت لكي يوفّي هؤلاء المؤمنين حقّهم في الشهامة والكرم، ندعو الله تعالى أن يُبارك في كرمِ وسخاء هؤلاء المؤمنين ويزيدهم أضعافًا مضاعفة، فنحن الآن نعيش ربيعَ هذا الأمر، والزهورُ متفتّحةٌ حوالينا، أي إن هذا هو الموسم الذي تنتظره القلوب المؤمنة، فعلى مؤمني هذا العصر في كل مكان أن يؤدّوا بحقِّ الواجبات الملقاة على عواتقهم في سبيل خدمة وطنهم وأمّتهم، لذا فإنهم كلّما حاموا حول الفكرة -التي بَذَرَتْ بذورَها قبلَ ستة أو سبعة عقود تلكَ الروحُ العظيمةُ والقامةُ الرفيعةُ[٢٦]- كلّما ازداد فرحُها في مكانها، وربما قالت: "لقد جاء هؤلاء الشباب إليّ بهدايا الربيع، وأنا أقابلهم الآن بالكلام الذي سبق وأن

(٢٥) **سنن أبي داود**، الزكاة، ٤١؛ **سنن الترمذي**، المناقب، ٤٤.

(٢٦) يقصد بهذه الروح العظيمة الأستاذ سعيد النُّورْسي.

وعدتهم به قبل سنوات، فأقول: هنيئًا لكم"[٢٧].

هـذا هـو الموقف الحالي كما أظنّ، ولا قِبَلَ لي بتصوير سـرعة وتيرة مثل هذه الأنشطة الخيرية التي تحمل مستقبلًا مشرقًا لأمتنا، ومدى القبول والإعجاب الذي سـتناله مثل هذه التضحية والكرم والشهامة من قِبَلِ ربِّ العالمين ومن قِبَلِ رسـول الله ﷺ ومن قِبَلِ العلماء العظام الذين أناروا لنا الطريق وربّوا أناسًا نورانيين في أحلك عهود الظلام، وقدر الفرح والسرور الذي سيسـري في عالـم الروحانيين، إنني عاجز عن هـذا التصوير وأدعه لكم ولقوة تصوركم.

الجانب الآخر من هذه المسـألة هو كيف نسـتطيع أن نجاهد بأموالنا وأنفسـنا، وهـذا الجانب مرتبطٌ قبلَ كلِّ شـيءٍ بالإيمـان والثقة، ذلك لأن المزارعيـن إن اطمأنّوا ووثقوا بـأن البذور التي يبذرونها في باطن الأرض لن تموت وتتفسّـخ هناك؛ بل سـتنبُت وستُزهر؛ فإنهم لا يتردّدون أبدًا في دسّ كلّ مـا يملكـون من البذار في التربة، ثم يبدؤون الانتظار، ولو اطمأنّ أصحـاب البسـاتين بأن الفسـائل التي يزرعونها سـوف تنمو وتبسُـقُ فلن يتردّدوا أبدًا في زراعة جميع الفسـائل التي يغرسـونها دون إهمال أو ترك فسـيلة واحدة، والذين يملكون أجهزة تفريخ البيض سـيقومون باستعمال هذا البيض في تلك الأجهزة أو يضعونه تحت الدجاج كيلا يفسـد، ولكن إن لم تكن ثقةُ هؤلاء الأشخاص بهذا المستوى، وشكّوا بأن بعضَ البذور ستفسُـد وبعضَ البيـض لن يُفقِّس، أو ظنّوا بأن ذلك الموسـم غيرُ صالحٍ لبَـذْرِ البذور، فَمِـنَ الطبيعي أنهم لن يبذروا كلّ بذورهم، بل يُبقون مقدارًا منها في أيديهم، وسيقومون بكنز أموالهم ليبقى قسمٌ منها لأحفادهم، لذا

(٢٧) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **سيرة ذاتية**، ص ١١٤.

لن يتصرّفوا بسخاء وكرمٍ، ولن يشعروا بمثل هذا الشعور في وجدانهم.

من هذا المُنْطَلَقِ نستطيع القول بأن التضحية في سبيل الله مرتبطةٌ بمقدار ثقتنا بالله تعالى وإيماننا به، فلو آمنّا بأنه موجودٌ مثل إيماننا بوجودنا، ولو آمنا بأن أيّ شيءٍ نعمله في سبيله سيرجع إلينا أضعافًا مضاعفة، وأنه سينمو ويزهر ويثمر في العالم الآخر مصداقًا لمقولة "الدنيا مزرعة الآخرة"... لو آمنا بأن الدنيا مزرعة الآخرة وبستانها وحديقتها لما قصّرنا ألبتة في التضحية والبذل.

أجل، فما نقدّمه من عملٍ وتضحيةٍ وكرمٍ وبذلٍ مرتبطٌ بمدى إيماننا وبقوة هذا الإيمان، وما بذله المسلمون حتى الآن من سخاءٍ وكرم يزيد من أَمَلِنَا في أنهم يستطيعون إنجاز أعمال أكبر، وكما تعلمون فإن هناك بشارات من الصادق الأمين ﷺ حول المستقبل، فلنسْعَ جميعًا لأن نكون مظهرًا لهذه البشارات حتى يتحدث أهل السماء والملائكة ويقولوا: "يا رسول الله! أهؤلاء هم الذين عنيتَهم؟". أجل، فكلّما جاش وبذل وسعى خدام الإسلام بما يملكون وكلما زادت شهامتهم وتضحياتهم في هذا السبيل اقتربوا من الهدف المنشود بسرعة أكبر وبصورة أفضل.

الجنديّة الخالصة لله تعالى

سؤال: كيف يمكن أن نكون جندًا لله تعالى بحقٍّ؟ أيمكنكم شرح هذا ضمن مفهوم الجندية؟

الجـواب: الجندية هـي أبرز خاصّيّةٍ للمؤمن، فنحـن جند الله تعالى، نرجو من الله القبول، فيا ليتنا نكون جنودًا له بحق؛ فنقف على بابه، ونضـع جباهنـا علـى أعتابه، ولا نرفعها إلى الأبد، وننتظر وننتظر، ثمّ نطرق أحيانًا بابـه ونحن نقلّب بصرنا الحزين -ولكن المملوء أملًا أيضًا- إلى اللانهاية ننتظـر منه الجواب، فإن لم يأتِ هـذا الجواب قلنا "يا صبور" وبقينا ننتظر دون مَلَـلٍ أو كَلَـلٍ، وفي ثنايا هذا الانتظار الطويـل إن بدا أن البابَ ينفرج قليلًا ثم ينسدّ في وجوهنا مرَّةً أخرى قلنا: "لم نُستدعَ هذه المرة أيضًا، إذًا فلَـمْ نُظهر بعدُ لياقَتَنَا"، فنداوم علـى الانتظار المؤلم، ولكن بعاطفةٍ ملؤُها الإخـلاص، وكأنّ شـيئًا لـم يحدث، ولكـن ونتيجة لهـذا الإخلاص نأمل أن يأتـي يـوم وتأتـي النتيجة على غير توقّـع منّا وينفتح لنـا الباب قائلين لنـا: "لقـد أظهرتم لياقَتَكم، فتفضلوا"، يقـول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٤٠)، أي تمسّكوا بعهدكم معي، واثبتوا، ولا تبدّلوا أماكنكم، ولا تتضجّروا بما يعترضكم من حوادث مؤقّتة،

وسأوفي بعهدي معكم؛ يعني أنني لن أنقضَ العهد الموجود بيننا أبدًا، فإن كان هناك من ينقض هذا العهد فهو أنتم، إذًا فاثبتوا في هذا الموضوع ولا تنقضوا العهد والميثاق لكي ينفتح لكم باب الله تعالى يومًا ما.

ولكن لنحاسب أنفسنا؛ هل قمنا بالمحافظة على هذا العهد بهذا المقياس من الإخلاص والوفاء؟ وهل استطعنا المداومة على الانتظار على بابه صارّين على أسناننا دون مللٍ ولا كلل ولا ضجر؟ أم اعترانا اليأس؛ لأن الباب أُغلق مرةً في وجوهنا؟ وهل تخلَّينا عن الولاء لأن الحوادث في الكون لم تجرِ على هوانا ووَفْق نظامنا العَفِنِ؟ بيد أن الشاعر يقول:

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ثم إن مقودَ هذه السفن في يد الآخر، والبحر هنا بحرٌ آخر، والذي يحكم كلّ سفن هذا البحر حاكمٌ آخر، فلا شيء يجري هنا حسب مشيئتنا أو وفق أهوائنا، بل حسب مشيئته وإرادته هو، "مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ"، وهذا من الإرشادات النورانية لرسول الله ﷺ لنا حول التسليم المطلق للحقّ تبارك وتعالى، وهو أحد الأوراد التي حثّنا النبيّ على تكرارها صباح مساء، فلقد علّم النبيُّ ﷺ إحدى بناته فقال: "**قُولِي حِينَ تُصْبِحِينَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَإِنَّهُ مَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُصْبِحُ حُفِظَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُمْسِي حُفِظَ حَتَّى يُصْبِحَ**"(٢٨).

(٢٨) سنن أبي داود، الأدب، ١٠١.

إن كنا نريدُ أن نكون جندًا لله تعالى فإننا مضطرّون إلى "الفناء في الله" حسب التعبير الصوفي، وأن نعلم ونستيقن بأن كلّ الخير وكلّ المحاسن من الله تعالى، وكلّ ركودٍ وتوقُّفٍ وفشلٍ وزلّة في الخدمة الإسلامية إنما هي من عند أنفسنا، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/٧٩)، ويقول في موضع آخر: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ (سورة الشُّورَى: ٤٢/٣٠)، فالمصائب التي تصيبنا هي مما كسبت أيدينا ونتيجة أخطائنا وذنوبنا واسوداد قلوبنا وغلبة أنانيّتنا علينا؛ ولأن الله رحيم فإنه لا يؤاخذنا بكلّ ذنبٍ من ذنوبنا، بل ويعفو عن كثير، لذا علينا أن نكون مفعمين بمشاعر الحمد والمنة على عفوه وغفرانه، ندعو الله أن يغفر لنا ويتجاوز عن سيّئاتنا.

علينا أن نتّخِذَ من أنفُسِنا جندًا حقيقيّين لله تعالى، فإن فعلنا ذلك شعرْنا بالراحة والاطمئنان، وهناك من يعيش هذا بقلبه... أجل، هناك من المؤمنين من هو على شاكلة الشاعر الصوفي "يونس أمره" الذي هجر كلّ شيء؛ المالَ والبنين والعيالَ قائلًا لربه: "أُريدُكَ أنت، أنتَ فقط"، لقد استسلَموا لله بالكلّية حتى إنهم قالوا: "لا أطمعُ في جنّتك ولا حورِك ولا غِلمانك، بل أُريدك أنت وحدَك، وحدَكَ دون سِواك"... وأحسبُ أن جندَ الله سيحسّون زيادة على ما ذكرناه بحقيقة هذه المسألة التي طوّروها في أرواحهم وضمائرهم، فإذا ما رأَوها في مرآة أرواحهم أخذتهم الحيرةُ والإعجاب من روعة هذه الحقيقة العظيمة، واستمَرّوا في جنديتهم بكلّ نشوة وشوق.

الخشيةُ واستنهاض الهمّة

سؤال: لا أصوم ولا أقوم، ولا تدمع عيناي ولا يجيش قلبي، بل يسيطر حبُّ الظهور والرياء على خدمتي للدعوة... ومع ذلك فلا أستطيع ترك هذا الباب... فماذا أفعل؟

الجواب: هذه هي صرخةُ قلب متألِّمٍ يرى نفسه مُحَاطًا بالفراغ من جميع الجوانب، هذا ليس سؤالًا؛ بل هو واقعٌ نعيشه جميعًا، كان أحد العظماء كثيرًا ما يكرر الأبيات التالية:

ليس لي عِلْم ولا عمل نافع،

ولا قدرةَ لي على الطاعة والبر، ولا دافع

غريقٌ في العصيان... كثيرُ الآثام والشرور...

فماذا تكون -يا تُرى- حالي يوم الحشر والنشور؟!

إنّ البكاء والأنين عمليةُ تفريغٍ للمخلصين والصادقين الذين تلتهب أفئدتهم وتكتوي صدورهم على الدوام، فكأن أفئدتهم تحتوي على جمر من نار جهنم تكوي صدورهم فلا تجد مشاعرهم هذه طريقًا للخروج إلا بالدموع، لذا نرى أن رسول الله ﷺ يقيم توازنًا بين جهنم وبين الدموع.

فقد ورد في الحديث: "**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَخْرُجُ مِنْ عَينَيهِ دُمُوعٌ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ، مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، ثُمَّ تُصِيبُ شَيئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**"(٢٩).

أجل، فما يستطيع إطفاءَ نار جهنم شيءٌ سوى الدموع، وفي حديث آخر يعبّر عن هذا التوازن بقوله: "**عَينَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَينٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَينٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**"(٣٠)، وفي هذا الحديث -كما في أحاديث أخرى- ينظر الرسول ﷺ بالنظرة نفسها إلى مَن يجاهد في سبيل الله، وإلى مَن يجاهد نفسَهُ فيذرِف الدموعَ.

ويذكر القرآن الكريم أيضًا على سبيل العِظَةِ والعبرة حالَ الذين يخرّون سجَّدًا وبكيًّا، كما يدعو في آيات أخرى إلى تقليلِ الضحكِ وتكثير البكاءِ والشعور بالخذلان على ما وقع من الآثام، فالدموع أعدلُ شاهدٍ على رقّة الطبع وجمالِ الروح، وكلُّ قطرةٍ منها تعادلُ مياهَ الكوثر في الجنة، وجفافُ الدموع حالةٌ من البؤس التي يُرثى لها؛ ولذا كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله تعالى من العين التي لا تدمع كاستعاذتِه من الشيطان الرجيم، فيا ليت باستطاعة كلّ مؤمن مراقبة نفسه والاعتراف بهذه الحقيقة المُرّة قائلًا: ليس لي علم ولا عمل.. ولا قدرةَ لي على الطاعة والبرّ.. ولا دمعة في عيني.. ولا طاقة في قلبي.. ولا نور في إرادتي...

ألا هل يستطيعُ كلُّ مؤمنٍ أن يُقنِعَ نفسَه بأنه لا شيء، وأنه إن كان مظهرًا لبعض ألطاف الله تعالى فليس بسبب لياقته وأهليّته، بل على العكس تمامًا؛ لحاجته وافتقارِه، وإن فقرَه وإفلاسَه هما السبب في تنزّل رحمة الله

(٢٩) **سنن ابن ماجه**، الزهد، ١٩.

(٣٠) **سنن الترمذي**، فضائل الجهاد، ١٢.

تعالى واستجلابِ ألطافه، إن أول الطريق أمام الإنسان للتخلّص من عيوبه وتقصيراتـه هـو معرفة هذه العيـوب أولًا، ويجب أن يعقب هـذه المعرفةَ إحساسٌ بالندم والألم لكي يستطيـع الإنسان الخلاص منها.

إنّ مـن أهـمّ النِّعَـمِ التي أنعـم الله تعالى بها علـى المؤمنين حبّهم كلّ مـا يُنـاطُ بالإيمـان وكرهُهـم ونفورهم من كلّ مـا يُناطُ بالكفر والفسـوق والعصيان، ويسـتطيـع الإنسـان بهذا الحبّ وبذلك الكُرْهِ التسلّق إلى قِمَمِ الإنسـانية والإيمان، ويتخلّص من كلّ العوائق والمثبّطات وإلى هذا الأمر تُشِـيرُ الآية الكريمة: ﴿**وَلَكِـنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَـانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُـوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (سورة الْحُجُرَاتِ: ٤٩/٧-٨)، إذًا فإنّ الله حبّب الإيمان وزيّنه في قلوب المؤمنين، وعندما ينظر المؤمنون من عدسـة هذا الإيمان فكأنهـم يـرون الجنة وحورهـا، والأكثر من ذلك أنهم يَـرَون جمالَ الحقّ سبحانه وتعالى.

إن كان المقصود من هذه الآية الصحابة الكرام، فقد كان هذا السلوك في الحقيقة هو طبعهم العام الذي لا يتغيّر أبدًا؛ إذ كانوا يحبّون إلى درجة الوجـد والعشـق كلّ المسـائل المتعلقـة بالإيمان وكلّ الأحـكام المتعلقة بالعبـادات، وينفـرون ويكرهون الكفر وكلّ ما يؤدّي إليه، وبفضل إيمانهم هذا كانوا وهم في الدنيا يشـعرون وكأنهم يعيشـون في الجنة وفي جوّها؛ ولذا فإن العودة إلى الكفر مرة أخرى يعني بالنسـبة لهم ترجيح الاحتراق بلهيـب جهنـم على الترفّـه بنعيم الجنة، لذا فقد وصلوا إلى مرتبة الرشـد، وكان هذا فضلًا كبيرًا من الله ونعمة.

لقد ذكرنا آنفًا أن الإنسان لا يخطو الخطوة الأولى على طريق التخلّصِ من عثراته وتقصيره إلا إذا أحسَّ وشعر بها، أما إن رأى نفسَه كاملًا، وأنّ كلّ ما يعمله من أجل الإسلام كاملًا لا نقصَ فيه ولا خلل؛ فاعلموا أنه يغرق بشكلٍ تدريجيّ، وينقل الإمام القسطلاني أن أربعة عشر من الصحابة كانوا يرتجفون خوفًا من النفاق أو أن يكونوا مسجّلين في قائمة المنافقين، وهذا الخوف والقلق علامةٌ أخرى على المدى الرفيع الذي بلغه إيمانهم، وكان عمر بن الخطاب وأم المؤمنين عائشة ﵄ من بين هؤلاء الصحابة الذين يعتلون هذه القِمَمِ.

كان عمر ﵁ من المبشّرين بالجنة، ولكن هذا الرجل العظيم لم يكن مع هذا مطمئنًّا تمام الاطمئنان، مع أنه شرفَ بقول الرسول ﷺ: "**لَو كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ**"[٣١]، ورغم ذلك كان يُناشِدُ حذيفةَ اللهَ مستفهمًا عن نفسه هل هو منهم؟! فعن زيدِ بن وهبٍ ﵁ قال: مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيهِ حُذَيفَةُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَمِنَ الْقَوْمِ هُوَ؟ قَالَ: نَعَم، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: بِاللهِ، مِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: لَا، وَلَنْ أُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا بَعْدَكَ[٣٢].

أما أمّنا عائشة ﵂ فقد دخلت بيتَ النبوة وهي في زهرة عمرها، وما حلّ الذنب ضيفًا على روحها مطلقًا، ولم تعرف رجلًا غير الرسول ﷺ ولم يدُرْ بخيالها رجلٌ غيره، إنّه مظهرُ الكمال والتجلّيات الإلهية، فلم تكن ترى فيه شيئًا غير ذلك، فلقد كانت تشاهد الحقّ سبحانه دائمًا في مرآته المحمّدية، فَتَطَوّفَ بخيالها في التلال الأخرويّة؛ فتستريح عينُها ويطمئنّ قلبها.

(٣١) **سنن الترمذي**، المناقب، ٥١.

(٣٢) ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٤٨١/٧.

كان الوحي يتنزّل على بيتها زخًّا زخًّا، ولم تكن السحائب المحمّلة بالإلهامات تنقطع عن بيتها قطّ. نعم، إنها زوجة الحبيب المحبوب الذي يستجدي منه يوسُفُ الحُسنَ والجمال، وقد أنشد الشاعر على لسانها قائلًا:

فلو سمعوا في مصر أوصافَ خدّه
لما بذلوا في سومِ يوسفَ من نقدِ
لواحي زُليخا لو رأين جَبِينَه
لآثرنَ بالقطعِ القلوبَ على الأيدِي

أما عبادتها وحساسيّتها فيها فهو من الوضوحِ بمكانٍ، فلم تتخلَّفْ عن صلاةٍ واحدةٍ أو صوم يومٍ واحدٍ خارج الأوقات التي تُعذر فيها المرأة، كما أنها حازت مرتبةَ أحبِّ الناس إلى الرسول ﷺ، فعن عمرِو بن العاصِ رضي الله عنه أنه سأل النبيّ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: "**عَائِشَةُ**" قال: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: "**أَبُوهَا**"(٣٣).

نستطيع ذكرَ المزيد من هذه الأمور، والآن ضعوا كلّ ما قلناه وما يمكن أن يُقال نُصبَ أعيُنِكم لتفهموا مدى عظمتِها ثم انظروا إليها وهي تجهش بالبكاء فيسألها الرسول ﷺ عن سبب بكائها كما روى الحسن عنها رضي الله عنها.

أَنَّهَا ذَكَرَتِ النَّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**مَا يُبْكِيكِ؟**" قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَومَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ**

(٣٣) صحيح البخاري، المغازي، ٦٤.

مِيزَانُهُ أَو يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (سورة الْحَاقَّة: ١٩/٦٩) **حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَينَ ظَهْرَي جَهَنَّمَ"**[٣٤].

وهكذا فإن أمّنا عائشة ﵂ -التي نأمل أن تشفع لنا- تبدي كلّ هذه الخشية وكلّ هذا القلق؛ خوفًا من الوقوع في النفاق، فليس هناك عرفان أكبر من معرفة الإنسان لقصوره، وكلّ مَن يعترف بأخطائه وبقصوره يستحقّ التهنئة؛ لأنه من الواضح أنه خطا الخطوةَ الأولى والمهمة على طريق إنقاذِ نفسِهِ وتخليصِها من عيوبِها.

إنّ الصيام والقيامَ والعاطفةَ الجيّاشة والدموعَ هي الأسسُ التي تقوم عليها الحياة المعنوية والروحية، ولا شكّ أن هناك أمورًا تجب إضافتها أيضًا كالتضحية بالمال وفريضة الجهاد التي هي من أعظم الفرائض، فهذه أركان السقف المعنوي التي لا يمكن الاستغناء عنها.

فإن مَن يُهمِلُ رُكنًا من هذه الأركان كمَن يؤدّي صلاةً ينسى فيها ركنًا من أركانها؛ لذا فلا يكون على تواصلٍ مع رحمة الله تعالى، فإن أردنا أن نضبطَ أنفسنا على استقبال موجات التردّد من دائرة الرحمة الإلهيّة، وابتغينا التواصلَ التامّ معها؛ فلنُطبِّقْ جميعَ أوامر الله سواء أكانت متعلقة بالحياة الفردية أو العائلية أو الاجتماعية، دون تهاونٍ أو تقصير، وهذا يشبه النتوءاتِ الموجودةَ على المفتاح، فإن حدث خللٌ في نتوءٍ واحدٍ لم تستطِع فتحَ الباب وإن كانت النّتُوءَاتِ الأخرى متطابقة؛ لذا فعلى كلّ مكلّف أن يؤدّيَ ما عليه في إطار الأسباب دون تقصيرٍ وأن يهيّئ لكلّ قفلٍ مفتاحَهُ المناسب.

---

(٣٤) **سنن أبي داود**، السنة، ٢٨.

هذا هو معنى العبودية في الحقيقة. أجل، فالعبوديّة هي إصرارٌ ووقوفٌ وانتظارٌ أمام الباب، على العبد أن يلتزِمَ البابَ منتظِرًا فتحه ولا يُغادره وإن أخذ هذا الانتظار منه العمرَ كلّه، وأن يحتفظ بنفس شوق اليوم الأول دون أن يدعَ للعادة والألفة فرصةً لتقليل شوقه وَوَجْدِهِ، ودون أن تتحوّل عباداته إلى حركاتٍ رياضيّةٍ لا روحَ فيها، هذه هي العبودية الحقّة... أن تتسابق مع الزمن وأنت محمّلٌ بالشوق وبالخوف وبالرجاء كما كنتَ في اليوم الأول، والقرآن الكريم يعلمنا هذا فيقول: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ (سورة الْحَدِيدِ: ١٦/٥٧).

كان الصحابة ﷺ هم أول مَن خوطِبوا بهذه الآية، فإذا وضَعْنا في اعتبارنا الجوَّ الذي كانوا يعيشون فيه والذي كان يساعدهم على تجديد إيمانهم وكأن مائدةً معنويّةً تنزل عليهم من السماء كلّ يوم، علاوةً على الشدّ المعنوي والتغيُّر الذي يُحدثه هذا الأمرُ في الأرواح؛ لأدركْنا وجهَ مخاطبةِ الآية لنا بهذا الخطاب؛ ذلك لأن الظروف التي يمكن أن تسوقهم إلى الألفة لم تكن موجودةً آنذاك، فالآيات كانت تتنزّل تترى، وكانوا يعيشون الإسلام بنضارته وأصالته، فمثلًا حينما سَمِعُوا يومًا ما صوتَ الأذان لأول مرة هرعوا إلى المسجد استجابة لأنفاسه المثيرة للانفعال، وفي يوم آخر يعلمهم الرسول ﷺ تسبيحًا ودعاءً آخر، وهكذا تبقى مشاعرهم نضرةً ومتجدّدةً على الدوام.

ومع كلّ هذا كانت هذه الآية تُحذِّرهم من قسوة القلب وتدعوهم إلى جَيَشان القلب وسَكْبِ العبرات، فإن لم تكن مشاعِرُنا الداخلية وهمومنا ودموعُنا على المستوى الذي يتطلّبه القرآن منّا وعلى الكيفية التي يرجوها

فعلينا أن نلوم أنفُسَنا في هذا العهد الذي أُهْمِلَ فيه هذا الأمر ولم يعدْ هناك مَن يرعاه، فإن لم نسارع للخدمة من أجل إعلاء الدين الإسلامي المبين أو لا نستطيع ذلك، وإذا لم يفارقْ النومُ أعينَنا جرّاءَ انسحاقِنَا تحتَ صولة الكفرِ وغَلَبَةِ الباطل على الحقّ ولا نحسّ بهمٍّ عميقٍ؛ فليس هناك من يجب إلقاء اللوم عليه إلا أنفسنا؛ لذا يجب على كلٍّ منّا أن يعيب نفسه ويتّهمها.

نحن عبيدُ هذا الباب... باب خدمة دين الله... عبيدٌ لا نريد الانعتاقَ من رِقِّ هذه العبودية، ولا يمكن أن نفارق هذا الباب أبدًا، ثم أيوجد هناك بابٌ آخر نهرع إليه سوى هذا الباب؟! سنظل مرابطين على عتبة هذا الباب بكلّ عناد وإصرار ولن نولّي وجوهنا عنه أبدًا.

هناك قصة رمزية تقول: إن أحد أولياء الله تعالى عبدَ ربَّه سنوات طوالًا، وتربّى على يديه الكثير من المريدين، وكان كلّ مريد منهم يترقّى في المراتب حتى يشاهدَ اللوح المحفوظ ويقرأَه، والغريب أن كلّ مريد كان يقرأ في اللوح المحفوظ أن شيخَه شقيٌّ، فبدأ المريدون ينفضّون عنه ويتركونه ولم يبق إلا مريد واحد، فسأله شيخه "لماذا تركَ أصدقاؤك مجلسَنا ولم يعودوا يأتون إلينا؟" فأجابه المريد على خجلٍ: "يا سيدي! لقد قرؤوا في اللوح المحفوظ أنك شقيٌّ، لذا تركوا حلقة الدراسة"، فأجابه الشيخ وعلى شفتيه ابتسامة مُرّة: "يا بني، لقد رأيتُ هذا قبل أن يروه بأربعين عامًا، ولكن قل لي يا بني أهناك باب آخر أستطيع أن أطرقه؟" وعلى أثر كلام الشيخ هذا اهتزت السماء وتغيّر اللوح المحفوظ، وكُتب فيه من السعداء.

ولقد أخصبَ الصحابةُ تربةَ العهود والأجيال اللاحقة، فنشأ الآلاف من أحباء الله تعالى وأوليائه، ولم يترك أحد منهم هذا الباب، ومن هؤلاء إبراهيم بن أدهم ﷺ، إذ يقول:

إلهي عبدك العاصي أتاك

مقرًّا بالذنوب وقد دعاك

فإن تغفر فأنت أهلٌ لذاك

وإن تطرد فمن يرحم سواك

كانت الخشية من الرياء أكثر ما يخشاه كبار المؤمنين، ولا شكَّ أن مفهومهم للرياء يختلف عن مفهومنا كثيرًا، ومع ذلك كانت هذه الخشية موجودة لديهم، وكانت هناك طرق معينة للتخلّص منه، أوّلها العلم بأن الله تعالى مطلع على كلّ أفعالنا، وعلى كلّ ما يدورُ بخلدنا أو تُخفيه صدورُنا، ثُمّ عدمُ نسيان هذا أو الغفلة عنه، وأن نكيّف سلوكنا على ضوئه، وألا نبتعد عن الأذكار والأوراد ومطالعة الكتب التي تربي الخشية في قلوبنا، وننظر إليها كأحد الحلول التي توصلنا إلى الهدف المنشود.

وأحيل هذا الأمر إلى الجواب المفصل الذي أجبت عليه في موضع آخر.

التهيئة الفكريّة والتحضير القلبيّ للصلاة

سؤال: ما الذي ينبغي على الإنسان من تهيئةٍ فكريّةٍ عند المثول في حضرة مولاه ﷻ؟ وما الذي يتوجب عليه وهو في هذه الحضرة الإلهية؟

الجواب: أعتقد أن المقصود بالدخول في حضرة الله هنا ذلك الدخول الذي تستلزمه جميع العبادات وخاصة الصلاة، فلو كان هذا هو المقصود في السؤال فالصلاة نفسها دخول ومثول أمام الله، ولقد شُرّف النبي ﷺ في رحلة المعراج بأعظم المنازل وأبهاها بمثوله أمام الله ﷻ، ثم انعكست تلك الحالة العظيمة على منشور ماهيّتنا وتشكّلت في صورة الصلاة.

أجل، إن الصلاة هي أجلّ هديّة جاء بها نبينا ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج، فهي معراج بالنسبة لنا في صورة مُصغّرة، وحتى نشعر بمتعة هذا المعراج ونتشبّع منه أسبغ الله علينا رحمته وأخذنا في حضرته بما فرضه علينا من صلوات خمس في اليوم والليلة، فحظينا بشرف مخاطبته والعروجِ الروحيّ إليه ﷻ.

في رحلة الإسراء والمعراج عرَج النبي ﷺ إلى السماوات العلى، وتحدّث مع ربه مباشرة، ورآه -كما جاء في بعض الروايات- بعيني رأسه على قدر إدراكه دون واسطة أو حجاب أيضًا، ثم جاء لنا بأعظم هدية من الله تعالى وهي الصلاة، وعلى ذلك فهاتان الحادثتان مرتبطتان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا يتعذَّرُ معه التفكير في الصلاة بعيدًا عن المعراج.

أجل، إن الصلاة معراج، بل إنها ثمرة تلك الرحلة المباركة؛ رحلة الإسراء والمعراج.

إن التجار يسافرون ويتجوّلون هنا وهناك، ويعقدون الصفقات المتنوّعة، وعند عودتهم لا يرجعون صفرَ اليدين، وهكذا فعل رسولنا ﷺ، دخل في حضرة مولاه ﷻ لعقدِ صفقةٍ مقدّسةٍ خالدة، وكأن دعوة الحق تعالى له بالمثول أمامه هي بمثابة صفقةٍ رابحةٍ.

وفي هذه الصفقة لم يطلب منا ربنا تبارك وتعالى إلا العبودية والانقياد له، وفي مقابل ذلك تفضّل علينا بالصلاة، وجعلها معراجًا إليه كمعراج سيدنا رسول الله ﷺ، فإن سِرْنا على منهَجِهِ أخذَ بأيدينا وما ضَيَّعَنَا.

إننا في الحقيقة نؤمن به دون أن نراه، وفي مقابل ذلك تقرّ عيوننا برؤيته في الصلاة بمعنى ما.

أجل، إن هناك صفقة، لكنها بعيدة كلّ البعد عن أي نوع من المساومة؛ لأن كل ما وهبه لنا ربنا فضل وإحسان منه تعالى.

إن الله ﷻ أخذ نبيَّنا ﷺ إلى حضرته إحسانًا منه تعالى، وجعله يتحدّثُ باسمنا، وألقى التحيّة عليه، وأرسل لنا السلام عن طريقه، وكما استفاد سيدنا محمد ﷺ من مثوله بين يدي ربّه استفدنا نحن أيضًا، وبناءً على ذلك أصبحت الصلاة ترمز إلى مثل هذا المثول والقرب من الله تعالى.

على الإنسان أن يُقبل على الصلاة وهو مشحون بهذه الفكرة وذلك المفهوم، ومن الأهمية بمكان التهيؤ لهذا الأمر القدسيّ.

قبل كل شيء يلزم الوضوء عند الاستعداد للصلاة، وأحيانًا يحلّ الغُسْلُ محل الوضوء في بعض الحالات، فكلّما غسَل الإنسان عضوًا من أعضاء الوضوء ارتقى إلى درجة معينة، ونَعِمَ بالنور والحيوية، ولا بدّ أن تُراعى المسافةُ بين غسل كلّ عضوٍ من أعضاء الوضوء؛ حتى ينعم كلّ عضوٍ بالنور والحيوية.

والإنسان يشحذُ روحَه بما يردده من أدعية أثناء الوضوء، وبالمناسبة ثَمّة أدعية أخرى يردّدها الإنسان في طريقه إلى المسجد، يشعر الإنسان بها نتيجةَ قُرْبِهِ شيئًا فشيئًا إلى حضرة مولاه ﷻ.

أجل، إن الفرد بترديده للأدعية كأنه يرتقي في معراج إلى السماء، وهذا باب مفتوح للكثيرين وإن لم يكن للجميع.

كان أمثال زين العابدين علي بن الحسين ﷺ عندما يحين وقت الصلاة يصفرّ وجهه ويذبل، وكأنه سيقع مغشيًّا عليه[٣٥].

لأن الصلاة تعني المثول بين يدي الحضرة الإلهية، وكأن الإنسان يقابل الحقّ تعالى وجهًا لوجه.

لنفرض مثلًا أن هناك إنسانًا قُدِّمَ له عرضٌ بالحديث أمام نخبة من الناس حول مسألة تهمُّه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سيقف فيها هذا الشخص أمام تيكَ النخبة عالية المستوى من شتّى طبقات المجتمع، عند ذلك ترى هذا الشخص وقد اصفرّ وجهه، وشحب لونه، وتلعثم

(٣٥) انظر: ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣٧٨/٤١.

لسانه عند الإقدام على المثول أمام هذه النخبة، فكذلك العبد في صلاته؛ لا بدّ أن يكون انفعاله واضطرابه أكثر ألف مرة من حال ذلك الشخص، ولا بدّ أن يكون على وعي بما يفعله؛ لأن المجلس الذي سيتحدث فيه أبهى وأجلّ من المجلس الذي ضربْنا به المثل آنفًا، بل إنّ البون شاسعٌ ولا سبيل إلى المقارنة بين المجلسين.

أجل، إن هذا الإنسان سيدخل في حضرة مولاه؛ الذي من صفاته أنه "كلّ يوم هو في شأن".

ومن ثم على الإنسان أن يكون على حذرٍ من المسكّنات المهدّئة لانفعاله عند انتقاله بالإلف من صلاة إلى أخرى، فليحذر وليكن من المرابطين الذين ينتظرون الصلاة بعد الصلاة كما أرشدنا إلى ذلك النبيُّ ﷺ(٣٦).

وعلينا ألا ننسى أن سيدنا موسى عليه السلام وهو نبيٌّ من أولي العزم كان يحمل في قلبه مهابةً عظيمةً للحقّ ﷻ، ورغم ذلك قام باستعداد داخليّ قبل المثول بين يدي فرعون، ونَطَقَ وجدانُه سائلًا ربه: ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**﴾ (سورة طٰهٰ: ٢٠/٢٥)، وكان يدعو ربَّهُ ويتضرّع إليه أن يرزقه قوّةَ التحمّل والمثابرة.

وهكذا فإن وضوء المؤمن وتوجهه إلى المسجد يشبه الاستعداد الأَوَّلِيَّ للدخول على حضرة الله ﷻ، إن العبد بذلك يستحضرُ النبي ﷺ في خياله وكأنه بعد قليل سيقتدي به جماعة في صلاته، ثم يقف في صلاته وهو محمّل بهذا الشعور وذلك الاشتياق، ويتلو ما تيسر من القرآن الكريم في صلاته وكأنه يقرؤه على الله ﷻ، ربما تزعجه أحيانًا

(٣٦) صحيح مسلم، الطهارة، ٤١.

أفكار غير مناسبة حاول دفعها عنه خارج المسجد، لكنه لا يستسلم قطعًا لمثل هؤلاء الأشقياء وقطّاع الطرق، ويستمر في طريقه، وعندما يشعر ألا طاقة له على الوقوف يحني ظهره أمام عظمة الله ويركع، وعند قيامه من الركوع يحاول في وجدانه أن يتلاقى نظره مع نظر الرحمة الإلهية، يحاول ويحاول حتى يشعر وكأن هذا الأمر حدث بالفعل فتنحلّ رابطة ركبتيه من الحيرة، فيهرع إلى السجود؛ وهو أقصى نقطة لقرب العبد من مولاه ﷻ فـ"**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**"(٣٧)، وبينما الأمم تجثو وتسجد مكرهةً في الآخرة يقوم العبد بتلك الحالة الاضطرارية بشكل اختياري في الدنيا، فيجثو على ركبتيه ويلوذ بربه ويسأله ويتضرّع إليه حتى يمتلئ قلبه ويفيض بأنوار الحضرة الإلهية، وعندما يفعل العبد ذلك في الدنيا ينجو إن شاء الله من أهوال يوم القيامة، فالله لا يجمع بين خوفين ولا بين أمنين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: "**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوفَينِ وَأَمنَينِ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَومَ الْقِيَامَةِ وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يومَ القيامة**"(٣٨).

وثمّة طُرُقٌ لبلوغ هذا المستوى، يمكننا أن نوردَ بعضَها:

أولًا: دوام التفكّر في الآفاق والأنفس، ومواصلة التفكّر في الآيات التكوينيّة، وإجالةُ مَكّوكِ التفكُّر في الآفاق والأنفس.

أجل، إن التفكر يذهب بالإنسان إلى آفاق السماء المزدانة بالنجوم تارةً، وينفذُ به إلى أعماق ماهيّته تارةً أخرى؛ حتى يُجرّده عن صِفات العُمي والصُّم؛ الذين أَهملوا قلوبَهم وغضّوا الطرف عن لطائفهم الربانية،

(٣٧) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥.
(٣٨) صحيح ابن حبان، ٤٠٦/٢

ومن ثم عاشوا طوال حياتهم كالصمّ والبكم والعمي يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ١٧٩/٧).

إن الإنسان بالتفكر يمكنه أن يكتسِبَ من عبادةِ ساعة ثوابَ عبادةِ ألفِ سنة، فعَنِ الْحَسَنِ قَالَ ﷺ: "تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيرٌ مِنْ قِيَامِ لَيلَةٍ"(٣٩) وهكذا تَنْقُلُ الصلاةُ الإنسانَ بهذا الشعور من دائرة الأسماء إلى دائرة الصفات، ومنها إلى دائرة الذات، وكأنها تفتح للإنسان شراعًا إلى الخلود.

ثانيًا: رابطة الموت؛ يعني دوام التفكّر في الموت، وعلى الإنسان عندما يقوم بذلك ألا يجنح إلى الاحتماليات والفرضيات المآلية، بل عليه أن يُفكّر في هذه المسألة وكأن الموت قبالته تمامًا، ويؤكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة فيقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥/٣). ويقول بعض المفسّرين في معنى هذه الآية: (كلّ نفسٍ ستذوق الموت يومًا ما)، وهذا برأيي معنى قاصر جدًّا، أما الفهم الأقرب للصواب -والله أعلم- فهو أن كلّ نفسٍ تذوق الموتَ كلَّ لحظةٍ بشعورٍ منها أو بغيرِ شعور.

ومن المناسب أن نوضّح هذه المسألة باختصار:

إننا نموت ونحيا كلَّ لحظة؛ لأننا عبارة عن مرايا تجليات الله تعالى التي تأتي سريعةً ومتتابعةً لدرجة أننا نعتبر أنفسنا نحيا حياةً دائمةً ليس فيها انقطاع، وهذا يشبه تمامًا الصور التي تتحرّك على شريط السينما، فهي تدور وتتحرّك بسرعة لدرجة أننا نشعر وكأنها تتحرّك على الدوام.

(٣٩) ابن أبي شيبة: **المصنف**، ١٩٠/٧.

في الحقيقة إننا نموت ونحيا كلَّ لحظةٍ -وأقصد باللحظة أقلَّ شريحةٍ من الزمن- في ظلّ التجلّيات التي تتأتّى من هذا الفيض الأقدس، فنحن أمام وجودٍ وعدمٍ دائمين، وكأننا في هذه الحالة نجلس فوق عقرب الثواني أو عقرب الدقائق وننتظر كل لحظة أن يرمي بنا إلى الجهة الأخرى مع أول حركة له.

والواقع أن هذه الحالة نتيجةٌ لا مفرّ منها، إذًا فعلينا أن ننظر إلى الموت على أنه حادثةٌ تقع كلّ لحظةٍ وليس حادثةً ستقع في المستقبل، وهذا التفسير يجعلنا على أهبة الاستعداد الدائم للآخرة، وأن نصلي صلاتَنا وكأنها آخرُ صلاةٍ لنا في هذه الدنيا.

ثالثًا: وسبيل آخر وهو أداء الصلاة في جماعةٍ مع المُفْعَمِين بالطمأنينة؛ لأن الصلاة إلى جانب مَن تهبّ النسمات المحمّديّة على أنفاسه حين سجوده؛ لهي وسيلةٌ عظيمةٌ للدخول والانضمامِ إلى جَوِّهِ التعبّديّ، ولذا أمرَنا رسول الله ﷺ بالصلاة جماعةً وأوصانا بها؛ لأن شحنة الفرد الداخلية قد لا تكفي لإدراك الطمأنينة على الدوام، أما الجماعة فهي تُغْدِقُ على أفرادها دعمَها المعنويَّ بكلّ ما فيه من طمأنينةٍ وسكينة.

فإذا ما وقفَ الشخصُ في الصلاة بجوار إنسان يسكب العبرات لانَ قلبُه، بل وأجهش بالبكاء أحيانًا، وقد شَهِدَ معظمكم مثل هذا الموقف.

فعندَ الروضة المطهرة والكعبة المشرفة تجدُ مَن يبثُّ فيك الخشوع ويَشْدَهُكَ ويأسرُ قلبك بركوعه وسجوده وعبادته الخالصة.

وهذا ما نفهمه مما تشير إليه الآية الكريمة ﴿**وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٤٣)، والحديث الشريف "**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**"[٤٠]، ومن ثم

(٤٠) **صحيح البخاري**، الأدب، ١٠٤؛ **صحيح مسلم**، البر، ١٦٥.

علينا أن نحبّ هؤلاء العبّاد، ونسعى للصلاة إلى جانبهم، حتى ننعم بهذا المناخ الذي يبعث على السكينة والطمأنينة.

عن أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ ﷺ: "كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ قَالَتْ: مَا كَانَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا"(٤١).

وهكذا علينا أن نقتدي بصلاة رسول الله ﷺ اقتداءً تامًا، وبنفسِ الوقتِ أن نصلّي مع أولياء الله، وندرك ماهيّة عبوديّتهم في قلوبنا.

رابعًا: علينا أن نُصلح صلاتَنا قدرَ المستطاع، بأن نحترم إرادتنا بوضعِها في مكانها الصحيح، ونقوم بما يليقُ بذي الإرادة. أجل، علينا أن نُنَشِّط إرادتنا لنسيرَ بها في الطريق الذي يؤدي بنا إلى الطمأنينة.

ليست الصلاة بالأمر الهيّن حتى نستهين بها كباقي الأعمال الدنيويّة، بل هي أقدسُ الأعمال والنشاطات، فعلينا أن نأخذها على محمل الجدّ ونؤدّيها بحقّها، فلا نهملها أو نتسرّع في أدائها فننقرَها كَنَقْرِ الديك حفاظًا منا على أعمالنا الأخرى، بل إن لزم الأمرُ علينا أن نضحّي بأيّ عملٍ في سبيلها.

ولا بدّ ألا ننسى أهمّيّة الصلاة في جماعة، فالجماعةُ عند الحنابلة واجبةٌ وجوبَ عينٍ استنباطًا من الآية الكريمة التي تقول: ﴿**وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٤٣)، وغيرِها من الأحاديث، والشافعيّة جعلوها

(٤١) **صحيح البخاري**، المناقب، ٢٤؛ **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ١٢٥.

على الأصحّ المنصوصِ فرضَ كفاية، ورغم أنّ بعضَ الأحناف والمالكيّة يقولون بوجوبها إلا أنّ المعتمد في كِلا المذهبين كونُها سنّةً مؤكَّدة[٤٢].

وأخيـرًا أقول إن الصلاة لو أُدِّيـت بطمأنينة مـع مراعاة جميـع أركانها أكسـبت المؤمنَ حظًّا ومتعةً وطمأنينةً لا يجدها في غيرها، ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (سورة الرَّعْدِ: ٢٨/١٣)، لا يتوفّر له في أيّ عملٍ آخر، يكفي أن يشعر الإنسان بهذا الحظّ والشرف وأن يدرك قدر الصلاة وقيمتها.

(٤٢) انظر: الزحيلي: **الفقه الإسلامي وأدلّته**، ٣١٧/٢.

فِتَنُ آخِرِ الزمان: الداءُ والدواءُ

سـؤال: كيـف يكون حالنـا إزاء فتن آخر الزمـان؟ وكيف نحمي أنفسنا؟

الجـواب: إن القرن التاسـع عشـر هو ذلك العصر الـذي اُحْتُلَّت فيه عـدة دول إسـلامية وسُـحقت تحت هيمنـة الأفـكار والنظريـات الباطلة القادمة من الغرب.

ولقـد غـادر المنافقون والظالمـون الأوروبيـون البلادَ التـي احتلّوها مغادرةً ماديّةً بعد أن نثروا فيها البذور المسـمومة لكلّ أراجيفهم الفكرية، ومـن سـوءِ طالِعِنـا أننا نعيش في عصـر ترعرعَتْ فيه هـذه البذور التي لا أصـلَ لهـا فـي صدورنا؛ فأوقَعَتْنـا في حالةٍ يُرثـى لها من الناحيـة الفكرية والأخلاقية، ولقد أحدثت شـرارات الفتن -التي انتقلت عنهم- نارًا هائلةً أحرقت حياة المجتمـع وأَتَتْ على الأخضر واليابس، وهذه الفتن بالمئات! وها هو جيلنا الحالي قد بدأ يسأل عن موقفه إزاء هذه الفتن، ولقد أسعدنا وأثلجَ صدورَنا البدءُ في طرح هذا السؤال، وفي رأيي أن هذا ينمّ عن مدى ما وصل إليه شبابنا من وعي.

إن الرعاعَ الذين أنكروا وجود الله ووحدانيته قد أطلقوا سهامهم أولًا وأعملوها في عقيدة التوحيد؛ رغبةً في تلويث العقول حيال هذا الأمر، ونجحوا في ذلك فترةً من الزمن، ولقد عاصر هذا الشعب تلك الفترات التي جعلت إنكارَ الله من قبيل الحداثة والتحضُّر، فاسْتُخِفّ بالدين كلّيّة في ذلك العصر، وامْتُهِنَت المفاهيم التي تُقدّس الدين.

لقد حاول هؤلاء جاهدين أن يمحوا من أرواح الأمة تبعيّتها للقرآن الكريم بشكلٍ ممنهج، وإحلال الكتب الأخرى بدلًا عنه، وسعوا إلى انتزاع الاسم المبارك للنبي ﷺ الذي يتربّع على عرشِ القلوب من صدور المؤمنين وجعْلِ غيره مكانه، بل واخترعوا أماكن أخرى بديلةً في الحج عن الكعبة، وهكذا عملوا على إبعاد الأجيال عن جذورِها الروحيّة وجوهرها بالدفع بها إلى مثل هذه الفوضى الفكرية العارمة، ورغم أن هذه المحاولات لم تؤثّر تأثيرًا كبيرًا في عموم الشعب إلّا أن أكثر الجيل الجديد الغرّ قد انجرف وراء هذا التيار نظرًا لضعفِ إرادته وخَوَر قوته على مواجهة مثل هذه المؤامرات.

وكم من أرواح جرحى! وعقول عليلة! وقلوب حالكة الظلام اليوم بسبب هذه الفتن!... ولا حدّ ولا حصرَ لكمّيّة الارتداد عن الدين، ولقد تفشَّت ظاهرةٌ جنونيّة لم نسمع بها أو نشاهدها في أيِّ عصرٍ مضى؛ فلقد تجرّدَ البعضُ عن أسمائهم رغم أنها أسماء لأشخاصٍ نضحّي بأنفسنا من أجلهم، وتحوّلوا إلى أعداء لمحتوى ومعنى الأسماء التي كانوا يحملونها حتى أضحَوا أبشعَ وأسوأَ من فرعون نفسه.

وفي هذه الفترة أصبحت الدنيا فقط هي المطمع والمبتغى، وحُبِّب إلى الناس كل ما يثير شهواتهم وأطماعهم المادية، وأصبحوا يشترون

بالجنة الدنيا المؤقتة الفانية؛ لأن عموم الأفكار المبتدعة كانت تدور في هذا المحور، فاندفع الجميع بعلمٍ أو بدون علم إلى هذا السباق، فمن آثروا الآخرة وسلكوا سبيلها امتُهِنُوا، أما غيرهم فلاقى كل تعظيم وتقدير، مما زادَ مِن عزوف الناس عن الدين.

فاضطر جيلنا أن يجتاز هذه المرحلة التي أصبحت فيها المرأة نهبًا للناظرين، وشاع فيها الخمر والقمار والرشوة والاحتكار والربا... إلخ. أجل، كل هذا كان فخًّا ومصيدَةً للآخرين، فكان لا بدّ لجيلِنا أن يعبر هذا الطريق الشائك، ولكن الواحد منهم لو نجح في تجاوز عقبةٍ لم يستطع أن يتجاوز أخرى غالبًا، أما المصطفون الذين نجحوا في عبور هذا الطريق إلى الجهة المقابلة فهم أقل من المتوقع، بل هم أقلّ القليل.

إن السبيلَ الوحيدَ لخروجِ الفردِ من البئر والنجاة منها هو الفوّهة نفسها التي تردّى من خلالها، وممن استوعبوا هذه الحقيقة مبكّرًا المرشدُ الكبير في هذا العصر الأستاذ النُّورسي، إذ رأى أنّ من الحكمة أن يبدأ الإصلاح من المواضع التي خرّبها السابقون.

لقد أراد هؤلاء أن يُضرموا نار الفتنة، غير أن الله أبى إلّا أن يطفئ هذه النار التي أوقدوها: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يُوسُف: ٢١/١٢)، وسَدَّ المنفذ الذي انبعثت منه نيران الفتنة بعدَ أن كادت تصيب العقيدة.

أما بالنسبة للفتن المتعلّقة بالأعمال، والشرارات المتعلقة بالذنوب؛ فسنحاول إطفاء نيرانها أيضًا -بمشيئة الله تعالى- بماء الكوثر الذي استخلصناه من دروس وعبر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما قرأناه من مؤلفات، غير أننا في هذا الصدد بحاجة ماسة إلى دعم كلِّ

مؤمـن؛ لأن الفتن عندما تهاجـمُ فإنّها تداهمنا كجيش العدوّ العرمرم، مما يُصعِّبُ علينا مواجهتها -بل يسـتحيل- أفرادًا، فعلينا ألا ننسـى أنَّ "**يدَ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ**"(٤٣).

(٤٣) **سنن الترمذي**، الفتن، ٧.

لن نخرج عن مجتمعنا

سـؤال: كثيرٌ مـن الذنوب التـي ارتكبناها في الماضـي لا تفارقُ أذهانَنا حتى إن هناك ما يحضّ على ارتكابها بعينها كالمناظرِ السـيئة التي امتلأت بها شـوارعنا، فأصبحنا لا ندري ماذا نفعل إلّا أن ندعو الله تبارك وتعالى أن يكتبنا في عِداد الشهداء ونجد سبيلًا للتطهّر من الذنوب والآثام.

الجـواب: هذا ليس سـؤالًا، بـل طلبًا نابعًـا من قلبٍ مُخْلِـصٍ... إنّه تعبيرٌ عن همومِ قلب يحثّ الخطى جاهدًا للدنو من مرتبة الصحابة، ولقد اتخذْنا نحنُ قرارًا بالبقاء داخل هذا المجتمـع وإن فاضت أسواقه وطُرُقاتُهُ بالذنوب والآثام.

وأستميحكم عذرًا هنا أن أتكلم في هذا الصدد مرة أخرى عن شعورٍ لطالما حدثتكم عنه في مناسبات عدة.

لما كتب الله لي زيارة نبيّه ﷺ لأوّل مرّة وذهبتُ إلى الروضة المطهّرة كـدْتُ أُصـابُ بنوبة جنون، حيـث بدا لي كما لو أنني أرى رسـول الله ﷺ بذاته، فكنت أتلفّتُ يمينًا وشمالًا على الدوام قائلًا: يا ترى أين هو!؟

وانتابتني في تلك اللحظة حالةٌ روحيّةٌ أستغني معها عن دخول الجنة حتّى وإن دعَتْني هي إليها وفتحَتْ لي أبوابها، إن شئتم فأطلقوا على هذه الحالة: المجنون بحب مدينة الرسول الأكرم ﷺ.

لكنني أوصي أصدقائي بأنني لو تركتُ مكاني هذا يومًا وجَاوَرْتُ في المدينة المنورة فما هذا إلّا لحالةٍ روحية فرديّة، فليأخذوا بتلابيبي ويجرونني إلى هنا، وإلّا فذنبُ انقطاعي هناك عن الناس في رقبتهم، أحاسبُهم عليه أمام الله.

للمسألة وجهان مختلفان؛ أحدهما هو الشوق الذي لا يُتحمَّل للمدينة المنورة، والآخر هو ضرورة رفعِ النِّيرِ الواقع هنا.

أما الأول فهو شخصيٌّ تمامًا، وأما الثاني فهو خاصّيّةٌ تتعلّق بمصير شعب كامل، والأحرى بمصير العالم الإسلامي بأكمله.

إننا جميعًا نجد أنفُسَنا أمام الاختيار نفسه، فأنتم أيضًا -على الأقل- عاشقون مثلي لذلك المكان، ولكنكم مضطرّون إلى البقاء في بلادكم للعمل والسعي الحثيث؛ لأنّ أمّتنا قد فقدت مكانتها في التوازن العالمي هنا، وأخذَتْ تُمحى هويةُ جيلها، وانتهى كل شيء، فلو أن هناك أملًا سيبزغ نوره من جديد حتى تسير أمَّتُنا إلى الآفاق النيرة فهذا الأمل سيبدأ من هنا، فعلينا إذًا ألا نبرح أو نغادرَ مكاننا، وأن نكابد ونعاني ونضحّي بمشاعرنا وما تحمله من فيوضات ماديّة ومعنوية.

أجل، إنني أعترف أن الآثام كانت تعترض طريقنا، ونتواجه كل لحظة بما يجرح أرواحَنا، ورغم هذا فنوايانا سليمةٌ خالصةٌ، وتزدانُ قلوبنا بفكرةٍ يقينيّة؛ ألا وهي تأييد دين رب العالمين وغرس محبة رسوله ﷺ في شغاف

قلـوب جيلنـا، والعزم على البقاء حيـث كنا، مـع الرضا بدايـةً بالمصائب والبلايا التي قد نتعرض لها في هذا السبيل؛ ومن ثم فإننا نفضّل البقاء بين النـاس وتحمّل مكابرتهم وعنادهم على الإيـواء إلى الجبال والانزواء في زاوية للذكر فيها، إننا سـنعيش داخل المجتمـع، وننسـحق تحت جنازيره أحيانًا، ومـع ذلك سنظل في داخله ولن نخرجَ عنه.

لأننـا مجبـرون بـل محكومٌ علينـا أن نـؤدّي وظائفَنا حيـث كنّا، وفي المكان الذي أقامنا الله فيه.

الجهادُ الأصغر والأكبر

سؤال: ما معنى الجهاد؟ وهلّا تفضلتم بتعريف الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر؟

الجواب: الجهادُ يعني السعيَ وبذلَ الجهد وتحمُّلَ شتى أنواع المشاقّ والصعوبات، إلّا أن الجهاد قد تطوّر معناه مع مجيء الإسلام، وصار عَلمًا على مجاهدة النفس والشيطان، والتصدي للأخلاق السيئة والسلوكيات الذميمة، ومحاربة الأعداء عندما تقتضي الضرورة ذلك، فضلًا عن الحذر والتنبّه والوقوف دائمًا على أهبة الاستعداد،

وجاء في حديثٍ شريفٍ -كما سنرى لاحقًا- أن الجهاد ينقسم إلى قسمين هما: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر.

ولكن قبل أن نُعرِّج على هذين القسمين أودّ أن أقفَ قليلًا على أهمية الجهاد.

ليست هناك وظيفة أسمى من وظيفة الجهاد، ولو كان هناك أسمى منها لكُلّف بها الأنبياء، ومن ثمّ فَمَنْ كلّفهم الله بهذه الوظيفة هم أشرف الناس، والملائكة التي حملت ونقلت هذه الوظيفة إلى الأنبياء هم أشرف الملائكة، وعلينا أن نعرف -أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ- أنّ أغلبَ المصطفَين الأخيار من لدن آدم عليه السلام حتى يومنا هذا -أنبياءَ كانوا أم أولياء- ما بلغوا هذه المرتبة من الاصطفاء إلا بفضل الجهاد ومحاسبة النفس.

إن الجهاد هو عملية وصول الإنسان إلى ذاته، أو إيصال الآخرين إلى ذواتهم، فهو -من أحَدِ جوانبِه- بمثابة الغاية من خَلْقِ الإنسان، ولذا فهو يحمل أهمية عظيمة، وله قيمةٌ مقدّسةٌ ومبجّلة عند الله تعالى.

فهناك بَونٌ شاسع للغاية لا سبيل إلى تسويته بالأعمال الأخرى بين مَن يتخلفون عن الجهاد بلا عذر ألبتة وبين المجاهدين الذين يقضون حياتهم في هذا السبيل، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/٩٥).

فلا يمكن أن يتساوى مطلقًا مَن يجاهدون في سبيل الله ويتّخذون من تبليغ الدعوة منهاجًا ونبراسًا لهم مع غيرهم، ولنوضح هذه المسألة ونبسّطها بالمثال التالي:

النبوة هي وظيفة كلّف الله بها بعضَ المصطفين من الناس، وعلى ذلك فمهمّتهم هي التعريف بالله وتبليغ الدين الذي جاؤوا به، وهذه المهمة هي ما تستلزمه وتقتضيه وظيفة النبوة، إن الناس يضطلعون بوظائف متعدّدة تستلزم مَهامّ متعددةً كذلك؛ فالحلاق والنجار والسرّاج أو أيُّ صاحبِ مهنةٍ لهم أهداف وغايات يعتبرونها النقطة المثلى بالنسبة لهم، ويجب ألا ننسى أن كلّ مهنة من هذه المهن وما تتطلّبه من مهامّ تُقيَّمُ بالنظر إلى هدَفِها المنشود، بمعنى أن قيمة مهنة الحلاقة تُقدَّرُ بغاياتها وأهدافها النهائية، وهكذا الخياط والسرّاج.

وإن شئتم ففكّروا في مهن أرقى، فلو اعتبرنا نيابة البرلمان أو رئاسة الوزراء أو رئاسة الجمهورية مهنةً فما قرّرْناه سابقًا يسري على هذه المهن أيضًا، وكل هذه المهن تُقيّم وفقًا للنتيجة التي سيتم التوصّل إليها في النهاية.

والآن تأمّلوا في وضع الإنسان من حيث بداية كلّ شيءٍ ونهايته، فالإنسان بدايته نقطة ماء قذرة نضطرُّ إلى غسْلِها إذا ما سقطت فوق ملابسنا، ونهايته جُثَّةٌ نَتِنَةٌ... أليست هذه هي بداية الإنسان ونهايته؟ وهذه هي آخر نقطة يصل إليها الناس أيًّا كانت وظائفهم ومهماتهم، بيد أن وظيفة النبوة ليست هكذا قطعًا؛ ففي أهدافهم أفق ونقطة مثالية، غير أن هذه النقطة لا تفسد أو تتعفن كما يحدث عند الآخرين.

إن الهدف المنشود عبرَ وظيفة النبوة هو:

تعريف الإنسان بالله، ووصول الإنسانية إلى الخلود بواسطة هذه المعرفة، وهذا يتحقَّق بأن يرجع الإنسان -الذي استهلّ الفرشية عند ميلاده- مرة أخرى ويصلُ بالعرشية إلى الله... ثم كشف الإنسان تجليات البقاء في هذا العالم الفاني، واستشعاره بألوان الوجود في الفناء؛ حتى يصير بأفكاره قوسًا لألوان الطيفِ مرشَّحًا للخلود والبقاءِ... وقوس ألوان الطيفِ يُشْبِهُ قوسَ النصر، إلا أن الأخيرَ يمرّ الناس من تحته دفعةً واحدةً، أما قوس ألوان الطيف الأبديّ فبسبب رقَّتِهِ وشفافيّته يظلّ الإنسان يسير تحته ساعاتٍ وساعاتٍ ولا يمكنه أن يتجاوزه، وهكذا فقد جاء الإنسان مرشّحًا لهذا الخلود، وما استطاع أن يفجّر هذا الشعور وتلك الحقيقة الكامنة في ماهيته إلّا الأنبياء الذين يحملون وظيفة النبوّة على عواتقهم.

ومن ثمّ فإن وظيفةَ النبوّة هي أقدس وأنزه الوظائف، حتى إن الحقّ ﷻ قد لفتَ الأنظار بعد ألوهيّته إلى تلك الوظيفة، وهكذا فالجهاد هو أقدسُ

مهمّة في تلك الوظيفة القدسية، وبما أن كلَّ مهنةٍ من هذه المهن وما تتطلّبه من مهام تُقيَّم وفقًا للهدف المنشود فإن الوسيلة التي توصِل إلى ذلك الهدف المُقدَّس هي أيضًا على نفس المستوى من القدسيّة.

وبسبب أهمّيّة الجهاد أثنى القرآن الكريم على تلك الجماعة التي بايعت الرسول ﷺ على الجهاد وعاهدته على ذلك، يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الفَتْح: ١٠/٤٨).

وفيما يلي خلاصة الحادثة التي نزلت فيها هذه الآية:

بشر النبي ﷺ أصحابه بدخول مكة والطواف حول الكعبة، فبات الجميع في فرحٍ وسرورٍ، فمنذ سنين وقلوبهم تهفو حنينًا إلى مكة ورؤية البيت الحرام.

وكيف لا؟ فلقد عشقناها نحنُ وتُيِّمنا بحُبِّها برؤيتنا لها مرّةً أو مرّتين، وتتألم قلوبنا شوقًا ولَهَفًا لمّا يتعذّر علينا الحجّ إليها، إنها مسقط رأس سيّد الأنبياء محمد ﷺ، وإن أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ على وجه الأرض هو في تلك البقعة المباركة من البيت الحرام.

إن هذه الكعبة كما قال الشاعر "نابي" هي مطاف القدسيّين والملائكة من الأرض إلى سدرة المنتهى.

أجل، كان يعتَصِرُ المسلمين شوقٌ عارمٌ إلى هذا البلد الأمّ الذي وُلدوا وترعرعوا فيه، والذي تهفو أرواحهم للوصال به، ثم الطواف بالكعبة التي يطوف بها القدسيون، والعودة كرةً أخرى إلى المدينة التي آوتهم

وفتحت أبوابَها لهم، غير أنهم فوجئوا بحادثةٍ لم تكن في حسبانهم؛ فقد أعلن مشركو مكة رفضَهم لدخول المسلمينَ حاجّينَ هذه السنة، وأنّهم لن يتهاونوا في محاربة من يُحاولُ الدخول عنوةً... لقد أحدثت هذه الواقعةُ المفاجئة وقعًا كبيرًا بين المسلمين؛ فلا أحدَ يريد أن يصدّق ما سمعه؛ حيث كانوا يعتبرون أن هذا الصدَّ من المشركين بمثابة ضربةٍ قويّة موجّهةٍ إلى صدر الإسلام وعزّته، فثارت ثائرتهم، واستشاطوا غضبًا، إلى أن بلغَ السيل الزُّبى، ولم يعُدْ أحد يسمع للآخر، وكأنّ كلَّ واحدٍ منهم قد أصيب بالتخبُّط والتعثُّر من هول المفاجأة.

في تلك الأثناء تمامًا دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة، وعندما تُذكَرُ "البيعة" تقفُ المياهُ الجارية، وتكفُّ عن خريرها أدبًا؛ فالآن يصطفُّ المسلمون ويبايعون رسول الله ﷺ؛ يشدُّون على يده، ويبايعونه على الولاءِ المُطلَق، وعلى الموت، ولقد بجّل القرآن الكريم هذه البيعة وذلك العهد، وأشار إلى مدى درجة قرب هؤلاء الصحابة من الله بسبب صنيعهم هذا، وهذا أيضًا مظهر آخر للقيمة التي أولَاها الإسلام للجهاد...

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة التَّوْبَة: ١١١/٩).

فهؤلاء أناسٌ باعوا أنفسهم وأبدانهم وكلّ ما يملكونه مقابل الجنة ونيل رضا الله تبارك وتعالى، ولقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك الصنيع بالبيع والشراء، وهذا مقام يرقى بالإنسان إلى مستوى يستطيع من خلاله معاملة ربه ﷻ.

عَـنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**وَالَّذِي نَفْسِـي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ**"(٤٤)، فمـن يـدري كـم من المرات كان مـن الممكن أن يكرر رسـول الله ﷺ هذا القول إن لم يخش الإطالة في الكلام!

وبإمعان النظر قليلًا يتّضِحُ لنا أنّ هذا القول فيه معنى الخلود، وهو ما يمكن استنباطه من قوله: "**ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ**".

تأمّلوا جيّدًا... إن الذي يطلب هذا هو سـلطان الأنبياء محمد ﷺ، فما عرف المسلمون قيمة الجهاد إلا من الله ورسوله ﷺ، يقول الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه:

"**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**"(٤٥).

ولكم أن تتأمّلوا! يومٌ يُرابِطُ فيه الإنسانُ على ثغورِ بَلَدِهِ، مُتَصدّيًا لأيّ خطرٍ محتَمَلٍ أو عدوٍّ يهدّد أمنَها خيرٌ له من الدنيا وما فيها، فلو قال إنسان: إننـي بمرابطتي على ثغور بلدي أقـوم بمهمة أهم من مهام الكعبة فلا يُعَدُّ كاذبًا؛ لأن الكعبة تدخل أيضًا ضمن قول سـيدنا رسـول الله ﷺ: "**خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيهَا**".

وفـي روايـة أخرى يقـول ﷺ: "**رِبَاطُ يَـومٍ وَلَيلَـةٍ خَيرٌ مِنْ صِيَامِ شَـهْرٍ وَقِيَامِـهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيهِ عَمَلُهُ الَّـذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**"(٤٦).

وثمّـةَ أحاديـث وآيات كثيرة عن فضل الجهاد وأهمّيّتِهِ، إلا أننا نكتفي بهذا القدر لأن هذا ليس بموضوعنا الآن.

(٤٤) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٧؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٠٣.
(٤٥) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٧٢.
(٤٦) صحيح مسلم، الإمارة، ١٦٣.

الجهاد هو محاولة الإنسان للوصول إلى حقيقة ذاته، باستغلال قوته، وإرهاق نفسه، وتحمّل كل المشاق التي تعوق جريان الحياة، وهذا هو الجهاد الأكبر، أما عملية إيصال الآخرين للتكامل مع ذواتهم فهو الجهاد الأصغر.

لما أفلَ النبي ﷺ عائدًا منتصِرًا من إحدى معاركِه قال مخاطبًا صحابته: "**قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ**"، قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الأَكْبَرُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ:"**مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ**"(٤٧).

وهذا القول يعبّر عن وجهين مختلفين لحقيقة واحدة، فكلاهما فيه تزكية للبشرية ومحاولة للوصول بها إلى الكيفية التي يبتغيها ربنا تبارك وتعالى، وعلى ذلك فالجهاد بنوعيه الأصغر والأكبر يعبّر عن وجهين مختلفين لحقيقة واحدة.

أوَليس وصول البشرية إلى تلك الماهية هو الهدف المنشود من إرسال الرسل ﷺ؟! كما قال ربنا ﷻ في كتابه الكريم:

﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ١٥١/٢).

لقد أُرسل الرسل ﷺ لرفع الغشاوة عن أعين الناس، وإعانتهم على قراءة آيات الله تعالى، وعند تَحَقُّقِ تمامِ ذلك تتقوّض جميع العراقيل والعقبات في قلوب الناس وأفئدتهم، وتتغيّر النظرة برمّتها إلى الحوادث والأشياء، وتكتسب الحياة التي صمّ الناس فيها وعموا قيمةً ومعنًى بفضل النور الذي جاء به هؤلاء الأنبياء، أجل، إن قراءة الآيات التكوينية وفهمها لا يتأتى إلا بهؤلاء الرسل.

(٤٧) البيهقي: **الزهد الكبير**، ١٦٥/١.

فالنبي هو من يعمل على تزكية الناس وإيصالهم إلى ذواتهم؛ لأن الناس بحاجة إلى معالجةٍ خاصّةٍ كالمعادن، فلا بدَّ من إذابتهم في بوتقة معيّنة؛ حتى يحصلوا على الهوية المطلوبة بما يطرحونه من نفايات عالقة بهم وأشياء غير نافعة لهم.

أما الهوية المطلوبة فلا جرم أنها الهوية التي يرتضيها الحقّ ﷻ، ولا يتحقّق الوصول إليها إلا بإرشاد الرسل، فمن المتعذّر مطلقًا أن نصير كالفضّة الخالصة أو الذهب الخالص إلا بالدخول في منجم الإذابة والاتصال بالله تعالى.

وهناك أمرٌ لافتٌ للنظر في هذه الآية، ألا وهو تعليم النبي للكتاب والحكمة، فلو كان المقصود بالكتاب هنا القرآن فهذا يعني أن الحكمة غير القرآن؛ لأنه لا يجوز أن نكرّرَ نسبةَ الشيء إلى نفسه، ومن ثم نفهم أن الحكمة هي السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

وفوق ذلك سيظلّ النبي يعلمنا ما لم نكن نعلمه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فهذا الخطاب ليس حِكرًا على إنسان عصر النبوة، بل يُفهَمُ منه أن هناك كثيرًا من الأمور سيظل الناس يتعلمونها من الأنبياء حتى يوم القيامة.

إننا تعلمنا من رسولنا ﷺ -فيما يتعلق بحياتنا الشخصية- سُبُلَ تطهير القلب، حتى نشأ بين تلامذته ﷺ من هم أمثال سيدنا علي كرم الله وجهه الذي تُعزى إليه مقولة: "لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقينًا"، ومن حدسوا الأسرار في السماء وهم على الأرض كالشيخ الكيلاني، والآلاف ومئات الآلاف من أمثال الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وبشر الحافي... كل هؤلاء كانوا ثمرات مباركة لهذه التربية العظيمة، فلو كان هناك نبوة

بعـد النبـي ﷺ لحلّق كلُّ واحدٍ منهم في سـماء النبـوة كما حدث في عهد أنبياء بني إسرائيل.

أجل، كثيرةٌ هي الأمور التي علّمها النبي ﷺ للبشـرية وسيظلّ يعلّمها، لقد تعلّمت البشرية منه ﷺ كثيرًا من المسائل المعجِزَةِ للعقول حتى الآن، فلن يُكتب للبشرية النجاة في المستقبل من ظلمات الجهل إلا بفضل النور الذي جاء به، وعندها سـتتقدّم البشـرية بين هالات من الضياء حتى تحيط بكل الأنوار، وسترتقي بالمعارج النورانية إلى ذرى العلم والفن والتقنية.

إن النهـجَ النبـويَّ هو النهجُ الـذي وَرَّثه النبيُّ ﷺ لرجـال الدعوة من بعـده، وعهـد إليهم بتزكيـة الناس، والوصـول بهم إلى درجـات الكمال، وإيصالهـم إلى ذواتهم؛ حتى يبلغوا درجة يرتضيها خالقهم ﷻ، ولا يتأتى تحقيـق هـذه النتيجة إلا بالجهاد؛ يعني إزالة الموانـعِ والحواجز بين العباد وربّهم.

إن وظيفـة الجهاد تتسـاوى مـع وظيفة الشـهادة علـى وجود الله، ففي المحكمة نسـتمـع لأقوال الشـهود حتى نعلم مَن صاحب الحق، ولا جرم أن هـذه الشـهادة يُعتدّ بهـا عند صدور الحكم، وهكـذا يفعل المجاهدون أمـام المـلإ الأعلى عندما تنعقد المحكمة للجهـلاء المنكرين لوجود الله، يرفعون عقيرتهم بالصياح شاهدين على وجود الله، ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٨/٣).

أجـل، إن الله يشـهد علـى وجوده، ومن يصلون إلى هـذه الحقيقة في ذواتهم يشعرون بها، لدرجة أن الكتب جميعها تعجز عن شرح ما يشعرون به في أفئدتهم.

والملائكة شهداء على وجود الله، خلقهم الله من ماهية صافية، وفطرة نقية لا شائبة فيها، ومن ثم لم يستطع الشيطان إغواءهم أو تضليلهم، فلم تفسد بنيتهم ألبتة، فهم كالمرآة عند النظر إليهم تتراءى تجليات الحق ﷻ.

وأولو العلم شهداء أيضًا على وجود الله، ولو أنكرت الدنيا بأسرها وجود الله لكفت هذه الشهادات الثلاث.

أجل، إننا نستشعر هذه الحقيقة بكل ما فيها من وضوح وعظمة في أفئدتنا، نستشعر بها دون حاجة إلى التنقيب عن دليل آخر، وهذه الشهادة كافية للملإ الأعلى، وإن كان العمي والصم على الأرض لا يسمعون قعقعة الكون ولا يدركون صنعة الله فتكفيهم شهادة أولي العلم على ذلك.

إن شهداء الله سيتَّجِهون إلى أكثر الأسقاع ظلامًا على الأرض والتي تنكر وجود الله، ويصيحون بأعلى أصواتهم: "نحن شهداء الله على الأرض".

أجل، هكذا جاء الرسل مشحونين باستعداداتٍ عالية حتى يُؤدوا مهمّة الشهادة.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/١٦٥-١٦٦).

لقد أشرقَ الأنبياء في كل الأمم كالشموس التي تُنيرُ الآفاق، فالعهود تدور كما تدور الأرض تمامًا، ويظهر النبي كالشمسِ في كلّ عهد، ليُنِيرَ العصرَ المظلم الذي جاء فيه، وأخيرًا جاء نبينا ﷺ فأضاء كلَّ العصور، ولذا خاطبه ربه تعالى في قرآنه قائلًا: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾** (سورة الأَحْزَابِ: ٣٣/٤٥).

ولقد تصدرت "أل" العهديّةُ لفظةَ "النبي" في الآية، ليدلّ على أنه نبيّ معروف ومشهودٌ بنبوته.

فإذا نظرْتَ إلى أيّ جانبٍ فيه تجد دلائل على نبوّته، شهدت على نبوته الجمادات بتحيّاتها، والنباتات بإيماءاتها، والحيوانات بانحناءاتها.

إنه نبيٌّ معلومٌ ومعروفٌ من قِبَلِ الجميع، ولا سبيلَ إلى إنكار ذلك، ومن ثم نجد القرآنَ يخاطبه قائلًا: "**يا أيها النبي**"، ويكفي لأن نعرف أنه نبي معلوم أيضًا أن القلوب الجامدة كالحجارة تتصدع وتذوب أمامَه ﷺ.

"**شاهدًا**" يعني إنا أرسلناك شاهدًا على الإنسانية، تبلِّغُهم ديني وتكون لي شاهدًا عليهم، وإن كذّب العالم بأسره وجحد لأعلنتَ أنت عن وجود الله، وبذلك أنت شاهد، وأمتك التي تأتي من بعدك شاهدةٌ أيضًا، هم سيشهدون على جميع الإنسانية، وأنت ستشهد على شهادتهم قائلًا: "هؤلاء أمتي"، فعَنْ أَبِي سَعِيد ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ**، قال الراوي: قال النبيّ ﷺ: **فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ**، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ (سورة البَقَرَة: ١٤٣/٢) وَالوَسَطُ العَدْلُ"(٤٨).

إنه إنسان يبشّر الناس في طريق الخير، ويحذرهم من عاقبة السير في طريق الشر، وعلى ذلك فروح الجهاد مكنونة في هذه الحقيقة، وقد أُرسل الأنبياء لأداء هذه الوظيفة السامية؛ يضيئون العالم وينيرونه، ويشرقون ويغربون كالشمس في آفاق السماء، وبذلك لن ترى الإنسانيةُ

(٤٨) **صحيح البخاري**، أحاديث الأنبياء، ٤.

وجه الظلام، ولن يتبقّى فؤاد لم تبلغه الحقيقة ولا بابٌ لم ينفتح على الحقيقة ولا نافذة لم تدخلها الحقيقة، سينفذ الحق والحقيقة إلى كل بيت، وسيستفيد الجميع منهما.

وعلى ذلك نجد أن مفهوم النبوّة كان مستقرًّا في أذهان وأفكار الناس من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ومنه إلى يوم القيامة، حتى وإن كان هذا المفهوم غامضًا ومبهمًا لدى البعض، فما صدرت بعض أطياف هذا المفهوم إلا عن النور الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام قديمًا.

والواقع أن من عاشوا في الفترة بين نبِيَّين قد انحرفوا غالبًا عن الطريق المستقيم، وانساقوا إلى أفكار ومفاهيم ضالّة، لكن لم يعد هناك بيت لم ينفذ فيه معنى النبوة، وإن روح الجهاد وفكرته التي تعلن عن نفسها صراحةً أو ضمنًا في أفئدتنا اليوم ما هي إلا أثرٌ لنسمات النبوة الطاهرة؛ لأن كل الأنبياء على التوالي قد كرّسوا حياتهم لنشر الحقّ والحقيقة، فأصبحوا أكمل ممثلين للجهاد؛ أصغرِهِ وأكبرِه.

الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يُؤدَّى في جبهة القتال فحسب، فهذا النمطُ من الفهم يُقلّص أُفق الجهاد، حيث إن مَيدان الجهاد واسعٌ جدًّا يمتدّ من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمةً واحدةً أو سكوتًا وصمتًا أو تبسّمًا وطلاقةَ وجهٍ أو امتعاضًا ونفورًا أو تركًا لمجلسٍ أو مشاركةً فيه... وباختصار هو القيام بأيّ عملٍ من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحبّ في الله والبغض لله في هذا السبيل... ومن هنا فإن كل جهدٍ يُبْذَلُ لإصلاح المجتمع في أيّ ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع، كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي، بمعنى أن ساحة الجهاد الأصغر تمتدّ من

العائلة والأقارب القريبين والبعيدين والجار الجنب والصاحب بالجنب، حتى تشمل الدنيا كلّها، والجهاد الأصغر بهذا المعنى هو جهادٌ مادّيّ، أما الجهادُ المعنويّ فهو الجهاد الأكبر، ويعني جهاد النفس والعالم الداخلي للإنسان، فمتى ما أوفى الإنسان بهذين الجهادين فقد تحقّق التوازن، وإلا اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد وحقيقته.

ولقد تلقّينا مفهومَ الجهاد بنوعيه الأصغر والأكبر عن النبيّ الأكرم ﷺ كما تلقينا عنه كل شيء.

وفي الواقع إننا لم نستطع بعدُ أن نستوعب فقهَ سيرتِهِ صلوات ربي وسلامه عليه، لقد حمل ﷺ على عاتقه وظيفةَ نشرِ الحقِّ والحقيقة، فقام بها بشكلٍ منظّم وأرساها على مبادئ سليمة فيها من المرونة ما يكفل ديمومتها حتى يوم القيامة، فإن فهمنا القضايا على هذا النحو فلن يتعذَّرَ علينا أن نعرف أن النبي ﷺ لم يقم بحركة عشوائيّة قطّ، ولم يترك نفسَه لجَرَيان ظواهر الأمور.

لقد كان رجلَ خطّةٍ وبرنامج، ربما لم يكن يكتب أو يخطّط أو يرسم رسمًا بيانيًّا لما يفعله بالصورة التي يفهمها الإنسان اليوم، ولكنه كان كمن يسير على نظام ومنهج قد أعده مسبقًا، وهذا من دلائل نبوّته وصِدْقِ تخلُّقِه بأخلاق الله ﷻ.

كان رسول الله ﷺ في العهد الأوّل من دعوته يصلّي في الكعبة على الدوام، لا لفضل الصلاة في الكعبة فحسب، بل ربما لغايات كان ينشدها النبي ﷺ من وراء هذا الفعل، وربما كان هذا السبيلَ الوحيد في ذلك اليوم وتلك الحقبة الزمنية لشرح الحق والحقيقة بهويتها وصورتها النقيّة.

كان لا بدّ أن يتكلم مع الشباب، غير أنه كان من قبيل المستحيل أن يذهب إليهم ويتحدّث معهم في أمور تخصّ دعوته؛ لأنهم جميعًا كانت لهم تصرُّفات مفرطةٌ ناتجةٌ عن أَنَفَةِ الشباب، فلو همّ بمحادثاتهم فلربما قابلوه بتصرُّفات غير لائقة، ولذا كان يذهب إلى الكعبة ويريهم بالفعل صلته بربه حالًا لا قالًا؛ ممّا كان يخلق عندهم نوعًا من الفضول وحبّ الاستطلاع، فكانوا يأتون إليه ويسألونه، وعند ذلك كان ﷺ ينتهز الفرصة للحديث معهم عن الدعوة المباركة، ومن ثم كان ﷺ يفضّل الصلاة في الكعبة على غيرها من الأماكن.

وقد تعرض النبي ﷺ لاعتداءات شتّى وهو يصلي لربه في الكعبة، بيد أنه لو صلى في بيته ما تعرّض لمثل هذه الاعتداءات، وهذا يعني أن هناك مغزًى ما من وراء صلاته في الكعبة رغم كلّ المعاناة التي كان يلاقيها، فكم وكم أوذِيَ وأُلقي عليه سلا جزور! وكم مرّةٍ تعرّض للإيذاء والاعتداءِ من قِبَلِ المشركين الذين كانوا يستهدفون قتله.

وذات مرّة توعّد أبو جهلٍ النبيَّ ﷺ بأن يُلقِيَ عليه حجرًا كبيرًا يقتله به، ووعَدَ مَن حوله من صناديد مكّةَ بذلك، وفعلًا أَخَذَ حَجَرًا كَمَا وَصَفَ، ثُمَّ جَلَسَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْتَظِرُهُ، وَغَدَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا كَانَ يَغْدُو، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ وَقِبْلَتُهُ إِلَى الشَّامِ، فَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلَّى بَيْنَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، وَجَعَلَ الْكَعْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّامِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَقَدْ غَدَتْ قُرَيْشٌ فَجَلَسُوا فِي أَنْدِيَتِهِمْ يَنْتَظِرُونَ مَا أَبُو جَهْلٍ فَاعِلٌ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ احْتَمَلَ أَبُو جَهْلٍ الْحَجَرَ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُ رَجَعَ مُنْهَزِمًا مُنْتَقِعًا لَونُه مَرْعُوبًا قَدْ يَبِسَتْ يَدَاهُ عَلَى حَجَرِهِ، حَتَّى قَذَفَ الْحَجَرَ مِنْ يَدِهِ، وَقَامَتْ إِلَيهِ رِجَالُ قُرَيشٍ، فَقَالُوا لَهُ: مَا لَكَ

يَـا أَبَـا الْحَكَمِ؟ قَالَ: قُمْتُ إِلَيهِ لِأَفْعَلَ بِهِ مَـا قُلْتُ لَكُمْ الْبَارِحَةَ، فَلَمَّا دَنَوتُ مِنْـهُ عَرَضَ لِي دُونَـهُ فَحْلٌ مِنْ الْإِبِلِ، لَا وَاللهِ مَا رَأَيتُ مِثْلَ هَامَتِهِ، وَلَا مِثْلَ قَصَرَتِهِ وَلَا أَنْيَابِهِ لِفَحْلٍ قَطُّ، فَهَمَّ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي[٤٩].

وفـي مرة أخـرى "بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَـةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ ابْـنُ أَبِـي مُعَيْطٍ، فَوَضَـعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَـدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّـى أَخَـذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَـالَ: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ**﴾! (سـورة غَافِرٍ: ٢٨/٤٠)"[٥٠]، في الحقيقة هذا القول الذي ذكره سـيدنا أبو بكـر ﷺ هـو قولٌ تاريخيٌّ، فقد قاله من قبله بعـدّة عصور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وهكذا شـرّف الله ﷻ هذا القول بأن جعله آية في كتابـه الكريم، لم يكن سـيدنا أبو بكر رجلًا قـويّ البدنِ، إلا أن قوّة إيمانه جعلتْ منه إنسانًا لا يُقهر.

فـإن لـم تكن تحرسـه ﷺ عنايـة خاصة لَوَقَـعَ ضحيّةً فـي واحدةٍ من الإيـذاءات التـي تعرض لها في صلاته وعند سـجوده، لكـنّ الله تعالى قد تكفّل برعايته وحفظِه فقال: ﴿**وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٦٧/٥)، لدرجـة أنـه كان لا يهاب الموت ويقدم عليه حتى يصلي في الكعبة، وهذا يعنـي أن فعلـه هـذا كان ينطوي علـى أهميَّةٍ جِدُّ جليلـة، وكأن حياته التي أقسـم الله تعالى بها فقال: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: ٧٢/١٥) كانت هيّنة بالنسبة له.

ولما ضاق الخِناقُ على المسلمين في مكّة خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَـةِ، حَتَّـى إِذَا بَلَـغَ "بَرْكَ الغِمَـادِ" لَقِيَهُ "ابْنُ الدَّغِنَةِ" وَهُوَ سَـيِّدُ

(٤٩) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ٢٩٩/١.

(٥٠) **صحيح البخاري**، المناقب، ٨٩.

"القَـارَةِ"، فَقَـالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَـالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَومِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِـيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْـرُجُ وَلَا يُخْـرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِـبُ المَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِـمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْـرِي الضَّيـفَ، وَتُعِيـنُ عَلَى نَوَائِبِ الحَـقِّ، فَأَنَا لَكَ جَـارٌ، ارْجِـعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَـعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِـيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُـلًا يَكْسِـبُ المعْـدُومَ وَيَصِـلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِـلُ الكَلَّ وَيَقْـرِي الضَّيفَ، وَيُعِيـنُ عَلَـى نَوَائِبِ الحَقِّ؟! فَلَـمْ تُكَذِّبْ قُرَيشٌ بِجِوَارِ ابْـنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْـتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّـي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَنْقَذِفُ عَلَيهِ نِسَـاءُ المُشْـرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ عَينَيهِ إِذَا قَـرَأَ القُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْـرَافَ قُرَيشٍ مِنَ المُشْـرِكِينَ، فَأَرْسَـلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّـهُ فِـي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْـجِدًا بِفِنَـاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالقِـرَاءَةِ فِيـهِ، وَإِنَّا قَـدْ خَشِـينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَـاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَـهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِـرَ عَلَـى أَنْ يَعْبُـدَ رَبَّهُ فِـي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَـى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْـتِعْلَانَ، فَأَتَـى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَـالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَـكَ عَلَيـهِ، فَإِمَّـا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِـكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِـعَ إِلَـيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْـمَـعَ العَـرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَـهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:

فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ ﷻ[٥١]. لقد كان مبدؤهم الوحيد هو عدم الانصراف عن الجهاد بالقول أو الفعل طالما كان هذا ممكنًا؛ لأنهم يعلمون جيّدًا أن حياة الفرد والمجتمع لا تتأتّى إلا بالجهاد، أما من يتخلّون عن الجهاد فمحكوم عليهم بالعفن والفساد، وفي الوقت ذاته فإن الدخول في جوار الله تعالى لا يتأتّى إلا بنصرة دينه، وهذه الحقيقة يبيّنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة مُحَمَّدٍ: ٤٧/٧).

أجل، إن تنصروا دين الله ينصركم الله ويعنكم، ولا يضيعكم ولا يضللكم، فإن كانت لديكم رغبة في عدم الانحراف في حياتكم فاتخذوا من الجهاد والمجاهدة غاية لكم، واجعلوا كل تصرُّفاتكم من طعامٍ وشرابٍ ونومٍ ويقظةٍ خدمة لهذه الغاية؛ حتى تؤدّوا أصغر أنواع الجهاد.

ولنعدْ مجدّدًا إلى مكّة بخيالِنا، ونتعقّب سلوكَ النبي ﷺ:

لقد اشتدّت الوطأة على المسلمين، وأذن لبعض المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لعدم قدرتهم على تحمُّل أذى المشركين، وهذا يعني أن الجهاد عند هؤلاء كان هجرة، لأن الهجرة أصبحت بعد فترة هي عين الجهاد، وباتت الهجرة شرطًا أوليًّا لكلّ من يريدون البيعة.

بعد الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة توجّه كلُّ المسلمين إلى المدينة دون استثناء، وفي عهد المدينة اكتسب الجهادُ مفهومًا آخر، فقد وضع الجهادُ في المدينة حجرَ أساسِ الدولة هناك، وكان هذا يتطلّب جهادًا يتوافق مع الظروف الجديدة، لم يكن هناك تَغْيِيرٌ في الماهيّة، بل في الشكل بما يتوافق مع الظروف آنذاك، فأحيانًا يتطلّب الأمرُ السرعةَ

(٥١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥.

وأحيانًا البطءَ، وأحيانًا الانطلاقَ وأحيانًا التوقُّفَ وتنشيطَ عملية الاستعداد على الدوام، وهذه هي الأوجه الإستراتيجية للجهاد، وكان من الطبيعي للغاية أن يتغيّر العصرُ وفقًا لمجريات الأحداث.

لم يستطع المسلمون أن يضطلعوا بأي جهاد فِعْلِي حتى اللحظة التي أُذِنَ لهم فيها بالجهاد، فقد كانت هذه الفترة فترةَ المقاومة السلبية، وكان المعتدي والمهاجم على الدوام جبهة الكفر، والمسلمون هم الذين يقع عليهم كلّ أنواع الظلم والاضطهاد، ومع ذلك لم يفكّروا في مقابلة اعتداء المشركين بأيّ شيءٍ لأنه لم يؤذَنْ لهم حتى تلك اللحظة بالجهاد المادّي.

مرّت فترةٌ هكذا بعد الهجرة، وسرعان ما نزلت بعد ذلك الآية التي تأذن للمسلمين بالجهاد.

يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (سورة الْحَجّ: ٢٢/٣٩-٤٠).

إن هؤلاء الذين قيل لهم أمس: "لا تلجؤوا إلى القوة" قد تلقّوا -والعدو على الأبواب- الإذنَ بالجهاد المادي، وأصبحوا يترقّبون الفرصة التي يفعّلون فيها هذا الإذن، ثمّ بعدَ ذلك سرعان ما تحوّل هذا الإذن إلى أمر، واضطرّ المؤمنون إلى الجهاد وإشهار سيوفهم في وجوه أعدائهم.

كان المسلمون يسيرون إلى غزوة بدر في فرح وسرور وكأنهم قد تلقّوا دعوةً من الجنة، وكأنهم ليسوا هم الذين سيُعرّضون أرواحَهم

للخطر بعد قليل، كانوا جميعًا يحتفون بالموت في هذا السبيل؛ فلم يتردّد أحدٌ منهم في تلبية الدعوة إلى الجهاد، غير أن المنافقين كانوا يُشَتّتون شملَ المسلمين كعادتهم دائمًا، يتركون النبي ﷺ في المعركة ويذهبون، وكانوا أحيانًا لا يشتركون في الحرب مع المسلمين، فهؤلاء لم تَصْفُ سرائرهم، ولم يستطيعوا أن يتغلّبوا على نفاق قلوبهم، عند القتال يتخلّون عن أصحابهم وينزوُون عن المعركةِ في ناحية ما، ويشتغلون بمتعهم الشخصية. أجل، إن هؤلاء قد ضعفت نفوسهم، وتدنّت أرواحهم، فكانوا يفعلون ما تقتضيه طبائعهم.

أما أولئك الذين آمنوا برسول الله ﷺ قلبًا وقالَبًا فلم يتخلّ واحدٌ منهم عن موقعه، وبتعبير آخر: وصلوا إلى الله بالجهاد في سبيله، فلما وصلوا كانوا صُبُرًا عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدُقًا عِنْدَ اللِّقَاءِ، أما المرتدّون الذين ضلّوا الطريق فكانوا مساكين؛ عجزوا عن إدراك هذه الحقيقة، ولم تمتزج أرواحهم بها.

والواقع أن هؤلاء بشرٌ أيضًا، وكل إنسان قد يعتبر الموتَ أمرًا كريهًا بغيضًا، ومن ثم لم يتجاهل القرآن الكريم هذا الشعور عند الإنسان فقال مخاطبًا إيّاه: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٢١٦).

ورغم طبيعة الإنسان تلك إلا أن المؤمنين قد أذعنوا لأمر رسول الله ﷺ وأطاعوه دون قيد أو شرط، وهذه التبعية كانت سببًا في نزول فيوضات الله تترى عليهم، وإحرازهم النصر على التوالي.

وهكـذا وبمـرور الأيـام ازدادت قـوة المؤمنيـن، وسـمعت القبائـلُ المجـاورة بالنصـر الـذي أحرزوه في وقتٍ يسـيرٍ، وبينمـا كان هذا النصر مصدر سعادة للمؤمنين كان غمًّا وكدرًا بالنسبة للكافرين.

ويسـتمر الجهاد كحلقات السلسلة المترابطة، ويجد المؤمن فيه دائمًا طمأنينيته وحيويته، ومتى ما تخلى عن الجهاد فليضـع موته نصبَ عينيه.

أجـل، إن المؤمـن كالشـجرة المثمـرة، تحافـظ على حيويتهـا طالما أثمرت فإن لم تثمر جفت ويبست.

أمعنـوا النظرَ في وجوه جميعِ التُّعسـاء والمتشـائمين يتراءى أمامكم أناسٌ قد تخلّوا عن الجهاد، ولأنهم لم يُبَلِّغوا الحقّ والحقيقة إلى الآخرين قطـع الله فيوضاتـه عنهم، فظلّوا فـي ظلمةٍ حالكةِ السـواد، ثم انظروا إلى المجاهديـن جميعًا تجدوهم في نشـوةٍ وحبور، وداخلُهـم مفعمٌ بالحيويّة والنـور، وهمُّهـم هـو مضاعفة الثـواب والأجـور، كل جهاد يولّـد جهادًا جديدًا لديهم، وبذلك تتشكل الدائرة الصالحة، وكل خير هو وسيلة لخير جديد؛ لذا فهم يجولون ويصولون في الخيرات.

وهـذا ما تبينه هذه الآية: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: ٦٩/٢٩).

ثمّة سـبل متعدّدة للوصول إلى الله، وهذه السـبل عددُها بعددِ أنفاس المخلوقات، والله ﷻ يهدي المجاهدين في سـبيله إلى أيّ واحدٍ من هذه السبل يسلكون، فَيُبْرِز لهم كلّ سُبُلِ الخير ويقيهم جميـعَ سُبُلِ الشر.

وسبيل الله هو الصراط المستقيم، ومن سلَكَهُ سلكَ الطريق الوسطَ في كل شيء، وكما يتّخذ الإنسان طريقَ الوسط في الغضب والعقل والشهوة

فإنّه يواظب على هذا الطريق في الجهاد وأداء العبادات أيضًا، وهذا يعني أن الله تعالى يهدي الإنسان إلى سبيله.

إن الجهـاد الموجّه إلى الخـارج مهما بلغَتْ فيه التضحية والفداء فإنه بمجموعه يُعدّ ضمنَ الجهاد الأصغر، وكونه جهادًا أصغر إنما هو بالنسبة للجهـاد الأكبر، وإلّا فليس فيـه جهة صغيرة قطّ، بل العكس هو الصحيح لأن مـا يُكسـبه من نتيجة هي عظيمة للغايـة، وكيف لا تكون عظيمةً وهي ترشـح المجاهدَ للدخول إلى الجنة! وإذا ما استشـهد فلـه الحياة الكاملة في البرزخ، ولا شـكّ أن غاية الجهادِ بِكِلا نوعيه الأصغرِ والأكبرِ هي نَيل رضـا الله تعالى، وكيـف يكون صغيرًا جهادٌ له هذه النتائج الجليلة والغاية النبيلة؟!

فالجهـاد الأصغـر إذًا هـو تنفيذ أوامر الديـن عمليًّا وأداء الإنسـان ما كُلّـفَ بِـهِ، أمـا الجهاد الأكبر فهـو أداء كلِّ هذا بوعيٍ وإخـلاصٍ، ومراقبةٍ دائمةٍ للنفس ومحاسبةٍ لها، فضلًا عن ذلك هو إعلان الحرب على جميـع العقبات والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية التي تُبطِئُ به عن الكمالات من حقدٍ وحسدٍ وأنانيةٍ وغرورٍ وكِبرٍ وفخرٍ وأمثالها من الأمور التي جُبلت عليها النفسُ الأمّارة بالسوء، فهذا الجهاد عسيرٌ وشاقٌّ ولهذا سُمّي بالجهاد الأكبر.

والإنسـان طالما هو في حَومَةِ الجهـاد المادّي الأصغر لا يجد فرصة -في أغلب الأحيان- للتفكير في نفسه، وهذا هو الخطرُ الأول، أما الخطرُ الثانـي فهـو الانحلال والفسـاد الـذي يظهرُ جليًّـا عندما يتخلّى الإنسـان عن الجهادِ الأصغر.

فالشخص المعرّض لمثل هذا الموقف تحيطُ به الأفكارُ الفاسدة من جهاته الأربع، وتتعرّض حياته المعنوية إلى الشلل، ولهذا يُصبح من الصعوبة بمكان أن يحافظ الإنسان على نفسه من دون القيام بالجهاد المادي، ولهذا قال الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات "**رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ**"، إشارة إلى هذا الموقف العصيب للغاية.

والحديث الشريف يعني: أننا آمنا وشرُفنا بالجهاد والاشتراك في الغزوات، وربما غنمنا بعض الغنائم... وبعد ذلك ربما يسري إلى نفوسنا حبّ الدعة والراحةِ والارتخاءِ بل ربما يراود بعضَنا الشعورُ بشيءٍ من الإعجاب، فيتسرّب من نفوسنا الأمارة -بطرقٍ شتّى- إلى أرواحنا ويفسدها؛ بمعنى أن مخاطر مهلكة كثيرة تنتظرنا بعد الجهاد المادّي، فالنضال الذي سنخوضه بعد ذلك هو أصعب وأكثر جدّية من سابقه.

فالمخاطب بهذا الحديث الشريف -فضلًا عن الصحابة الكرام- هم الذين يأتون من بعدهم، وبالتالي فنحن منهم، ولهذا ينبغي أن نظلّ حذِرين جدًّا في استعمال هذا الميزان، فإن كان الإنسان يوجّه حركاته في الجهاد إلى الخارج فقط بعيدًا عن مراقبة النفس، فهذا يعني أنه على شفا حفرةٍ من الخطر الجسيم.

كان أرباب عصر السعادة كالأُسْدِ في ساحة الوغى، فإذا ما أرخى عليهم الليل سدوله تحوّلوا إلى عبّادٍ وزهّادٍ، تنثني أصلابهم بمثاني القرآن، يقضون ليلهم في عبادة وذكر الله تعالى، فَيَصِلُون كلالَ ليلهم بكلالِ نهارهم.

فـإن كان الأمر هكذا فإن اعتبار الجهاد المادّيّ هو كلّ شـيءٍ، وغضّ الطـرف عـن الجهاد الأكبر أو هدم أهمّ ركنٍ في الدين؛ أي الجهاد الأكبر، وتحويله إلى رهبانيّة ليس إلا خيانة لروح الدين، وما حياة سـيد الأنام ﷺ وصحابته ﷺ بخافيةٍ عنا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ: "**مَـنْ رَجُـلٌ يَكْلَؤُنَا لَيلَتَنَـا هَذِهِ؟**" فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِـنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَـارِ، فَقَـالَا: نَحْـنُ يَا رَسُـولَ اللهِ، قَالَ: "**فَكُونُـوا بِفَمِ الشِّـعْبِ**"، قَالَ: "وَكَانُوا نَزَلُوا إِلَى شِعْبٍ مِنَ الْوَادِي"، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ، قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيلِ أَحَبُّ إِلَيكَ أَنْ أَكْفِيَكَهُ؟ أَوَّلَهُ أَو آخِرَهُ؟ قَـالَ: اكْفِنِـي أَوَّلَـهُ، فَاضْطَجَـعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَـامَ، وَقَامَ الْأَنْصَـارِيُّ يُصَلِّي، وَأَتَى الرَّجُلُ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ الْقَومِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَـهْمٍ آخَرَ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَـهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُـمَّ رَكَـعَ وَسَـجَدَ، ثُـمَّ أَهَبَّ صَاحِبَـهُ، فَقَالَ: اجْلِـسْ فَقَدْ أُوتِيـتَ، فَوَثَبَ، فَلَمَّـا رَآهُمَـا الرَّجُـلُ عَـرَفَ أَنْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ فَهَـرَبَ، فَلَمَّـا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَـا بِالْأَنْصَـارِيِّ مِـنَ الدِّمَاءِ، قَـالَ: سُـبْحَانَ اللهِ، أَلَا أَهْبَبْتَنِي قَـالَ: كُنْتُ فِي سُـورَةٍ أَقْرَؤُهَا، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا، فَلَمَّا تَابَـعَ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَأُرِيتُكَ، وَايْمُ اللهِ لَولَا أَنْ أُضَيِّـعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُـولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ، لَقَطَـعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا، أَوْ أُنْفِذَهَا"[٥٢].

بمعنـى أن الاطمئنان وسـكينةَ القلـب قد غمراه، وكأنّ القـرآنَ يتنزّل عليـه وهـو يتلوه فـي الصـلاة، وكأن جبريل ﷺ ينفثه في روعه، فينتشـي بنشوة الوجد حتى لا يجد أيّ أَلَـمٍ للسهم الذي انغرزَ في جسده.

(٥٢) **مسند الإمام أحمد**، ٥١/٢٣.

وهـذا هو موقـفُ من جمـعَ بين الجهادين، الأصغـر والأكبر، بل هذا هو الوجه الحقيقيّ للجهاد.

ولقد اتّحد في شـخصِ النبيّ ﷺ أعلى وأرقى نقطةٍ من كِلا الجهادين فـكان ﷺ أنموذجًـا ومثالًا للشـجاعة فيَروي سـيدنا عليّ الكـرّارُ ﷺ وهو البطل الشجاع باعتراف الجميـع ويقول: "كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَومُ الْقَومَ، اتَّقَينَا بِرَسُولِ الله ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ القَومِ مِنْهُ"(٥٣).

ومثلًا في غزوة حنين "...طَفِقَ رسولُ الله ﷺ يَرْكُض بَغلَتَه قِبَلَ الكُفّار قال عبّاسٌ وأنا آخذٌ بلجام بَغلة رسـول الله ﷺ أَكُفُّها إرادةَ أنْ لا تُسْـرِعَ... وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطّلب يقُودُ به فنزل فاستَنْصر وقال:

أنا النّبيُّ لا كذِبْ * أنا ابنُ عبدِ المُطَّلب

قال الراوي: "كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ"(٥٤).

فهذا المثال الرائـع ﷺ والأنموذج الكامل للشجاعة والإقدام والبطولة فـي ميـدان المعركة، أما في ميـدان العبادة فكان في منتهـى العبودية حتى يُسـمـع لصـدره أزيزٌ كأزيز المِرْجَلِ من البكاء، ويدفـع مَن حوله إلى رقّة القلـب كلّما سـكب الدموع، وكان يصوم أيّامًـا حتى يُقال إنه لا يُفطر، بل كان يصـوم حتـى صوم الوصـال، وكان يقيم الليل كلّـه أحيانًا حتى تتورّم قدمـاه، فعَـنْ عَائِشَـةَ ﷺ: أَنَّ نَبِـيَّ الله ﷺ كَانَ يَقُـومُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّـى تَتَفَطَّرَ قَدَمَـاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَـةُ ﷺ: لِـمَ تَصْنَـعُ هَذَا يَا رَسُـولَ الله، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا!**"(٥٥).

(٥٣) **مسند الإمام أحمد**، ٤٥٣/٢.

(٥٤) **صحيح مسلم**، الجهاد والسير، ٧٦-٧٩.

(٥٥) **صحيح البخاري**، تفسير القرآن، سورة الفتح، ٢.

تأمّلوا إنسانًا يعتكِفُ متخفّيًا في غار "ثور" من دون مبالاة لحيّات أو هوام، وعندما يبلغ المشركون بابَ الغار يجزع سيدنا أبو بكر ﷺ خشيةَ أن يطّلع عليهم أحد، فيقول له رسول الله ﷺ في منتهى الاطمئنان والسكينة: "**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا!**"(٥٦).

فهذا الإنسان الذي لا يعرف معنى الخَوف أبدًا عندما يسمع القرآن يرقّ قلبه حتى تنهمر الدموع منه وتكاد تتقطّع أنفاسه، فعَنْ عَبْدِ الله ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: "**اِقْرَأْ عَلَيَّ**"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آقْرَأُ عَلَيكَ، وَعَلَيكَ أُنْزِلَ، قَالَ: "**نَعَمْ**"، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/٤١)، قَالَ: "**حَسْبُكَ الآنَ**"، فَالْتَفَتُّ إِلَيهِ، فَإِذَا عَينَاهُ تَذْرِفَانِ(٥٧).

إنه إنسان القلب الحيّ والضمير اليقِظ، وهو السابق الأول دومًا في الجهاد المادّيّ والمعنوي، فحينما يحثّ أمته على الاستغفار يكون هو في المقدمة ويقول: "**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ فِي اليَومِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**"(٥٨).

إن الذي يظفرُ في الجهاد الأكبر فلا بدّ وأن يفوز بالجهاد الأصغر غالبًا، غير أنه لم يُر قطُّ أن من خسرَ الجهادَ الأكبرَ قد فازَ بالجهادِ الأصغرِ، وحتى وإن استطاع أمثال هؤلاء الوصول بالخدمة والعمل إلى مرحلة معينة فمن المتعذّر عليهم الوصولُ إلى النتيجة المنشودة.

عن السيدةِ عائشة ﵂ قالت: لما كان ليلةٌ من الليالي قال النبي ﷺ: "**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيلَةَ لِرَبِّي**" (يا له من إنسان غايةٍ في اللطف لدرجة

(٥٦) **صحيح البخاري**، المناقب، ٣٠؛ **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ١.
(٥٧) **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، ٣٣؛ **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٤٧-٢٤٨.
(٥٨) **صحيح البخاري**، الدعوات، ٣.

أنـه يسـتأذن زوجَتَهُ فـي قيامه للتعبّـد لربّه! ولا غَـرْوَ ولا عجب فالأصالةُ تجري في عروقه ﷺ) قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، فَقَامَ فَتَطَهَّـرَ، ثُـمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمْ يَـزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، ثُـمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَـكُورًا لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** (سـورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٩٠)"[٥٩].

وأحيانًـا كان رسـول الله ﷺ يقـوم إلى عبادتـه دون أن يوقظَ زوجته أو يسـتأذنها؛ فعَـنْ عَائِشَـةَ ﷺ قَالَـتْ: فَقَدْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ لَيلَةً مِـنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْـتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيهِ وَهُوَ فِي الْمَسْـجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُـوَ يَقُولُ: "**اللهُمَّ أَعُـوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَـخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ**"[٦٠].

ها هو رسول الله ﷺ، وها هو جهاده الأكبر، وذلك هو عمقه المعنوي، فإن كان ﷺ هكذا أيمكنُ أن يكون صحابته غير ذلك؟ فلا بدّ من التشبّه به حتى يتسنّى الفوز بالقرب منه، ولقد كان الصحابة ﷺ على وعي تامٍّ بهذا الأمـر، حتـى كان منهم من أمثال "ثَوبَـان" ﷺ الذي خطر بباله يومًا مفارقة الرسول ﷺ فانقطعت شهيّته واستولى عليه الهمّ والغمّ.

ورُوي أن "ثوبان" مولى رسول الله ﷺ كان شديدَ الحبّ لرسول الله ﷺ قليـلَ الصبـر عنه، فأتاه ذاتَ يومٍ وقد تغيّر لونـه، يُعرف الحزن في وجهه،

(٥٩) صحيح ابن حبان، ٢/٣٨٧.
(٦٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢.

فقال له رسول الله ﷺ: "**مَا غَيَّرَ لَوْنَكَ؟**" فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك أستوحشُ وحشةً شديدة حتى ألقاك، وإني لأذكرك فما أصبرُ حتى آتي فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلتَ الجنة رُفِعْتَ مع النبيّين، وإن دخلتُها لا أراك، فأنزل الله تعالى:

﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/٦٩) فدعا به فقرأها عليه[٦١].

وهذا مقتضى قول النبيّ ﷺ: "**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**"[٦٢].

إن محبّة المرء تكون بالتشبُّه به، وجعلِ حياته أنموذجًا يُحتَذى به ولا يُحادُ عنه، والصحابة الكرام كانوا حقًّا على هذا الشعور تمامًا.

كان سيدنا عمر الفاروق ﷺ يتلظّى شوقًا طوال حياته للفوز بمصاهرة رسول الله ﷺ، وقد أراد أن يحقق هذا الأمر عن طريق الزواج بالسيدة فاطمة ﷺ، لكنها كانت من نصيب سيدنا علي كرم الله وجهه، فلما لم يجد عمر ﷺ بدًّا تزوج من أم كلثوم ابنة سيدنا علي ﷺ، ولو أراد لتزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطي ولن يجد في هذا عناءً أو مشقةً، بل إنّ ذلك في متناول يده، غير أن همّه لم يكن مجرّدَ الزواج بل توثيقَ الصلةِ برسول الله ﷺ، ولذا كان يسعى حثيثًا خلف حسبٍ ونسبٍ ربما يكون في صالحه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

حقًا لقد كانت علاقته المعنويّة برسول الله ﷺ وطيدةً للغاية وفي أعلى درجاتها، ولقد رُئيَ النبي ﷺ وأبو بكرٍ عن يمينه وعمر عن شماله

(٦١) أبو الليث السمرقندي، **بحر العلوم**، ١/٣١٦؛ الواحدي: **أسباب النزول**، ١/١٦٠.

(٦٢) **صحيح البخاري**، الأدب، ٩٦؛ **صحيح مسلم**، البر، ١٦٥.

وهـو يقول: "**هَكَذَا نَكُونُ ثُمَّ هَكَـذَا نَمُوتُ ثُمَّ هَكَذَا نَبْعَثُ ثُمَّ هَكَذَا نَدْخُلُ الْجَنَّةَ**"(٦٣).

غير أن سـيدنا عمر ﷺ كان يريد أن يوثّق صلته المادية أيضًا برسـول الله ﷺ، ومن هذا المنطَلَقِ زوّجَ ابنته السـيدة حفصة ﷺ بالنبيّ ﷺ، وتزوج هو بحفيدة سيدنا رسول الله ﷺ؛ أم كلثوم ابنة علي وفاطمة ﷺ، ولقد سعد سيدنا عمر الفاروق ﷺ أيّما سعادةٍ بهذه الصِّلة والمصاهرة.

ذات يـوم قالـت لـه ابنته أمنـا حفصـة ﷺ: "أَلَا تَلْبَـسُ ثَوبًا أَلْيَـنَ مِنْ ثَوبِكَ، وَتَأْكُلُ مِنْ طَعَامٍ أَطْيَبَ مِنْ طَعَامِكَ هَذَا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيكَ الْأَمْرَ، وَأَوسَـعَ إِلَيكَ الرِّزْقَ؟ فَقَالَ: سَأُخَاصِمُكِ إِلَى نَفْسِكِ، فَذَكَرَ أَمْرَ رَسُولِ الله ﷺ وَمَـا كَانَ يَلْقَـى مِنْ شِـدَّةِ الْعَيْشِ، فَلَمْ يَزَلْ يَذْكُـرُ حَتَّى بَكَتْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَأُشَـارِكَنَّهُمَا فِي مِثْلِ عَيشِهِمَا الشَّـدِيدِ لَعَلِّي أُدْرِكُ مَعَهُمَا عَيشَهُمَا الرَّخِيَّ"(٦٤).

ونحـن نُطْلِـقُ على هـذا الجهاد الأكبر أو الجهـاد المعنوي، وهذا هو سـبيل رسـول الله ﷺ والصحب الكرام ﷺ، إنهم في حضور دائمٍ مع الله واتصـالٍ مسـتمرٍّ وثيقٍ معه، كانت عباداتهـم وأذكارهم من الكثرة والعمق بحيث من يشاهدهم يحسب أن ليس لهم شغل يشغلهم غير العبادة والذكر، هذا مـع كمال إيفاء أمورهم الدنيوية والمعيشية حقّهما من الاهتمام.

نعـم، إنهـم يمثلون خلاصة الإخلاص ولبّه، إذ ما كانوا يعملون عملًا إلّا وفـق مرضاة الله سـبحانه، فـكان كلّ عملهم في مراقبة عميقة دائمة لله، فعـن عُمَرَ المَخْزُومِيّ قَالَ: "نَادَى عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ ﷺ بِـ"الصَّلاةُ جَامِعَةٌ"،

(٦٣) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٢٠٥/٢٢.

(٦٤) البيهقي: **شُعب الإيمان**، ١٦٨/١٣؛ الحاكم: **المستدرك**، ٢١١/١.

فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ وَكَثُرُوا؛ صَعِدَ الْمِنْبَرَ؛ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! لَقَدْ رَأَيتُنِي أَرعَى عَلَى خَالاتٍ لِي مِن بَنِي مَخزُومٍ، فَيَقْبِضْنَ لِي القَبْضَةَ مِنَ التَّمْرِ أَوِ الزَّبِيبِ، فَأَظَلُّ يَومِي وَأَيُّ يَومٍ، ثُمَّ نَزَلَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ: يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِينَ! مَا زدت على أن قئمت نَفْسَكَ! -يَعْنِي: عِبْتَها- فَقَالَ: وَيحكَ يَا ابْنَ عَوفٍ! إِنِّي خَلَوتُ؛ فَحَدَّثَتنِي نفسي؛ قالت: أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَمَنْ ذَا أَفْضَلُ مِنْكَ؟ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعَرِّفَهَا نَفْسَهَا"[٦٥].

وعن عبد الله بن عمر ﷺ أن أباه حملَ قربةً على عاتقه فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين ما حَمَلَكَ على هذا؟ قال: إن نفسي أعيتني فأردت أن أذلها[٦٦]. وَكَانَ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز ﷺ إِذَا كتبَ كتابًا فاستحسنَ لفظَهُ مزَّق الكتابَ وغيّرَه[٦٧] حتى لا يقع في فخّ الشرور النفسية وأمراضها.

إن جهاد هؤلاء الأطهار الذين بلغوا الكمال الروحي وتكاملوا به لن يبقى بلا ثمر، لأنه في سبيل الله وعلى هذا فالذين يتباهون ويتفاخرون بأعمالهم باسم الجهاد هنا وهناك، ولم يصلحوا شؤونهم الداخلية ولم ينجوا من الرياء والعجب والغرور والكبر؛ أعمالهم تخريبًا أكثر من كونها تعميرًا، بل حتى لو بلغوا مبلغًا معيّنًا في مرحلة ما؛ فلن يبلغوا الغاية والنتيجة قطعًا.

وهناك آيات وأحاديث تجمع بين الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر، ومن ذلك سورة النصر ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ (سورة النَّصْرِ: ١١٠/١-٣).

---

(٦٥) الدينوري: **المجالسة وجواهر العلم**، ٤٦٦/٤؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣١٥/٤٤.

(٦٦) محب الدين الطبري: **الرياض النضرة**، ٣٨٠/٢.

(٦٧) القشيري: **الرسالة القشيرية**، ص ٢٤٧.

فهذه السورة تُبَشِّرُ بمجيء نصر الله وفتحه حينما يدخل الناس أفواجًا في دين الله، وهذا ما حصل بالفِعلِ، فحينما أُزِيلَت العوائقُ أمامَ الجهاد الأصغر من خلال الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ وتبليغِ الحقِّ، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا جاء الأمر الإلهي: "**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**"؛ لأن جميع هذه الأمور ما هي إلّا إحسانًا ونعمةً إلهيّةً بحتةً، إذ هو الذي خلقها كلّها، فتأمّلوا هذا وسبّحوا الله وقدّسوه تعالى.

فعلى الإنسان الذي انتصرَ على الأعداء في الخارج، أن ينتصِرَ على عدوّه في الداخل أيضًا وهو نفسُه التي بين جنبيه، ليتمّ جهادُه ويكتمل.

وفي ضوء هذا تقول أمنا عائشة ﵂: كان الرسول ﷺ بعد نزول هذه السورة يردّد باستمرار: "**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيكَ**"(٦٨).

وفي حديث آخر يجمع الرسول ﷺ هذين الجهادَين معًا فيقول: "**عَينَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَينٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَينٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله**"(٦٩).

إن جهاد مَن يسهر على الحدود والثغور ويرابط في ميدان الحرب، وفي أخطر المواقع جهادٌ مادّي، فالذي يؤدّي هذا الجهاد لا تمسّ النارُ عينَه، وعينٌ أخرى تحقّق الجهاد المعنوي الأكبر، وهي العين التي تبكي من خشية الله، فهاتان العينان سواءٌ في نَيل البشارة النبويّة.

نعم، يستحيلُ لدى الرحمة الإلهية ووعد الله القاطع أن تمسّ النار هاتين العينين كاستحالة عودة اللبن إلى الضرع! قال ﷺ: "**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ**

(٦٨) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٨.

(٦٩) سنن الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢.

بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ"[٧٠]، وإنّ واقعَ من يجاهد في سبيل الله أشعثَ أغبرَ لا يختلف عن هذا، فقد بشّر الرسول الكريم ﷺ في أحاديث كثيرة أن النار لا تمسّ من اغبرّت قدماه في سبيل الله، فعن عَبَايَة بْن رِفَاعَةَ قَالَ: أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى الجُمُعَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**"[٧١].

نعم، لا تمسّ النار تلك الأعين التي تذرف الدموع ساخنة من خشية الله، وتحرس وتراقب مواقع دخول العدو مرابطةً على ثغور الأمّة، فالذي ينذر نفسه لهذا النوع من الرباط، ويجابه المهالك التي تعصف بالبلاد، ويتصدى لها بإنشاء مؤسّسات يتربى فيها أبناء أمته بمستوى يليق بالإنسان، ويتجافى عن حظوظ نفسه وأذواقها لأجل الآخرين، ويهتم براحة الآخرين وعيشهم الهنيء؛ فهؤلاء لا تمسّ أعينَهم النارُ أبدًا.

وعلى هذا فالذين يرون الجهاد جدالًا ونقاشًا هنا وهناك؛ إن لم يراقبوا أعمالهم ويقوّموها بموازين الجهاد الذي ينادون به؛ فإنهم لا يعملون إلّا لقتل الوقت وخداع أنفسهم، فالذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم، ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة، ولم يُمرّغوا أنفَ الرياء، ولم يسحقوا نزعةَ الفخر والخيلاء تحت أقدامهم، ولم يقتلعوا من أرواحهم شوكة الكِبر والرياء؛ فأعمالهم لا تُجدي فتيلًا سوى إحداث القلاقل والاضطرابات.

ومن جهة أخرى فالذين ينسحبون من الميدان، ويقبعون في زواياهم، وينظرون إلى الجهاد نظرةً يتيمةً من حيثيّته المعنويّة قائلين: لا يصحّ الانشغال بالغير قبل جهاد النفس... فهؤلاء الذين يَرَون إحرازَ درجات

(٧٠) **سنن الترمذي**، فضائل الجهاد، ٨؛ **سنن النسائي**، الجهاد، ٨.

(٧١) **صحيح البخاري**، الجمعة، ١٦؛ **سنن الترمذي**، فضائل الجهاد، ٧؛ **سنن النسائي**، الجهاد، ٩.

معنوّية لأنفسهم ولا يعملون على إزاحة العوائق بين الناس ورب الناس، ولا يشاركون في عمليات إيصال العباد إلى ذواتهم، هم بلا شك على خطإ واضح، لأنّهم يخلطون الإسلام بالروحانية، إن الفكر المهيمن على أولئك القائلين بإصلاح أنفسهم قبل دعوة الآخرين مكتفين بالجانب المعنوي من الجهاد فحسب هو: أن كل إنسانٍ يحاسَبُ بمفرده "فكل شاة برجلها ستناط" كما هو المثل العامي المشهور، وإن من لم يُصْلِحْ نفسَهُ سيعجزُ على إصلاح غيره؛ لذا على المرء أن يلتفت إلى إصلاح نفسه أوّلًا.

فنقول لمن استهواه هذا الفكر: اعلم أن الإنسان حينما يظنّ أنه أنقذ نفسَه فقد وقع من فوره في أخطر دوّامة، فمن يطيق أن يدّعي خلاص نفسه والقرآن الكريم يقول: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: ٩٩/١٥). نعم، إن الإنسان مكلّفٌ بالعبادة حتى الرمق الأخير، فلا يستطيع أن يُحْجِمَ عن أي عمل كان متعلِّقًا بالعبودية لله، حتى يُرفع الستار ويُدعى إلى العالم الآخر.

فكيف يمكن لمن تُناط به دائمًا مهمة التكليف هكذا أن يقول إنه أنقذ نفسه؟

إذًا فإن جهاد الإنسان مع نفسه، وسعيَه لتطهيرها وتزكيتها من الأخلاق الرذيلة، ومحاولتَه إصلاحها وتقويمها؛ سيدوم ما دام فيه قلبٌ ينبض.

نحن إذًا مضطرّون إلى العيش الدائم بين الخوف والرجاء، فكما لا يخطر ببال المؤمن الاطمئنان إلى النتيجة فليس من صفاته القنوط أيضًا، إلّا أن الخوفَ لا بدَّ أن يكون أرجح في ميزانه في الدنيا، تأمّلوا عمرَ الفاروق ﷺ وهو يجودُ بأنفاسه الأخيرة؛ لَمَّا نَظَرَ إِلَيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ بَكَى،

فَقَالَ: "أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: تَشْهَدُ لِي بِذَلِكَ؟" قَالَ الراوي (وهو ابن عمر ﷺ): فَكَأَنَّهُ كَعَّ، فَضَرَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ مَنْكِبَهُ، فَقَالَ: "أَجَلْ، فَاشْهَدْ، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيفَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ إِسْلَامُكَ عِزًّا، وَوِلَايَتُكَ عَدْلًا، وَمِيتَتُكَ شَهَادَةً، فَقَالَ: لَا وَاللهِ لَا تَغْرُونِي مِنْ رَبِّي وَدِينِي، ثَكِلَتْ عُمَرَ أُمُّهُ إِنْ لَمْ يَرْحَمْهُ رَبُّهُ"(٧٢).

وعلى ذلك فمن الخطإ الجسيم أن نفسّر مسألةً تتطلّب جهدًا وسعيًا متزامنًا مع العمر كله على أنها عائقٌ ومانعٌ من الجهاد، وهذا أمر لا بدّ من الوقوف عنده كثيرًا.

وحمادى القول وخلاصته: إننا إذا تناولنا الجهاد بنوعيه الأكبر والأصغر كلّ على حِدة لَتَبَيَّنَ لنا أن أحدهما ينجم عنه الثرثرة والجدليّة والفوضى، والآخر ينشأ عنه الذل والمسكنة والخمول والكسل، أما الجهاد الحقيقي فهو ما يتأتّى بتوحيد كليهما معًا؛ وهذا هو مفهوم الجهاد عند الرسول ﷺ والصحابة ﷺ.

لم يفهم أحدٌ من المرشدين الحقيقيّين العظماء الذين ربّاهم الإسلام الجهادَ على وجهٍ واحدٍ من هذين الوجهين، فلم يتخلّفوا عن نشرِ الحقّ والصدع به قطّ حتى لو كانوا وراء قضبان السجون، بل أناروا ليلَهم كَنَهَارِهِم، ولم يرخوا عنان العلاقة القوية مع ربهم، ولم يهملوا قطعًا دائرة القلب مهما بلغت سعة خدماتهم، بل أصبح كل ما استشعروه في هذا المجال وسيلة لظهور ثمرة إيمانية جديدة لديهم، فعاشوا دومًا بشعور الإحسان الإلهي، مستحضرين مراقبة الله لهم كلَّ آن، ففازوا بعملهم هذا بالقرب منه ﷻ إلى أن شهِدوا أنّ الله تعالى هو بصرهم الذي يُبصرون به

(٧٢) أبو بكر بن الخلال: السنّة، ص ٢٩٤.

ويدَهم التي يبطشون بها... فبارك الله فيهم حتى عُدّ الفرد منهم بألف، ونمت أعمالهم وبورِكت مثلَ حبّةٍ أنبَتَتْ سبعَ سنابل في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبَّة.

إن إنساننا في الوقت الحاضر، إن كان يريد أن يجاهد في سبيل الله حقّ جهاده وبما يرضيه -وهذا ما يجب عليه- عليه في نفس الوقت الذي ينشرُ فيه الحقَّ ويُبلِّغ الحقيقة للآخرين أن يراقب نفسَه مراقبةً جادّةً ويحاسب رغباته حسابًا عسيرًا، وإلّا فهناك احتمال قويّ بأنه يخادع نفسه، وعند ذلك لا ينتفع بعمله ولا ينتفع به غيره.

على المجاهد أن يكون خالصًا مخلصًا صادقًا، يحمل من الإخلاص ما يجعله يُؤْثِرُ الله على كلِّ ما سواه، وبذلك يكون الجهاد مثمرًا وباقيًا، فهو بدلًا من أن يملأ عقولَ الآخرين بالغَثِّ والسَّمينِ من المعلومات، عليه أن يقرّ في قلوبهم وعقولهم الإخلاص وحسن النية وروح المحاسبة الداخلية والشعور بأن يكونوا من رجال القلوب.

نعم، الجهاد موازنة بين فتح الداخل والخارج، ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه، فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال جهاد أصغر، فإذا ما افترق أحدهما عن الآخر ينتفي معنى الجهاد عمليًّا، فيتولد من أحدهما الذلّ والمسكنة ومن الآخر العنف والإرهاب، ونحن الآن ننتظر ولادةَ روحٍ محمَّديّةٍ مجدّدًا، وهذا لا يمكن إلّا باتباع الرسول ﷺ في هذا الأمر كما في كلّ أمرٍ.

فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم! وما أسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضمّ العمل لإنقاذ غيرهم!

محنة التفرُّق وفتنة الخلاف الداخلي

سؤال: بأي شيءٍ نُمتحَن في الدنيا؟ هل نُمْتَحَنُ بفساد وحدتِنا وتفريقِ كلمتنا؟ وهل امْتُحِنَ الصحابةُ بعضُهم بِبَعْضٍ؟

الجواب: يقول الله تعالى في آية كريمة ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ**﴾ (سورة الأَنْعَامِ: ٥٣/٦)، إذًا فإن الناس يمتحنون بعضهم ببعض، ونستطيع درج هذه المسألة في عدّة نقاط:

الأولى: يُبعث من بين الناس نبيٌّ، ويكون إرسال هذا النبيّ امتحانًا للناس من حوله، وحدث هذا عند بعثة رسولنا ﷺ؛ لأن بعضَ الناس قالوا آنذاك: أنّى يُبْعَثُ يتيمُ أبي طالب نبيًّا وهو الفقير الذي لا يملك أتباعًا أقوياء، مع وجود مَن هو أولى منه مثل مسعود بن عروة في الطائف، أو الوليد بن المغيرة في مكة؟

ومع أن قريشًا قبيلة عريقة، لكنها ليست بأقوى القبائل؛ والنبي يجب أن يُبْعَثَ في أقوى القبائل لكي تستطيع قبيلته الدفاعَ عنه وحمايته.

كما قالوا: ﴿**مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا**﴾ (سورة الفُرْقَانِ: ٧/٢٥).

ولا يزال الامتحان قائمًا لبعض الناس حتى في وقتنا الحالي، إذ يقولون: كيف يكون مَن تزوج تسع زوجات نبيًّا؟

تتّفق كلّ هذه الأقوال وأشباهها في النقطة نفسِها؛ وهي أن الناس يمتحنون بعضهم ببعض، والامتحان هو غاية مجيء الناس إلى الدنيا، إذ تتمّ غربلتهم حتى يتميّز أصحاب الأرواح الطيبة عن أصحاب الأرواح الخبيثة، ولكي يتميز الماس عن الفحم، ويظهر بوضوح مَن يحمل روحًا شيطانيًّا ومَن يحمل روحًا ملائكيًّا، وهكذا تتحقّق الغاية من خلق الدنيا.

ولو لم يكن هناك مثل هذا الامتحان لما تميزت روح أبي بكر ﷺ الشبيهة بالماس عن روح أبي جهل السوداء سواد الفحم؛ أي لولا هذا الامتحان لما لمعت الحقيقة الأحمدية ولمَا ظهرت ولا انجلت ولا انقلبت إلى شمسٍ تبهر الأعين.

عندما تناول الرسول ﷺ الناسَ شبّههم بالمعادن "**خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ، إِذَا فَقُهُوا**"(٧٣)، فالإسلام يتناول الناس ويذيبهم ويشكّلهم مدّةً معيّنةً في بوتقات معيّنة، ثم يوحّدهم مع أرواحهم ليصلوا إلى ذواتهم، أي يُخرج الخاصّيّة الكبرى التي تكمن في ماهيّتهم من القوّة إلى الفعل، وهذه الخاصّيّة هي كون الإنسان مرآةً جامعةً لتجلّي أسماء الله.

ولكن المعادن تحتفظ على الدوام بخصائصها، فالذهب يبقى ذهبًا والفضّة تبقى فضّةً والنحاس يبقى نحاسًا، والفرق هو في تخلّص هذه المعادن من شوائبها لتكون معادن صافيةً ونقية، والمحن والابتلاءات هي عملية تخليص معدن الإنسان وتصفيته مما علِقَ به من الأشياء الغريبة عنه، والوصول بكلّ إنسانٍ إلى أعلى قمّة في استعداداته وقابليّاته.

الثانية: إن الشيطان يقوم بتزيين بعضِ الشرور فيغوي بها أناسًا لا تتوقّع غوايتهم، وقد يوجد بين هؤلاء الذين يصبحون آلةً في يد الشيطان أشخاصٌ

(٧٣) **صحيح البخاري**، أحاديث الأنبياء، ١٠؛ **صحيح مسلم**، الفضائل، ١٦٨.

ذوو بنيةٍ معنوية عالية المستوى، إنّ تزيين السوء وتقبيحَ الخير قد يبدو عملًا بسيطًا ولكنه عملٌ كسبيّ وتخريبيّ كبيرٌ بحيث يمكن نسبته إلى الشيطان؛ ولهذا أطلق عليه صاحبُ الشريعة اسمَ «المزيّن»؛ أي الذي يزيّن السوءَ.

كما نُمتحن من قبل أهواء النفس والشيطان بإثارة شعور المنافسة في الأرواح، حتى إن الشعور بالغبطة الذي يبدو شعورًا بريئًا لأول وهلةٍ ويسوق الناس للتنافس في خدمة الدعوة قد يصبح ابتلاءً إن انقلبَ بعد ذلك إلى شعورٍ بالمنافسة الصِّرْفة.

فمثلًا إن أصبحت جهود شخصٍ ما وسيلةً لهداية الناس أكثر من شخص آخر، فتمخّض عن هذا أنْ حَسدَ الأخيرُ الأوَّلَ أو غبطه؛ فعليه أن يدرك بأنه في امتحانٍ كبير.

ومع أن الله تعالى يقول: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (سورة الشُّورَى: ٤٢/٥٢)، فإنه يقول في آيةٍ أخرى ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ (سورة القَصَص: ٢٨/٥٦)، إذًا فالله تعالى هو الذي يهدي مَن يشاء، إن المرشدَ يدلُّ على السبيل القويم ويجعل منه جادّةً كبيرةً عند اللزوم، ويضيء هذا السبيلَ بمصابيحَ قويّةٍ وكشّافات ضوئيّة كبيرة لكي يُقبِل الناس على هذا الطريق القويم ويبلّغوا الحقّ ولا ينحرفوا عنه، ولكن -في النهاية- الله هو الذي يهب الإيمان للقلوب، وهو "المعنى الحاصل بالمصدر" من الهداية، أما "المعنى المصدري" فهو ما وُكّل لإرادتنا، ولا يوجد له "وجود خارجيٌّ"، أي لا يمكن أن نقول إنه "موجود" فيما يتعلق بالقدرة والإرادة، بل له "وجود علميٌّ نسبيٌّ".

ومن جملة هذه الامتحانات أن الله يهب لأحدهم فصاحة وقوة بيان بحيث يستطيع هذا الشخص إيضاح حقائق القرآن بأفضل أسلوب

وبأجمل بيان، فيحسده بعضهم، ويتحسر قائلًا "لماذا لم أوهب أنا مثل هذه المهارة؟" فهذا أيضًا امتحانٌ من جملة الامتحانات وعاقبته وخيمة.

صحيح أن الله تعالى اصطفى جميع رسله، ولكنه أيضًا فضّلَ بعض هؤلاء الرسل على بعضهم ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٢٥٣)، فهذه الآية تثبت ما ذكرناه، فالله تعالى خصَّ بعض رسله بفضائل معينة ورفعهم إلى درجات لا يبلغها ملائكةٌ وأنبياء آخرون، إلّا أن فضيلة النبوة في معناها العام فضيلة لا تدانيها أيّ فضيلة أخرى، وعدم وجود بعض الفضائل الخاصة عند بعض الأنبياء دون الآخرين لا تجرح نبوَّتهم أبدًا.

من الممكن الإتيان بأمثلةٍ أخرى كثيرة حول سؤال لماذا؟ الذي يحمل معنى الشكوى والحسد: لماذا لا أستطيع أنا تقديم خدمة أكثر للدعوة؟ لماذا لا أستطيع القيام بإعطاء مَعُونَاتٍ مادّيّةٍ أكثر؟ لماذا لا يُصغي إليّ خلق أكثر؟... وغير ذلك الآلاف من الأسئلة من هذا القبيل، والحقيقة أن مثل هذه الأسئلة ليست إلّا ضربات موجهة إلى صدرِ وحدةِ الصفّ، والله تعالى يدعو المؤمنين منذ البداية إلى الابتعاد عن جميع الطرق المؤدية إلى النزاع، والآية الكريمة ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٤٦) تتناول هذا الموضوع بالتفصيلِ.

إنّ هذه الآيةُ تخاطِب المؤمنين فتوصيهم قائلةً: لا تدخلوا في أي نزاعٍ مادّي أو معنويّ، بل حاولوا الاتحاد حول النقاط المشتركة التي تسمّونها فيما بينكم "خيط الوصال"، ولا تقعوا في نزاعٍ حتى لو كان حول أمرٍ إيجابي، ولا تدَعوا الحسد ولا التنافس ولا الغبطة أن تقودكم إلى النزاع، وإلّا فشلتم وذهبت قوتكم، إنّ ثمرة العمل الفردي تبقى في مستوى الفرد،

أما الأعمال المنفذة في ظلّ وحدة الجماعة فتُكافأ برحمة الله تعالى العامة، وهكذا يكتسب كلُّ فرد ثوابَ جماعةٍ كاملة.

أجل، إن كلّ عبادة فردية تثمر نتيجةً فردية، ولكن في مقابل ذلك فإن العبادة الجماعية والشراكة في رفع الأيدي إلى السماء بالدعاء، ونبض القلوب معًا، والمعاناة الجماعية وطلب الشيء نفسه جماعيًّا؛ يؤدي إلى تنزّل الرحمة الإلهية الشاملة على الجماعة بأسرها، وهذا ما لا يمكن الوصول إليه فرديًّا، ففي العمل الفردي كلّ ما يستطيعه الفرد هو أن يصبح ربًّا لأسرته، ولكن إن نبضت القلوب جماعةً واستقامت صفوف الجماعة وتساندت اكتسبتْ هذه القوة بُعدًا عظيمًا على مستوى الفرد والمجتمع، ويشعر كلّ فرد ضمن مئات الآلاف من الأفراد الموجودين تحت هذه القبة المتماسكة للجماعة بأنه في حمايتها ورعايتها ويمثل قوة الجماعة المنسوب إليها التي تحميه من القوى الخارجية، فإن انفصل الفرد عن هذه الوحدة وعن هذا الصف وحاول تشكيل ملجإٍ فرديٍّ خاصّ به، زالت تلك القبة الإلهية العريضة عرض القبة السماوية وتحولت إلى مظلّة صغيرةٍ يرفعها الفرد فوق رأسه، ثم تظهر وتتجلّى حقيقة الحديث "**كَمَا تَكُونُوا كَذَلِكَ يُؤَمَّرُ عَلَيْكُمْ**"(٧٤)، أي سرعان ما تتجرّع الأمة نتائج هذه الحقيقة المؤلمة.

فإن كان المجتمع مجتمعًا صالحًا وعلاقته قويّةٌ مع الخالق ﷻ عند ذلك سيحترمنا الآخرون وتتنسمون حينذاك الألطاف اللدنّيّة كما قال سيدنا رسول الله ﷺ لصديقه أبي بكر ﷺ في الغار؛ ومن ثمّ فإن الله سيكون الثالثَ إن كنا اثنين والرابعَ إنْ كنا ثلاثة، والخامسَ إنْ كنا أربعة،

(٧٤) البيهقي: **شعب الإيمان**، ٤٩٢/٩.

والسادسَ إنْ كنا خمسة، والسابعَ إنْ كنا ستة... إلخ؛ لأن الله تعالى وعد بنصر أوليائه وحمايتهم.

ولكن إن تصرّفنا بشكلٍ منفرد؛ أي حتى لو كنا اثنين ولم نتعاون ولم نتساند كما يجب، فإن الله تعالى سيحرمنا من البركة التي يُنزلها على الشخصية المعنوية للجماعة أي الشخصية المعنوية الحاصلة من ترابط أفراد المجتمع، أي لن يكون الثالث لنا في هذه الحالة ولن يساعدنا، وهذا يعني أننا نترقّى بمعيته، أي إن الفرد الأول والثاني والثالث... إلخ، يجب أن يكونوا أفرادًا أصحاء ويشكّلوا مجتمعًا صحّيًّا لكي ينصر الله تعالى مثل هذا المجتمع ويأخذه تحت حمايته الخاصّة وتحت عنايته، فيتخلص الفرد من عبء وقاية نفسه بمظلّته الخاصة؛ لأنه يدخل ضمن حمايةٍ وأمن سماوي.

أجل، إن التعايش في جماعة مع الناس عاملٌ فعّالٌ ووسيلةٌ كبيرةٌ للحصول على التوفيق الإلهي، فلو قضى إنسانٌ حياتَه منعزلًا في مكانٍ ما، أو على قِمّة جبل ما، وقضى وقته في الصلاة والصيام، وأنفق كلّ ما في يده على المساكين، وأدّى الحجّ وذرف الدموع على الحجر الأسود، وصلى صلواته في مكة أو في الروضة المطهرة التي أجر الصلاة فيهما يحسب أضعافًا مضاعفة؛ فسيظلّ الأجر والثواب الذي سيناله من الله تعالى في المستوى الفردي.

ولكن ما إن يضع يده مع يد الجماعة ويوسّع قلبه على قدْرِ الأمة والإنسانية حتى تتنزّل الرحمة الإلهية بقدر هذه السَّعَةِ، والقرآن الكريم يقول وهو يتحدّث عن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (سورة النَّحْلِ: ١٦/١٢٠)، أي إنه نظر إلى إبراهيم عليه السلام وكأنه أمّة كاملة تصويرًا لهمّته العالية.

فكم يكون لطف الله تعالى وعونه كبيرًا لمجتمع لا يحتوي سوى ذوي الهِمَمِ العالية، ومع أن هِمَمَ المؤمنين تكون عاليةً إلا أن التوفيقَ غالبًا ما يُجانب الناس عند امتحان بعضهم ببعض؛ إذ نرى أن حسابات شخصية صغيرة وبسيطة تفسد النظام العام، بل وتُرجَّح على أسباب الوحدة والاتفاق وجمع الكلمة الذي يوازي بحُرْمَتِهِ حُرْمَةَ الكعبةِ المشرفة، وهذا الأمر يعوق ويحول دون تنزّل العناية الإلهية التي يحتمل مجيئها في كلّ آن.

كان القدماء يقولون "بقدر الكد تُكتسب المعالي"، ومع أن هذا ليس بحديثٍ إلّا أنه مثل جوامع الكلم؛ أي إنّ جميع النجاحات -المادية منها والمعنوية- تكون متناسبةً مع المشقات ومع الجهود المبذولة في سبيلها. أجل، فمن يدري مقدار الألم والمعاناة التي تتحملها البَذرة تحت التربة حتى إبراز رأسها كنبتةٍ فوق التراب، إذ تنشق وتتحمل آلام اختراق التربة وتستعدّ لاستقبال أشعّة الشمس وتتهيّأ لها، فكلّ هذه الجهود والآلام هي آلام الولادة والنضال في سبيل الوجود والانبعاث، لذا فهي مهمّة جدًّا.

كلّما انهمرت علينا نعم الله تعالى وأفضاله زادَ ثِقَلُ مهمّتنا واشتدّت الامتحانات، وعلينا أن ندرك تمامًا أن هذه المرتبة العالية التي خصّنا بها الله تعالى بكرمه لا تعود لفضيلةٍ أو قابليّةٍ شخصية فينا أبدًا، وإنما يجب أن ننظر إليها كَلُطْفٍ إلهيّ ونقيّمها على ذلك، إن وصور الجمال والخير تمرّ بنا دائمًا، وعندما تمرّ تقوم بطَرْقِ أبوابنا؛ لأننا في حاجةٍ إليها أكثر من الآخرين ولا نستطيع أن نكون مظهرًا لهذا الجمال بأشخاصنا، وكلّ هذه الجماليات تنعكس علينا كانعكاس أشعّة الشمس على قطرات المياه.

وعلينا ألا ننسى أن هذا اللطف والكرم الإلهي الذي ينهمر من فوق رؤوسنا وينفذ إلى أعماق كياننا إنما يأتي باسم الجماعة، إذ لا يستطيع أحد أن يدّعي أنه صاحبُ الفضل في هذا.

الثالثة: حبُّ المال والمنفعة المادية من صور الامتحان في حياة الجماعة، والنزاعاتُ والخصومات الموجودة بين السياسيين تنبع من هذه الناحية ومن هذه الأفكار السلبية والمخرّبة التي تستند إلى النزاع حول المنافع المادية؛ ذلك لأن هناك أعينًا كثيرة ترنو إلى مناصب معينة، وهناك أصحاب أهواء وشهوات لا يعرفون الشبع يلهثون وراء منافعهم ومصالحهم الشخصية؛ الأمر الذي يؤدّي إلى أن تنقلبَ الوحدة إلى اختلاف، والاتحاد والتعاون إلى تفرقة وخصام، بينما يجب أن تؤدَّى جميع الأعمال وجميع التضحيات لوجه الله تعالى دون انتظار جزاءٍ أو شكورٍ من أحد، ولو تم هذا لاجتاز الكثيرون امتحان المنافع المادّية المؤدّية إلى الشقاق والخصام.

لقد أجبنا بهذا الجواب لأن السؤال كان يدور حول الامتحان المَنُوطِ بالوحدة ورصّ الصفوف؛ لأنه لا يمكن تحديد صور وأشكال الامتحانات التي يتعرّض لها الإنسان، ولا يمكن تعدادها هنا واحدة واحدة.

ويسألُ السائلُ عما إذا تعرّض الصحابة الكرام إلى امتحان بعضهم ببعض، لذا فلنقِفْ هنا قليلًا ونقول:

ما كان من الممكن إعفاءُ الصحابة من مثل هذا الامتحان؛ ذلك لأنهم نالوا أعلى المراتب في الحياة المعنوية فكان لزامًا عليهم أن يتعرّضوا إلى أصعب امتحان، ولا سيما أن الاجتهادات العديدة التي ظهرت في العهود التالية حول كيفية إدارة الدولة قد صعّبت من تلك الامتحانات وجعلتها

أشـدّ وطأة، ولكن مـع ثقل الامتحان وقسـوته لم ينحرف أيُّ صحابيّ عن التمـاس طريـق الحـق، وعندما تبيـن لبعضهم أنهم لم يكونـوا على الحقّ أغمدوا سيوفهم في ظرفٍ لم يكن من السهل أبدًا إغمادها.

لقد أدركت أمُّنا عائشـة ﵂ خطأها عندما وقفت أمام الإمام علي ﵁، وتذكّـرت أن رسـول الله ﷺ قـد أشـار بشـكلٍ ضمنـيٍ إلى هـذا الأمر قبل انتقاله، فركبت دابّتها ورجعت وهي نادمة أشدّ الندم(٧٥).

كان الزبير بن العوام ﵁ رجلًا شـجاعًا وشـهمًا، فلقد أَسْـلَمَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِـي سِـنِينَ، وَهَاجَـرَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَاني عَشْـرَةَ سَـنَةً، وَكَانَ عَمُّـهُ يُعَلِّقُهُ فِي حَصِيـرٍ، وَيُدَخِّـنُ عَلَيهِ بِالنَّـارِ، وَيَقُولُ: ارْجِـعْ إِلَى الْكُفْـرِ، فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ: لَا أَكْفُـرُ أَبَـدًا(٧٦)، كان الرسـول ﷺ يقول: "**إِنَّ لِـكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّـا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيرُ بْنُ العَوَّامِ**"(٧٧)، ملفتًا الأنظارَ إلى شجاعتِه وشهامته.

ولما دارت الأيام ووجد الزبيرُ نفسه يوم "الجمل" أمام علي ﵁ وجهًا لوجـه حتـى اختلفت أعناق دوابهما؛ خَـلَا عَلِيٌّ بِالزُّبَيرِ فَقَالَ: أَنْشُـدُكَ بِالله كَيـفَ سَـمِعْتَ رَسُـولَ الله ﷺ يَقُولُ وَأَنْـتَ لَاوٍ يَدِي فِي سَـقِيفَةِ بَنِي فُلَانٍ: "لَتُقَاتِلَنَّـهُ وَأَنْـتَ ظَالِمٌ لَهُ، ثُـمَّ لَيُنْصَرَنَّ عَلَيكَ"؟ قَالَ: قَدْ سَـمِعْتُ، لَا جَرَمَ، لَا أُقَاتِلُـكَ"(٧٨)، لقـد نزلَتْ كلماتُ عليّ ﵁ -وهو ينقل عن النبيّ ﷺ قوله: "وأنت ظالمٌ له"- على مسـامع الزبير ﵁ كالصاعقة، فلقد نسـي الزبيرُ ﵁ ذلـك الموقـف بمـرور الزمـن، إلا أن عليًّا كـرّم الله وجهه لمـا ذكّره تذكّر وأذعن للحقّ وأغمدَ سيفه في أحلكِ الظروف وأشدّ الأوقات.

(٧٥) انظر: **صحيح ابن حبان**، ١٢٦/١٥.

(٧٦) الطبراني: **المعجم الكبير**، ١٢٢/١؛ الحاكم: **المستدرك**، ٤٠٦/٣.

(٧٧) **صحيح البخاري**، الجهاد والسير،٤١.

(٧٨) ابن أبي شيبة، **المصنف** ٥٤٥/٧.

واحتضنَ عليًّا وطلب منه العفو والصفح، ثم ركب جواده وترك ميدان القتال، وسار ليلتين من البصرة فمرّ على ماءٍ لبني "مجاشع"، فعرفه رجلٌ من تميم، يقال له "ابن جرموز" فقتله، وجاء بسيفه إلى عليّ، فقال: هذا سيف الزبير، قد قتلته، فقال علي: بَشِّرْ قَاتِلَ الزُّبَيرِ بِالنَّارِ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنَّ الزُّبَيرَ حَوَارِيِّي**"(٧٩)، لم يكن عليٌّ ﷺ يتكلّم من عنده، بل ينقل ما سبق وأن سمعه من الرسول ﷺ، لقد أخذَ عليّ ﷺ سيفَ الزبير ﷺ ونظر إليه قائلًا: سيفه لعمري سيفٌ والله لطالما جُلِيَت به الغمرات عن وجه رسول الله ﷺ، ثمّ انفصح هو وبنوه يبكون على الزبير ﷺ، ولما قيل له: يا أبا الحسن هذه فاطمة تبكي على الزبير؟ قال: فعلى مَن بعد الزبير إذا لم تبكِ عليه(٨٠).

كما ترون فقد امتُحن الصحابة ببعضهم أيضًا، ولكنهم عندما اقتتلوا فيما بينهم اقتتلوا في سبيل الحق باجتهادٍ منهم، وعندما تبين لهم أنهم ليسوا على حقٍّ توقّفوا عن القتال وجنحوا للسلم، لم ينتقد أحدٌ منهم القدرَ، ولو قاموا بمثل هذا النقدِ لتضاعفت المصيبة، وكلّما تعرضوا للامتحان من قبل الله تعالى استغلوا فطنتَهم العظيمة التي وهبها الله لهم وحاولوا الوصول إلى الحقّ في ضوء الظلال النورانية القرآنية.

ومن ذلك ما كان بَينَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ﷺ من مُحَاوَرَةٍ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ**" قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَصَّ عَلَى

(٧٩) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ١٣٠/٧.

(٨٠) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٤١٢/١٨-٤٢٣.

رَسُولِ اللهِ ﷺ الخَبَرَ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ**"(٨١).

ولكن ما نريد هنا التأكيد عليه هو تجريم الصحابيَّين لأنفسهما وإعلائهما كلمة الحقّ على ما سواها، فإذا لزم الأمر أن يجتمعا حتى في النار لدخلوها وكأنها الجنة.

لم يقم علي بن أبي طالب ﷺ ببيعة أبي بكر ﷺ مدة ستة أشهر وكان مَن حوله مِن محبيه يريدون منه المطالبة بالخلافة، وبعد انقضاء ستة أشهر وبُعيد وفاة فاطمة الزهراء ﷺ جاء إلى المسجد النبوي وذكر أمام الحاضرين في المسجد بأن امتناعه عن بيعة أبي بكر ﷺ مدة ستة أشهر لم يكن مبعثه معارضته له، وأنه جاء لمبايعته ﷺ(٨٢).

يجب أن يكون الإنسان وقافًا عند الحق، وكان الصحابة يطلقون صفة "الوقاف عند الحق" على عمر بن الخطاب ﷺ، فلم يكن يُقدّس أو ينحازُ لرأيه الشخصيّ أبدًا، لأنه ما إن يذكر له أحدٌ آيةً أو حديثًا لتصحيح رأيه حتى يرجع عنه حالًا ويلتزم بالحق.

فعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: "أَلَا لَا تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ سَاقَ أَكْثَرَ مِنْ شَيءٍ سَاقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَو سِيقَ إِلَيهِ إِلَّا جَعَلْتُ فَضْلَ ذَلِكَ فِي بَيتِ المَالِ" ثُمَّ نَزَلَ، فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيبٍ، فقالت: يَا أَمِيرَ

(٨١) صحيح البخاري، تفسير القرآن، ١٤٢.

(٨٢) صحيح البخاري، المغازي، ٤٠.

الْمُؤْمِنِينَ أَكِتَابُ اللهِ تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَو قَولُكَ؟ قَالَ: "بَلْ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى، فَمَا ذَاكَ؟" قَالَتْ: نَهَيتَ النَّاسَ آنِفًا أَنْ يُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا**﴾ (سورة النِّسَاء: ٤/٢٠)، استمع عمر ﷺ بكلّ أدب إليها، والحقيقة أن نصيحته لم تكن خطأً إلّا أن حساسيته وأدبه دفعه إلى قول: "كُلُّ أَحَدٍ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ لِلنَّاسِ: "إِنِّي كُنْتُ نَهَيتُكُمْ أَنْ تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ أَلَا فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ فِي مَالِهِ مَا بَدَا لَهُ"(٨٣).

حاشا لله فما كان عمر ﷺ يجهل دينَه، ولكن كان مفهومُه للحقّ وارتباطُه به عميقًا إلى درجة أنه لم يشأ أمام كلام تلك المرأة سلوك طريق التأويل أو الاعتراض، بل قَبِلَ الحقَّ بكلّ بساطة.

لم ولن تُنجَز الأعمالُ الكبيرة والمهامُّ الثقيلة إلا من قِبل أناسٍ على هذا المستوى، وكلّما كنّا قريبين من روح الصحابة اقتربنا أكثر من توفيق الله تعالى.

وفقًا لقَانون السَّبب والنتيجة؛ فإن ثقلًا معينًا في عهدٍ ما يحتاج إلى عضلات قويّة لرفعه، ويحتاج إلى نفس قوة العضلات لرفعه في عهد آخر أيضًا، فالأذرع الضعيفة تعجز عن رفع تلك الأثقال.

فكما نحتاج لِنَزِنَ كيلو غرامًا واحدًا إلى وضع كيلو غرام مثله في الكفة الأخرى من الميزان؛ فكذلك هذه القوانين ثابتة لا تتغير، فكما تحققت الحقائق الكبرى والغايات المثالية على يد أناس على نمط الصحابة ﷺ، فهي تحتاج اليوم كذلك إلى مثل هذا النمط لكي تظهر

(٨٣) البيهقي: السنن الكبرى، ٧/٣٨٠.

اليوم وتنتصر، أما انتظار انتصار هذه الحقائق وظهورها بوساطة أشخاص ضعفاء لا حول لهم ولا قوة فهو محال التحقيقِ لأنه ضربٌ من ضروب الخيال، إذًا علينا أن نكون كالصحابة في التزام الحقّ وفي الشعور بالوحدة ولمّ الشمل لكي يرى الأعداء أن أبواب الفتنة موصدةٌ أمامهم، ولا بدّ أن يقضي عليهم اليأس بينما نجيشُ نحنُ بالأمل، ولا يتمّ هذا إلّا إذا فرَرْنا من عبادة النفس إلى الالتزام بالحق، فهذا هو الطريق المؤدّي إلى الوحدة وإلى لمّ الشمل.

إقامة التوازن بين الدنيا والآخرة

سؤال: كيف يمكن تقييم الدنيا في ظل الظروف الراهنة؟ نحن لا نستطيع إقامة توازن بين الدنيا والآخرة؛ فكيف نجح الصحابة في ذلك في عهد النبوة وما بعده؟

الجواب: الدنيا منزلٌ من منازل عديدة نمرّ بها ونجتازها، وهناك آيات قرآنية عديدة وأحاديث نبوية كثيرة تعلمنا هذه الحقيقة وتنذرنا بها، فالإنسان ينتقل من عالم الأرواح إلى رحم الأم ومنه إلى الحياة الدنيا، وبعد أن يجتاز فيها مراحل الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة ينتهي به الأمر إلى القبر فعالم البرزخ والحشر، ثم إلى الحياة الخالدة الأبدية؛ أي إنه لا يبقى في هذه الرحلة الطويلة سوى أيامٍ معدودات في الحياة الدنيا.

أجل، فالدنيا ليست إلا منزلًا واحدًا من منازل عديدة للإنسان، ويصور الرسول ﷺ لنا ذلك فيقول: "**مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**"[٨٤]، فالإنسان مسافر سفرًا طويلًا، ولكي يرتاح برهةً في أثناء هذا السفر يقضي وقتًا قصيرًا في ظل شجرة، وإلا فالدنيا ليست مقامه أو منزله الدائم، بل هي عبارةٌ عن محطّةٍ من محطّات الاستراحة القصيرة لا غير.

(٨٤) سنن الترمذي، الزهد، ٤٤؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣.

وطنُنا الأصلي هو دارُ الأرواح، فقد لبسنا حلّة الجسد من هناك، وجئنا إلى الدنيا حتى نشكّل حياتنا الأبدية ثم نعود إلى وطننا الأصلي مرةً أخرى، لذا يجب تقييم الدنيا من هذه الزاوية.

والمؤمن إنسانُ توازُنٍ، لذا يجب أن يقي نفسه من الإفراط ومن ضرباته المهلكة كما هو الحال في كلّ أمر، وأحسب أن تحقيق هذا المعيار إنما يتأتّى بإعطاء أهمّيّة للدنيا بنسبة البقاء فيها وإعطاء أهمية للآخرة بنسبة البقاء فيها أيضًا، والقرآن الكريم يعلّمنا فيقول: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ (سورة القَصَص: ٧٧/٢٨).

ماذا آتانا الله؟ لقد آتانا العقل والقلب والروح والجسد والصحّة والشباب ونِعَمًا أخرى لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وكلّها رأسمال، وبهذا الرأسمال نستطيع شراء الآخرة، وقد ورد هذا الموضوع في آية أخرى هكذا ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ (سورة التَّوْبَة: ١١١/٩).

الإنسان هنا هو الطرف الذي يُعطي المتاع الزائل الفاني، والله تعالى هو الذي يعطي ويهب ما يبقى ولا يزول، ومن أجل هذا العقد يدعونا القرآن أن نبتغي الدار الآخرة، لذا كان من الواجب علينا أن نضع الدار الآخرة نصبَ أعيننا وأن تكون النقطةَ المحوريّة لكل حركة وكلِّ تصرُّفٍ من تصرُّفاتنا؛ لأننا سنبقى هناك بقاءً خالدًا، والدنيا هي الكُوَّةُ الوحيدةُ المؤدّيةُ إليها والطريق الوحيد للفوز بها.

والآية توصينا بألا ننسى نصيبنا من الدنيا، ولكن بأسلوبٍ يشعرنا بأن الدار الآخرة هي الأساس وهي الغاية التي يجب أن نختارها ونسعى إليها؛ ذلك لأن الآخرة هي الدار التي يتطور فيها الإنسان ويسمو بجميع

جوانبه، فإن شبهنا الحياة الدنيا ببَذرة، فإن الآخرة هي الشجرة الباسقة العالية نحو السماء والمتولّدة من هذه البَذرة.

أجل، إن جميع الحواس والمشاعر ستنمو وترتقي بشكلٍ غير محدود في الجنة، فقابليّة الرؤية والتذوُّق والسمع... إلخ ستزداد أضعافًا مضاعفةً بينما مثل هذه القابليات كانت تبلغ في الدنيا واحدًا أو اثنين من ألف تقريبًا، ثم إن المؤمنين سيشاهدون من الجنة جمالَ الله تعالى أيضًا، ورؤية هذا الجمال لحظةً واحِدةً تُعادِلُ لذَّةَ آلاف السنوات في الجنة، إذًا فعلى الإنسان أن يضع كلّ هذا نصبَ عينيه عندما يقوم بعملية اختيار بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة؛ فهل هناكَ شيءٌ يَفْضُلُ السعادةَ برؤية الله تعالى؟ علمًا بأن الحصول على رضوان الله تعالى نعمةٌ لا يُعادلها أيّ منصبٍ أو جاه، بل إن الجنة بكلّ نعيمها وبكلّ زينتها تبقى باهتة تجاهها.

والقرآن الكريم يُرشدنا إلى أن رؤية الله تعالى هي أعظم نعمة وإحسان يتفضل الله تعالى به على المؤمنين في الآخرة، فيقول: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**﴾ (سورة التَّوْبة: ٧٢/٩)، وجاء في الحديث الشريف: "**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيكَ وَالخَيرُ فِي يَدَيكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**"(٨٥).

فإذا ما وضعنا هذا القسطاس للحياة ما أهملناها أبدًا؛ بل سنحبُّها لا من أجلها، بل لكونها جسرًا وطريقًا مؤدّيًا إلى الآخرة، ولا يوجد لمثل

(٨٥) صحيح البخاري، التوحيد، ٣٨؛ صحيح مسلم، الجنة، ٩.

هـذه العلاقـة أو الرابطة أيُّ محـذورٍ، وكما يقال: "الدنيـا مزرعة الآخرة"، ونسـتطيـع أن نصـل بالأمـر إلى أبعد من ذلـك فنقول إننا لا نسـتطيـع أن نكون أهلًا للآخرة إلا بوسـاطة الدنيا؛ ذلك لأن جميـع حواسنا ومشاعرنا ولطائفنا وقابلياتنا تنمو في الدنيا وتتوسّـع، وهكذا نستطيـع أن نكون أهلًا لرؤية الله تعالى.

إن الإنسـان لا يسـتطيـع رؤيـة الله تعالى في الدنيا لأنـه لا يملك هذه المؤهّلات ولم تتهيأ له ولم يصل بعد إلى هذا المسـتوى من الاسـتعداد، والمسألة لا تتعلق بأبعاد الزمان والمكان أو بغيرها من الأبعاد، فالله تعالى أقـرب إلينا مـن حبل الوريد، يحنو علينا بإحسـاناته، ويقضي في شـؤوننا بإرادتـه، ويتصـرّف بقُدْرَتِـهِ اللانهائيّـة، وإذا أردنـا التعبيرَ عن هـذا بتعبيرٍ صوفيٍّ نقول: "لا شيءَ أظهر من الله تعالى، ولكنه خفيٌّ عن العميان"، فإن كنّا لا نستطيـع رؤيته فهذا يرجـع إلى قصورنا، وإزالةُ هذا القصور في يَدِهِ تعالى، وسـيزيله في الدار الآخرة فيستطيـع المؤمن رؤيةَ جمال الله ويصل إلى أمله وبُغيته الأصلية.

إذًا فالدنيا مزرعةٌ تُثمر لنا مثلَ هذه النتائج، وعندما ينتقل الإنسان من الدنيـا إلـى العُقبى تزول الحجب النورانيّة واحدًا تلوَ آخر؛ فيرى الإنسـان عند ذلك ربَّه.

إنّ الدنيا عبارةٌ عن تجليات أسماء الله تعالى، لذا علينا ألا نستهين بأيِّ شأنٍ من شؤون الدنيا؛ لأن حقائق الأشياء ما هي إلا تجليات لأسماء الحق تعالى، وكما يقول مولانا جلال الدين الرومي ﷺ: "إننا نحنُ وإرادتنا وكلَّ مـا يحدث حولنا نُشْـبِهُ رايـةً منصوبةً على عمودٍ مرتفـعٍ جدًّا، وعلى هذه الرايـة كتابـات ترفرف بها، والذي يُحَرِّكها ويرفرفها هو الله تعالى سـلطان

الأزل والأبد"، لذا فإننا إذا ما نظرنا إلى الحوادث والأشياء على أنها بستان -تحت إرادته وتصرُّفِهِ- تتجلى فيه أسماء الله تعالى وصفاته؛ نُشاهِدُ جمالَه على كل زهرةٍ وعلى كل قطرة ماءٍ عليها وعلى كلّ حبّة ندًى فوقها، ويُعبّر جلال الدين الرومي عن هذا الأمر بتعبيرٍ ربما يصعُبُ فهمه على كثيرين فيقول:

"إن الخيالات التي هي شبّاك الأولياء إنما هي مرآةٌ عاكسة تعكس الوجوه النيّرة في حديقة الله"(٨٦).

عرض الله تعالى أمام أنظارنا بتجلّيات أحديّته بعضَ الجماليات في ذاته، ثم أوصلنا بلُطْفِهِ وكَرَمِهِ وأسرار أحديّته إلى القدرة على استنباط بعض الأمور وفقًا لدرجتنا المعنوية، فلما تجلّت هذه الوجوه النورانية في بُستان الأَحَدِيَّةِ للحقّ تباركَ وتعالى استطعنا أن نراها بأبصارنا المحدودة في هذا العالم، وأن نشهد تجلّي ربّنا ﷻ فيها، فَفُتن بها من فُتن، ووقع في حُبّها من وقع، أما من جُنّبها وهام على وجهه في الصحراء فهو كما قال يونس أمره: يظل يطلبها بلسان الحوت في البحار والغزال في الصحراء، أما الآيات الدالة عليه ﷻ كعصا موسى عليه السلام فتنعكس في بستانه ﷻ على مرآة روحنا.

لا أنوي هنا شرح هذه المسألة الدقيقة فالذي نريد أن نقوله في هذا الموضوع الذي شرعنا فيه من طريقٍ غير مباشر هو: أن الدنيا بستان الله تعالى، وأنّ أنوار ذوي الوجوه النيرة في هذا البستان تنعكس على مرايا قلوبنا وتتجلّى فيها، فإذا كان الحال هكذا فإنّ ما نقوم به من أمورٍ دنيوية هو عبارة عن موجات تجلّ آتية منه على أطوالٍ مختلفة، ونحن هنا لا نتناول

(٨٦) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **الشعاعات**، الشعاع الثاني، ص ١٠.

بالطبع الموضوع بنظرة أصحاب وحدة الوجود أو أُولي وحدة الموجود، لا نتناوله هكذا ولكننا نؤيد قول الإمام أحمد السرهندي الملقب بالإمام الرباني ﷺ: "إن حقائق الأشياء عبارةٌ عن تجليات الأسماء الإلهية". أجل، نحن لا نستطيع ترك الدنيا لأننا لن ننال الآخرة إلا بوساطة الدنيا، صحيح أنها عبارة عن ركام من الأراجيف والأوساخ، ولكن كم من جواهر نفيسة للحقائق كامنةٌ في هذه الأراجيف، هناك قصة في "المثنوي" عن محمود الغزنوي، وهي وأشباهها قصصٌ رمزية، والحقّ أن الحكيم الهندي "بيدبا" قبلَ "لافونتين" قد قام بسرد القصص والحكم على لسان الحيوانات، وقام بعده كثيرٌ من علماء المسلمين باتباع الأسلوب نفسه في كتبهم، ومن بينهم مولانا جلال الدين الرومي، إذ أورد قصةً على لسان محمود الغزنوي وكلبه الرابض أمام بابه، فقال:

"كان كلبه يذهب كل يوم إلى مزبلة أمام القصر ويظلّ ينبش ويبحث فيها فلا يجد شيئًا يأكله، ومع ذلك يذهب في اليوم التالي إليها ويظل يبحث فيها عمّا يأكله حتى المساء، كان هذا ديدنه كلّ يوم، فقال له محمود الغزنوي ذات يوم: منذ أيام وأنت تنبش في تلك المزبلة فلا تجد شيئًا ومع ذلك لا تكفّ عن الذهاب إليها، ألَمْ تسأم وتملّ من هذا البحث غير المجدي؟ فقال له الكلب: لقد وجدت في أحد الأيام في هذه المزبلة عظمة، ومن أجلها أذهب كلَّ يوم لعلي أجد عظمة أخرى".

الدنيا في نظر أهل الحقيقة ركامٌ من الأراجيف مثل ركام تلك المزبلة، والله تعالى خلطَ في هذه الدنيا الخير مع الشر والجميل مع القبيح، ولكي لا يُنسب قبحُ الأشياء إليه تعالى مباشرةً؛ وضع أستار الأسباب، فبقي القبح الظاهري للأشياء وراء هذه الأستار، ولكن الله تعالى هو خالق

كلّ هذه الأشياء التي تتجلى فيها ما لا نعلمه أو نحصيه من أسمائه تعالى، الأسماء الإلهية لا حصر لها وهو وحده يعلم عددها، فهناك أسماء لا يعلمها إلا هو، ولم يُطلع أيَّ نبيٍّ أو ملكٍ مقرّبٍ عليها، وهذا معنى دعاء النبيّ ﷺ: "**أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**"(٨٧)، ومن ثمّ علينا أن نقوم نحن بالنبش في هذه الدنيا وأن نبحث بكلّ شوقٍ في الأماكن التي يظنها الآخرون مزبلة من المزابل؛ لعلّنا نبلغ حقيقةً أخرى زيادة على الحقائق التي عثرنا عليها.

هناك وجه آخر للدنيا ننفر منه ونهرب؛ وهو وجهٌ يتعلّق بها؛ لأنها فانية وزائلة، لا تعطيك قطعةً واحدةً من الحلوى إلا مقابل صفعات عديدة؛ فهذا الوجه هو وجه اللهو والغرور، وهو الوجه الذي يقبل عليه أهل الدنيا ويجلّونه، بينما هو وجه قبيح بالنسبة لنا، وكلما زاد البغض منه كان أفضل.

إذًا نستطيع إقامة التوازن بين الدنيا وبين الآخرة من هذه الزاوية، الدنيا زائلة، والآخرة باقية، ولم يترك الرسول ﷺ الدنيا ولم ينعزل عن الناس، ولكنه كان على الدوام مع الحق تعالى، كيف لا وهو القائل: "**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**"(٨٨).

علينا أيضًا أن نتصرّف على هذا النحو؛ فنخرج إلى الأسواق والشوارع التي تجري فيها الأراجيف أنهارًا، ونستمرّ طلّابًا وأساتذة في الذهاب إلى المدارس والجامعات، وربّما في سبيل هذا نتحمّل كثيرًا من الأذى

(٨٧) مسند الإمام أحمد، ٦/٢٤٧.

(٨٨) سنن ابن ماجه، الفتن، ٢٣.

المعنوي والمادي، وربما يسدّ هذا في وجوهنا السبل المؤدّية إلى الولاية والقرب منه تعالى بشكلٍ إرادي أو غير إرادي، ولكن علينا أن نضحي حتى ببعض مشاعر الفيوضات الربانية، فكما رجع رسول الله ﷺ من الجنة -أثناء المعراج- ولم يتأثّر بزينتها وحسنها فعلينا أن نتخلق بخلق الرسول ﷺ ونحاول تمثيل الحقيقة الكبرى التي جاء بها ﷺ، والذين يقفون في الدنيا كمَن يقف فوق جمرات من النار، مثل هؤلاء لا يمكن أن يتطلّعوا أبدًا إلى الوجه الفاني للدنيا، ولا يمكن أن يشغلوا قلوبهم بها، وهم وإن كانوا دائمًا بين المخلوقات فإنهم دائمًا مع خالق المخلوقات تعالى.

لم يفكّر الرسول ﷺ في الدنيا حتى عندما أقبلت بِبُلَهْنِيَتِهَا عليه، فلم يُفكِّر في الاستفادة منها رغم إمكانية ذلك، لقد رحل عن الدنيا مثلما جاء إليها، جاءَ إليها فلفُّوه بقطعة قماش، ورحل عنها فلفّوه بقطعةٍ مثلها.

لقد حاول الرسول ﷺ طوالَ حياته السنيّة تأسيسَ حضارةٍ تلهج بذكرها الحضارات وإقامة عالم متوازن هنا في الدنيا وهناك، ولم يتنازل طوال حياته قطّ عن دعوته هذه.

لقد دانَ بالتسليمِ المُطْلَقِ لله تعالى طوالَ حياته، فعاش في اطمئنانٍ يحاول دائمًا كسب رضا الله تعالى وإنقاذ الإنسانية، فلم يتكدَّر صفوُه بأهواء الدنيا وبملذاتها، أقام نظام الإسلام وطبّقه في بيته، فلما طالبته بعض نسائه بأخذ حظهن من الدنيا وزينتها اعتزلهن حينًا، حتى إنه ﷺ خيَّرَهُنَّ -بأمر من الله تعالى- بين البقاء معه والاكتفاء بما عنده أو تسريحهن بإحسان، حينذاك فضّلت زوجات الرسول ﷺ البقاء معه وتحمّلَ شظفِ العيش معه على نِعَمِ الدنيا وملذّاتها، في هذه الأثناء دخل عمر ﷺ على رسول لله ﷺ

وهو في غرفته معتزلًا نساءه، فَرَأَى أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَى، فَقَالَ ﷺ: "**مَا يُبْكِيكَ؟**" فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ! فَقَالَ: "**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**"(٨٩).

لم يترك رسول الله ﷺ الدنيا، بل قام برؤية وبإظهار جميع الحقائق الإلهية المتجلية في الكون وتبليغها وتوصيلها إلى العالم أجمع بجيوشه التي انطلقت إلى أرجاء الأرض تحمل معها الإسلام وتنصب رايتَه في كلّ مكان، وأرى هنا من الضروري تسجيل نتيجة توصَّل إليها بعض علماء الاجتماع المعاصرين، إذ قالوا ما يأتي:

كانت البشرية قد سجّلت حتى عهد رسول الله ﷺ تقدُّمًا مقداره ٢٥٪، ولكنها استطاعت بفضله وفي عهده -أي في مدّةٍ قصيرةٍ- زيادةَ هذه النسبة إلى ٥٠٪، ولم تستطع البشرية منذ عهده وحتى الآن إلا تسجيل نسبة زيادة بمقدار ٢٥٪ فقط، ومن المتوقع أن تصل إلى النسبة الباقية في المستقبل، وهكذا قطع ﷺ في ربع قرنٍ مسافةً لم تستطع الإنسانية أن تبلغها لعدة عصور، وثبت أنه هو القدوة والأسوة لجميع الأجيال حتى قيام الساعة.

لم ينعزل ولم يترك الدنيا -نكرر هذا مرةً أخرى- بل عرفَ كيف يوجّه أُمَّتَهُ التوجيهَ الصحيح ولأي شيء يجب إعطاء الأهمية وبأي نسبة.

(٨٩) **صحيح البخاري**، تفسير القرآن، ٤٠٥.

تخليصُ الإرادة من قبضةِ مشاعرِ الشرِّ وقتَ الفراغ

سؤال: في أوقات فراغنا يُلقي الشيطان في قلوبنا كثيرًا من الشبهات والشكوك وتصبح إرادتُنا ألعوبةً في يد مشاعرنا حتى نحسّ بأن صبرنا عن المعاصي قد بدأ ينفد، فبماذا توصوننا؟

الجواب: بدايةً يجب أن نستعيذ بالله من دسائس الشيطان وفتنه وتزيينه الشرور وأن نضع جباهَنا على الأرض ساجدين؛ لنكسرَ غرورنا؛ لأنّ "**أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**"(٩٠)، وأن ندخل في حرز ربنا سبحانه مبتهلين إليه قائلين: "**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**"(٩١).

إن القول بأن الشيطان يتسلّط علينا في أوقات فراغنا هو تعبيرٌ عن الحقيقة، فالشيطان يتسلّط أكثر ما يتسلّط على الأشخاص العاطلين الذين لا يقومون بأي نشاطٍ دينيٍّ ولا يحملون همّ الدعوة إلى الله؛ لذا علينا أن نبدأ من نقطة البداية هذه ونتخلّص من الخمول والفراغ، ونبحث عن طرق النشاط.

وما دام الشيطان يستفيد في الأكثر من فراغنا فيوسوس في صدورنا ويزيّن الشرور في أعيننا ويحضّنا على اقتراف الآثام، إذًا فعلينا أن نشغل أنفسنا دائمًا بمشاغل الخير، ونحاول سدّ الفراغات التي ينفذ منها

(٩٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٥٦.

(٩١) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢؛ سنن الترمذي، الدعوات، ١٣١.

إلى أنفسنا، وأن نتشبّع بالفكر والعمل حتى لا ندع له مجالًا ينفذ منه إلى أرواحنا، إن الشيطان لن يجد طريقًا يوسوس من خلالها في صدور المرتبطين بالله تعالى والمجددين معه هذه الرابطة من خلال التأمّلِ الدائمِ للآفاقِ والأنفسِ، كما لا قِبَل له بأن يتلاعب مع الذين يذكرون الموت على الدوام ويتأثّرون به ولا يستطيع أن يهزمهم.

ولن يستطيع الشيطان فرضَ نفسِهِ وَوَسَاوِسِهِ على رجل الدعوة الذي ينافح ليلَ نهار لإعلاء راية الإسلام في كلّ أنحاء الأرض، ولن تستطيع يد الشيطان الخبيثة أن تمتدَّ إلى إنسانٍ تشبّعت جميع أحاسيسه ومشاعره بالإيمان اليقيني، وعَمَرَ قلبه بالفيوضات الإلهية.

والخلاصة أننا إن كنا على ارتباطٍ وثيقٍ بربنا فلن يدعَنا للشيطان الذي هو عدوّنا المشترك. فهل من الممكن أن نكون أوفياء لدينه فننصره ولا يكون هو ﷻ -حاشاه- وفيًّا لنا؟ بل هو أوفى الأوفياء، فلا شكّ أنه لن يكلنا إلى أهوائنا، ولن يتركنا للانحلال والتفسّخ؛ فهو يقول في كتابه العزيز: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٤٠)، فهل من الممكن أن يسلِّط ربُّنا سبحانه الشيطان علينا ونحن نعمل على نصرة دينه؟ أبدًا، بل على العكس تمامًا، ففي مثل هذه الأوضاع سيجعل لساننا رطبًا بذكره، ويردّنا إلى أنفسنا لنتذكر ونبتعد عن الهاوية التي أعدّها الشيطان لنا، مثلما أبعد بعض صحابة رسول الله ﷺ الكرام، فقد جاءت أوقاتٌ تكدّرت فيها أبصارهم ودارت فيها رؤوسهم لكونهم بشرًا، ولكن الربّ سبحانه أراهم برهانَه وصرف أبصارهم إلى المعالي الآخرة مجدّدًا.

ولو ألقى كلّ مَن يعمل في الدعوة نظرةً متأمّلةً على حياته لرأى كيف أنه أشرفَ أكثر من مرّةٍ على شفا الجُرُفِ الهَارِ باستعماله إرادتَه استعمالًا

سيّئًا أو نتيجة خطإٍ ارتكبه دون قصد، وكيف مدّت العناية الإلهية يدَها إليه وأنقذته، وبنسبة إخلاصه وصدقه رأى عونَ الله ولُطْفَهُ، وشاهد مكتوبًا على ناصية إرادته سرّ الآية الكريمة: ﴿**إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ (سورة مُحَمَّدٍ: ٧/٤٧).

إنّ إرادتنا جزئيّةٌ وضيّقةٌ للغاية، وعلى الرغم من هذا فقد جعل الله تعالى هذه الإرادة الجزئية شرطًا عاديًا ليقلب بها كلّ ألاعيب الشيطان، إنّ قيامنا بقَطع الطريق أمام ما يلقيه الشيطانُ وما تلقيه النفسُ الأمّارة بالسوء فينا منذ البداية يعني سيطرَتَنا على أرض المعركة إلى حدٍّ ما، وقد تأتي أوقاتٌ تسيطر فيها خيالاتنا علينا حتى لا نستطيع التغلّب عليها، وقد نستطيع في أوقات أخرى التخلّص منها والابتعاد عنها ومحاكمتها وإن رضخنا لها برهةً، أحسب أنكم ستؤيّدون ما أقول؛ فقد تأتي أوقاتٌ وأوضاع لا تكفي لمواجهتها إرادتُنا وحيوية قلوبنا، عند ذلك نستمدّ العون من أشخاص تسطعُ وجوهُهم بالحقيقة، وتتوافق إرادتهم مع إرادة ربهم سبحانه؛ بحيث إذا ما جالسناهم شعرنا وكأننا نجلس بين يدي نبيٍّ من الأنبياء، كلامهم وحديثهم إكسيرُ الحياة يُذيب على الفور الأفكارَ والمشاعر السيّئة التي تجمّدت داخلَنا، وأحيانًا نكون نحن أيضًا مظهرًا لمثل هذا الحال والجوّ الروحاني، فيلجأ إلينا الآخرون يلوذون بمناخنا ويعتمدون علينا في مواصلة وجودهم.

فالله تعالى خلق الإنسان بفطرةٍ تميل إلى التعايش مع الآخرين فلا يستطيع الإنسان الاستغناء ماديًّا ومعنويًّا عن مجتمعه، وهنا تقع علينا مهمة عدم الابتعاد عن الأصدقاء الصالحين؛ لأن الصديق الصالح يُحيي قلوبنا على الدوام بنصائحه، وينفث فيها الحماس والوجد، لذا يجب

المحافظة على مثل هذه الصداقة في كلّ حين؛ في المدرسة وفي السوق وفي السفر الطويل، وبذلك لن يتسلل الشيطان -إن شاء الله- إلى قلوبنا مع وجود مثل هذا الحصنِ الحصينِ من الصداقة.

وأمرٌ آخر وهو لزومُ الإصغاء بقدر الإمكان إلى النصائح التي ترقّق القلب، فالنصائح التي تذكّرنا بالآخرة وبالعالم الآخر وتبعث فينا الوجدَ والشوق مهمّةٌ جدًّا، والنصيحة بهذا المعنى هي الدين نفسه، وعندما كان أسلافنا يقومون بالوعظ والإرشاد في المساجد كانت المساجدُ تطفحُ بالشوق والحماس فالإمام فخر الدين الرازي الذي أتقن الفلسفة وعلم الكلام وبرز فيهما كان عندما يعظ على المنبر يجهش بالبكاء فلا يفهم السامعون بعضَ ما يقوله؛ لذا نُعَدّ نحن جماعةً سيئة الحظّ لأننا حُرمنا من أمثال هؤلاء الوعّاظ الربانيّين، علمًا بأن الإنسانَ مخلوقٌ يحتاج إلى خشوعِ القلبِ وإلى دموع العين، وهو محتاجٌ كلّ يوم إلى التأمُّل في عالمه الداخلي والتعمّق فيه، والبكاء من متطلبات هذا الأمر، والقرآن الكريم يمدح أصحابَ القلوبِ الرقيقة والأعين الدامعة فيقول: ﴿**إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: ٥٨/١٩).

لذا فما أحسنَ أن نقرأ كلّ يوم بضع صفحات عن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ممّن عاشوا الإسلام بصدق، ونلوّن حياتنا بهم فإذا خرجنا إلى الشارع أو السوق خرجنا بهذه الروح المشحونة، فإن فعلنا هذا استقام عالَمُنا الداخلي من جهة، ووجدنا من جهةٍ أخرى فرصةَ مقارنةِ أنفسنا برجال القلب والروح الحقيقيين من أمثال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ونقول لأنفسنا: "لقد كان هؤلاء مسلمين، ونحن أيضًا مسلمون، فلماذا كانوا هكذا ولماذا أصبحنا نحن هكذا؟"، وبهذه المحاسبة والمراقبة

الذاتيـة نسـتطيـع تجديـد أنفسـنا، فإن فعلنا هـذا بضـعَ مـرّات على الأقل كلّ أسـبوع فنحـن نأمـل أن يسـاعد هذا على ترقيـق قلوبنـا وإزالة الصدإ الـذي نشـعر بوجـوده أحيانًا في ذواتنـا، عند ذلك نسـتطيـع أن نحسّ في قلوبنا بجميـع التجليات الإلهية التي تنعكس عليها بكلّ أنوارها، ونتجنب وسـاوس الشـيطان، ويحصـل هـذا إما بالاسـتماع إلى شـخصٍ أو بقراءة القرآن أو بقراءة التفاسـير، فكما نحتاج إلى الهواء وإلى الماء وإلى الخبز فكذلك نحتاج وبنفس القدر إلى التجديد الذي لا حدودَ لأشكاله.

إذًا فحضورُ مجلسِ شـخصٍ يسـتطيـع بثَّ الخشوع في قلوبنا وطلبُ النصيحة منه، وتجدّدُ استشـعار أفئدتنا برسولنا ﷺ وأصحابه ﷺ؛ كلّ هذا بمثابة القوة التي تُساعدنا على البقاء والصمود، وحذارِ أن تقولوا لأنفسكم نتيجـة مـرض الألفة والعادة إنني أعلم هذا الموضـوع فماذا يفيد إن قرأته مـرّةً أخـرى أو لم أقرأه؟ ولا تقولوا ماذا لو اسـتمعتُ أو لم أسـتمـع؟ لأن هـذا غفلـة وانخـداع، فكما تتكـرّر الحاجة إلى الغـذاءِ المـادّيّ من طعامٍ وشـرابٍ فكذلك تتكرّرُ الحاجة لتغذية حياتنـا المعنوية وقلوبنا وضمائرنا وأحاسيسـنا الأخـرى بمثـل هذه الأمـور، واسـتنادًا إلى ما سـبق علينا أن نلجَأَ إلى كَنَفِ مرشـدٍ يسـتطيـعُ بجوّه الروحيّ أن يُذيبَ كلّ الشرورِ ويرينا طُرُقَ وسـبلَ تجديد أنفسـنا، وقد يمكن تحقيق هذا الأمر أحيانًا بالمطالعة أو بالتأمّل أو بتذكّر الموت، وبقدرِ نجاحنا في تحقيق هذا بقدرِ ما نستطيـع صيانةَ أنفُسِنا من وساوس شياطين الإنس والجن، ودعاؤنا الدائم لله تعالى هو أن يحفظنا من شـرور أنفُسِـنا ومن شرور الشيطان، علينا أن نلتزم هذه الأدعية والضراعة كي نبقَى ضمن حرز العناية الربانية.

كيفَ ننجحُ في الامتحانات الإلهيّة

سؤال: كيف لنا أن نفهم قول الله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البَقَرَة: ١٥٥/٢)؟

الجواب: هناك العديد من التفاسير المفصّلة لهذه الآية، نحيل إليها مَن يرغب في تفسيرٍ مفصّل، أما نحن فسنعرض شرحًا موجزًا للآية كيلا نردّ طلبَ السائل، وقد يكون ما نقوله إعلامًا للمعلوم بالنسبة لبعض الأصدقاء، ولكن على اعتبارِ أنّ كلّ ما يُناطُ بالقرآن الكريم مهمٌّ بالنسبة لنا فإنّنا ننظرُ إلى المسألة من هذه الزاوية على اعتبار تعلُّقها بالقرآن الكريم وليس من باب أهمّيّة الردّ على السؤال.

وإليكم شرح هذه الآية:

يُقْسِمُ ربُّنا تبارك وتعالى فيقول: لنختبرنّكم ولنمتحننّكم بشدائد الأمور فيظهر من هو صابرًا محتسبًا محافظًا على اتباع الرسول ﷺ ممن ينقلبُ على عَقِبَيهِ، إننا سنبتليكم بـ"خوف" يدبّ في أوصالِكم؛ نرسله عليكم تباعًا، وسنسلّط عليكم أهل الدنيا لنرى مَن يخاف منكم ومَن لا يخاف، ونظهره للعيان، والله تعالى بعلمه الأزلي يعلم هذا، وإنّما يريد إظهار مَنْ يخاف ومَنْ لا يخاف منكم للعيان؛ لأن القدرة والإرادة متعلّقتان به.

الخوف أحدُ صُوَرِ هذا الامتحان، فالإنسان يخاف من الزلازل والجوع والظمإ والأعداءِ المادّيّين والمعنويين، وهذا الخوفُ امتحانٌ واختبارٌ له.

والنوع الثاني من الامتحان هو الامتحانُ بـ"الجوع"، وقد تعرّضت الأمّة المحمّديّة لمثل هذا الامتحان الشديد في عهودٍ معيّنة، ثم انحسَرَ هذا الامتحان اليوم، صحيحٌ هناك بعض الجوع والبؤس، ولكن ما هذا إلا صفعاتُ تنبيهٍ نَتَجَتْ عن إسرافِ الإنسان وسوء استعماله، علمًا بأن الأجيال السابقة -لا سيما في القرنين المنصرمين- تعرّضت إلى أفظع أشكالِ الجوعِ نتيجةَ تسلُّط الأعداء في الداخل والخارج. أجل، ربما لا يزال الجوع إلى الآن يسيطر على بعض البلدان الإفريقية، غير أنّ هذا الجوع بمثابة صفعةِ تنبيهٍ لهم؛ لسوءِ استعمال الموارد هناك؛ ولأنني شرحت هذا بالتفصيل في مناسبات أخرى فلن أُعيدَه هنا.

أما "النقص من الأموال" فقد يكون -من ناحية ما- بسبب ما ينزل في المستقبل من آفات، أو لزوال البركة، وهو إحدى صور الامتحان، وما ظاهرة التضخُّم المالي في عصرنا إلا محضُ امتحانٍ من أشدّ هذه الامتحانات.

أما "النقص في الأنفس" فيأتي بمعنى القتل أو حرمان الإنسان من العيش كإنسان محترم، وكما يمكن أن يتعرّض العالم الإسلامي إلى امتحان "النقص في الأنفس" نتيجةً للجهاد ضدّ العدوان الخارجي، فكذلك يُمكن أن يتعرّض مَن يعيش الحياة الإسلامية إلى عزلةٍ من المجتمع فيعيش وكأنّه مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهذا أيضًا نمطٌ من أنماط هذا الامتحان، كلّ هذه امتحاناتٌ وابتلاءات من قبل الله تعالى يتعرض لها المؤمنون.

وقد يمتحننا الله تعالى بنقصٍ في "الثمرات" نتيجةً للآفات التي تُصاب بها الحدائق والبساتين، أو يمتحننا بنقصٍ في ثمرات كلّ أنواع الأعمال والجهود التي نبذلها، وهذه الامتحانات إما امتحانات ناتجة عن الذنوب والآثام التي اقترفناها؛ فهي تنبيهٌ وتحذيرٌ لنا، أو هي امتحاناتٌ لرفع درجاتنا ومراتبنا عند الله تعالى؛ فهي إذًا لطفٌ من ألطاف الله تعالى علينا.

ولا يظهر الصبر والصدق إلا بالامتحان؛ فالذين يُصرّون أن يبقوا ملازمين باب الله تعالى ولا ينفكّون عنه أملًا في الدخول في أيّة لحظةٍ مهما تعرّضوا للأذى والابتلاء هم الذين ينجحون في هذا الامتحان، أما الذين يتركون هذا الباب عند أقل محنة ويبدّلون طريقهم واتجاههم فسيرسبون في هذا الامتحان.

عندما كان الرسول ﷺ يتعرّض إلى بلاءٍ أو مصيبةٍ كان يهرعُ إلى الوضوءِ فالصلاةِ، والآيةُ الكريمةُ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ١٥٣/٢) تعلّمنا هذه الحقيقة أيضًا، فإن أحاطت بكم البلايا وأظلمت آفاقكم فعليكم بالصبر والصلاة فهما طريقُ النجاةِ من هذه الدوامة، عليك أن تتحمّل وتصبر، وتصرّ على العبودية والتوجّه إلى حضرة مولاك تبارك وتعالى.

من المحتمل أن الله تعالى يريد بهذه الامتحانات أن يُظهر للعيان مدى وفائنا وولائنا وتحمّلنا وصِدقنا وصبرنا رغبةً في أن يوجهنا إلى قيمنا الحقيقية وكذلك ألطافه علينا؛ أي سيقيس مدى قوّة صبرِنا وصِدقنا بِرَدّ فعلنا وسلوكنا أثناء هذه الامتحانات ويعرّفنا بأنفسنا، وذلك لكيلا يكون للناس حجّة على الله، وربما يعترض العبد بعد هذا القياس والتقييم لنفسه ويقول معترفًا: يا رب! كم كنتُ شخصًا متقلبًا متلونًا! لقد امتحنْتَني مرةً

وأغلقتَ الباب في وجهي مرة فانحرفتُ وتحوَّلْتُ عن بابك وانصرفتُ عنك، بينما كان عليّ أن أُصارع أعداءَك وأبقى ثابتًا في مكاني أمام بابك لا أتحوّل عنه ولو تكررتْ أمامي المحن، لو عَرَّضْتَ جيوشي للهزيمة مئات المرات لكان عليّ أن أعتصم بك وأقول: أنت غايتي يا رب، لو هدمتَ عليّ بيتي، أو حرقت قلبي بفقد أولادي وأموالي؛ لكان عليّ ألا أنحرف عن بابك، لو ابتليتَني بالأمراض من قمّة رأسي إلى أخمص قدمي، وبدأت أَئِنُّ من الآلام والأوجاع لكان عليّ إذا ما وجدتُ في نفسي القدرة على النطق بكلمتين أو ثلاث أن أقول أيضًا: أنتَ غايتي يا رب، لكنني بدلًا من أن أكون هكذا وأقول هذا لم أستطع الصبر، واهتززت ورجعت وتركت بابك، فما أعظم جنايتي وما أكثر تلوّني وتقلُّبي.

والعبد يُمتحن حتى وإن كان سائرًا على الحقّ وعلى الصراط المستقيم، فهناك أحاديث كثيرة حول هذا، فالله تعالى يمتحن عبده ببلايا ومصائب شتّى لكي يسير العبد إلى ربّه طاهرًا نقيًّا، وبذلك يظلّ يتنزّه في منازل الجنة بما يشعر به من أمانٍ واطمئنان.

سنتعرَّض نحنُ أيضًا لِلْغَرْبَلَةِ عدَّةَ مرَّاتٍ وسنُمتَحَنُ، وبذلك يُميّز الفحمُ عن الماس، والغثُّ من االسمين، والرديءُ عن الجيد، والامتحان ضروري لا سيما في أيامنا الحالية، فالحيلولة دون التلوّن والتقلّب المحتمل في المستقبل لا يمكن إلا بعد خوض غِمارِ مجموعة من المِحَنِ والاختبارات، لذا فإن الامتحان عاملٌ مهمّ لمن ينوي أن يهبَ نفسه لتحمّل عبْءِ الدعوة إلى الله، والله تعالى هو الممتحِن في الحال وفي المآل، وما علينا إلّا الثبات والصبر والتزام بابه بكلّ صدقٍ وعزيمةٍ وإخلاص.

معيارُ زيّنا

سؤال: ما المعيار الذي يجب أن تكون عليه أزياؤنا وأثاث بيوتنا؟

الجـواب: إن قضايانـا نحن المسـلمين تنطلق من الإيمان، وتسـتمر بالعبـادة، وترتقـي فـي المعاملـة، ثـم تتطـوّر علـى شـكلٍ يشـمل عاداتنا وسلوكياتنا الشخصية، وتشكل كل قضية من هذه القضايا عمقًا خاصًّا في الحيـاة المتعددة الأبعاد التي نعيشـها، وفي معظم هـذه القضايا وفي أمور أخرى لا نعرفها نشعرُ بحاجة مُلِحّةٍ إلى الرائد القائد.

ومفخرة الإنسـانية وسـيد الكونين محمد ﷺ هو خير قدوة لنا في فهم حقيقة الدين واسـتيعابها وتحويلها إلى واقـع مُعاش، إننا حتى في الوقت الحالي نرى ونشـعر وكأن روحانيته ﷺ التي توحي بالسـكينة ترفرف فوق رؤوسـنا، أما أصحاب القلوب المسـتنيرة فهم محظوظون بالشعور الدائم بهذه الروحانية.

وخَلَـفَ الرسـول الكريـم ﷺ في معظـم القـرون رجالٌ عظـامٌ أزالوا السـخام والصدأ عن القلوب رغم ما أتى عليه الزمان والحوادث، فأحيوا الديـن، وكشـفوا بأيديهم النورانية مـن جديد عن الهويـة الحقيقية للروح المحمدية.

وقد اكتسبت هذه القضايا التي أسّسها الصحابة بُعدًا آخر على يد الإمام أبي حنيفة ومن على شاكلته من القامات الشامخة، ثم جاء مِنْ بَعدِهم رجال عظام أمثال الإمام الغزالي والإمام الرباني والإمام عبد القادر الكيلاني ومولانا جلال الدين الرومي ومهموم عصرنا الأستاذ النُّورسي فتجدّدت تلك القضايا وحافظت دائمًا على نشاطها وحيويتها، ورغم مرور هذا القدر من الزمان ومع كل هذه الغوائل فإننا ما زلنا نراها حتى في عصرنا نقيّةً متجدّدة بفضل هذه الأيادي النورانية، فالحمد لله حمدًا لا يُحَدّ ولا يُحصى أنه لم يطردْنا عن إحسانه، وجعلَنَا -دون حولٍ لنا ولا قوة- على مثل هذا الحوض النوراني، وإن انتقاءَه لنا مع وجود من هم أنسب وأليق منا دليلٌ على فضل الله وإحسانه علينا، وليس على قدراتنا وجدارتنا في شيء، ومن التحقوا بهذا الأمر دون كثير من السعي أو الجهد ربما يوافقونني الرأي في ذلك.

لقد بُينت لنا حتى الآن معظم القضايا الضرورية في الوقت الحاضر وفي المستقبل، وقام السلَفُ بإنارة الطريق للخلَفِ بما لا يدع مجالًا لأيّ شكٍّ أو تردّدٍ، وما علينا بعد ذلك إلا أن نسير في هذا الطريق المنير فقط.

ولنضربْ مثالًا على هذه المسألة ممّا وردَ بالسؤال: فمثلًا كلّ الجوانب الخاصة بالملبس والمأكل والمشرب ونظام البيت وأثاثه قد شُرحت لنا بشكل تطبيقي، فنجد رسول الله ﷺ يرقدُ على الحصير، حتى أثَّر الحصير في جنبه المبارك ﷺ، وسيدنا أبو بكر ﷺ عندما تناول قدحًا من الماء البارد لم يتمالك نفسَه فأجهش بالبكاء، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تذكَّرْتُ أن الله ﷻ سيحاسبني على كل هذه النعم، وسيدنا عمر ﷺ لما عرضت عليه ابنته حفصة أن يلبس ثوبًا أجمل ممّا هو عليه وبّخها بشدة دون اعتبار أنها أمٌّ للمؤمنين أجمعين.

ولقـد تمثّلـت مثل هذه الفلسـفة الحياتية التي شـهِدَ التاريخ آلافًا من أمثلتها التطبيقية على يد مهمومِ عصرِنا ومن سار على دربه من المهمومين الآخريـن، فتحقـق هذا التوازن التـام بين الدنيا والعقبى والروح والجسـد مجدّدًا، وذُكِّرَ الناس بهذه الأمور مرّةً أخرى.

أمـا نحـن فـلا يتأتى لنـا أن نقول إننا قد اسـتوعبنا هذه البسـاطة بكل جوانبها، يلزم أن نضـع معيارًا لهذه البسـاطة حتى لا يسـتغربنا الناس، وأن يكون هذا المعيار أقصى حدٍّ نحافظ عليه ثم ننطلق منه.

وأحيانًـا ننخـدع ونعتقـد أن هـذا سـيؤثر إيجابيًّا علـى مخاطبينا، بيد أن بسـاطَتَنا هـي خيـرُ دليلٍ علـى تفانينـا وإخلاصنا الذي تظهَـرُ آثاره في مخاطبينـا، ولقـد اسـتوقفتني يومًا كلماتٌ صـدرت عن رَجُلٍ مـن الطبقة المثقفـة ما كنت أظـنُّ أن يقول مثل هذا الكلام، حيـثُ قال: "صدِّقوا هذا الرجل وثِقُوا به، فما رأيتُ في بيته إلا حصيرًا مثقوبَ الوسط"، فاعتبر هذا الرجلُ الحصيرَ مدعاةً للتصديق والثقة.

وبمـا أن البـذخَ والترفَ لا حدّ لهما فلا يمكننا أن نبلـغ منتهاهما، وأنا لا أتصـوّر أن هـذا البـذخَ ينفعنا فـي خدمتنا، فلنا أن نسـتخدم معيار عدم الاستغراب إلى حدٍّ ما، ولا يجوز لنا أكثر من ذلك.

الأستاذ النُّورسي ومدينة "وَانْ"

سـؤال: يُذكر أن بديعَ الزمان النُّورسـي أشار ذاتَ مرّةٍ إلى جزيرةٍ في بحيرة "وَانْ" قائلًا: "لو أعطوني هذه الجزيرة لأتّخذتُ عليها أحد عشـر طالبًا أسـتطيع أن أتحدّى بهم العالم بأسره"، فهل هذا صحيح؟ وإن كان صحيحًا فكيف هذا؟

الجـواب: كثيرةٌ هي الأقوال التي تُسْـنَدُ إلى العلمـاء العظام، وإذا ما أردنـا الوقوفَ على السـليمِ منهـا فيجبُ علينا إخضاعُهـا لبعض المعايير، والتي يأتي في مقدمتها الاطّلاع على مؤلّفات هذا العالِم الذي نُسِـبَتْ له هـذه الأقـوال، فإنْ صودفت هذه الأقوال في كُتُبِـهِ ومُؤَلَّفاتِهِ فمقبولة، وإلا فـلا أسـتطيع أن أقـول بِرَدّهـا؛ حيث إنه لا بـد من تحرّي الدقّـة كثيرًا في كلامنا، ووفقًا لهذا فمن المُحتمَل أن يكون الأسـتاذ بديـع الزمان قد ذكر مثل هذا القول، وإن ذكره فلا ريب أنه صحيح، إلّا أنني شخصيًّا لا أتذكّر أنني صادفت هذا القول في مؤلفاته.

ومـع ذلك فعلى فَرَضِ أن شخصًا مثل بديـع الزمان ربّى أفرادًا في أيّ بقعـةٍ مـن العالم فبإمكانه أن يُغيّر كل العالم، ولا جرم أنه لا بدّ من مراعاة عنصر الوقت وطبيعة العمل المطلوب القيام به.

لقد حاول سيدنا عيسى عليه السلام فتحَ أبواب العالم بأحدَ عشرَ حواريًّا ربّاهم فكسر شوكة إمبراطوريات العالم بهم، غير أن هذا الأمر لم يتوقف عند تلك الحقبة الزمنية، بل تخطّاها ودام لعدة عصور بعدها.

واستطاع نبينا محمد ﷺ أن يُزلزل الأرض تحت أقدام الملوك خلال مدّةٍ زمنيّةٍ قصيرة، وبدعوةٍ باكورتُها امرأةٌ وعبد ورجل، ولم يكُ أحدٌ في البداية يتوقع مثل هذه النتيجة، وأستميحكم عذرًا أن أقول هنا الشيء نفسه متجاوزًا حدّي: من الممكن أن نكشف عن هويتنا وذاتيّتنا وأن نُبَلِّغَ العالمَ رسالةَ السماء بحفنة من الأفراد، إضافة إلى ذلك لقد ظهر عيانًا بيانًا اليوم حقيقة هذه الطريقة التي سنّها لنا الأستاذ النُّورسي، وقد استطعنا أن نرى ونشاهد الآن كل هذه الأمور التي تنبَّأَ بها من قبل.

علاوةً على ذلك فإن تلويح الأستاذ النُّورسي بهذه البلدة يحمل أهميةً خاصةً؛ ولطالما كان يوحي لمن يمسكون بمقاليد السياسة في عهد الدولة العلية والمشروطية والجمهورية بإقامة جامعة في مدينة "وَانْ" رغم كل المتغيرات السياسية والإدارية الواقعة في كل فترة من فترات حياته.

كانت هذه غايةً عظيمةً وجمرةً يتلظّى بها قلبه، وقد لا يمكننا أن نستوعب تمام الحكمة من وراء ذلك، ولربما كان موقع مدينة "وَانْ" -من حيث كونها مركزًا لمنطقةٍ غنيّةٍ باللؤلؤ والألماس مثل الشرق الأوسط- هو الذي ساق هذا الإنسان العظيم إلى هذه الفِكرة.

ولربما أراد أن يلفت الأنظار إلى الوضع الخاص للشرق، فرأى ضرورة إقامة جامعة يحدِّدُ هو قواعدها الرئيسة؛ حتى يمكنها التصدي للأحداث المحتمل وقوعها في المستقبل، وظل ينادي بإلحاحٍ بإقامة جامعة "وَانْ".

قـد تكـون هناك حِكَـمٌ لا حصرَ لهـا ولا نعلمُها نحـنُ، وإننا نأمل أن يتحقـق هـذا الأمر بالكيفية التي أرادها الأسـتاذ النُورسـي في المسـتقبل، وسيشـهد الذين يدركون سـعادة رؤية ذلك اليوم كيف أن كل قول أو فعل لهـؤلاء العظام يُمَثِّلُ مـرآةً لآلاف من الحكم دون حاجة إلى أي تأويل أو تفسير.

وإننا نتضرّع إلى من وسعت رحمته كلّ شيء أن يمنّ علينا بتحقّق هذا الأمر بعد أن تبدّت لنا أماراته.

مقياس العفوِ عند المسلم

سؤال: ما الذي يجب أن يكون عليه مقياسُ العَفْوِ والسماحِ عند المسلم؟

الجواب: العفو والسماح والصفح من صفات المسلم، ويجب على كلّ مسلم الاتصاف بها، فالعفو والصفح يُساهمان في ترقيق القلوب وإيصالِ الحقائق إليها، ومع ذلك فمهما كانت هذه الصفة جيّدةً فيجبُ أن تكون متوازنةً على مستوى معين، دون إفراط أو تفريط، كان الرسول ﷺ يعفو ويصفح إلى أقصى درجة ممكنة عن كلّ معاملة سيئة موجهة إلى شخصه، ولكنْ إن كانت هذه المعاملة تتعدّى على الآخرين أو تنتهك أسًّا من أسس الدين فتراهُ ينقلب إلى أسدٍ هصور حتى يأخذَ الحقَّ لصاحبه ويدفعَ عنه هذا البلاء.

لم يقلْ كلمةَ عِتابٍ واحدة للصحابة الذين لم يستوعبوا تمامًا دقّة الانقياد إلى أمره في معركة أحد؛ فتركوا أماكنهم وتسبّبوا في زعزعة جيشِ المسلمين، بل لم يُغلظ عليهم القول ألبتة؛ أما ردّ فعله تجاه المعاملة الخشنة التي تعرض لها من قبل بدوي فظّ بدعوى المطالبة بحقّه فكان التبسُّم ثم الالتفات إلى الصحابة وأمره لهم بأن يعطوا البدوي ما طلب، وإنّ ما ذكرناه لهو غيضٌ من فيض ونقرةُ طائرٍ من بحرِ أمثلةٍ عديدةٍ تثبت سعة مناخ العفو والسماح عنده ﷺ، أما العفو العام الذي أعلنه في مكة بعد فتحها فشيءٌ تحارُ له الألباب، ولا يصل إليه خيالُ إنسانِنا المعاصر.

لقد انخدع بعضُ المسلمين بدعاية أصحاب الإفك الذين حاولوا تشويهَ سمعة أمّنا عائشة ﵂ الطاهرة النقية التي تغبطها ملائكة السماء على عفّتها، ومن بين هؤلاء الذين لطّخوا هذا الذيلَ الطاهرَ وافتروا على السيدة عائشة التي نتمنّى أن تكتحلَ عيونُنا بالتراب الذي تمشي عليه حسانُ بن ثابتٍ شاعرُ النبي ﷺ، فلقد خدعَ هذا الشاعرَ أحدُ المنافقين بطريقةٍ أو بأخرى، فوقع في شِبَاكِ المفترين، وبعدما جاء الوحي ببراءة أمّنا عائشة أقيم عليهم حدّ القذف، ثم مرت السنوات وتقدّم حسان في العمر، ولم تعد عيناه تبصران، يقول مسروق بن الأجدع: دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ ﵂، وَعِنْدَهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يُنْشِدُهَا شِعْرًا، يُشَبِّبُ بِأَبْيَاتٍ لَهُ: وَقَالَ: حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: لَكِنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ، قَالَ مَسْرُوقٌ: فَقُلْتُ لَهَا لِمَ تَأْذَنِينَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيكِ؟ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة النُّور: ١١/٢٤) فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ العَمَى؟ إِنَّهُ كَانَ يُنَافِحُ، أَوْ يُهَاجِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[٩٢]، وفي رواية أخرى قالت السيدة عائشة ﵂ سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول لحسّان: "**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ**"[٩٣].

وكان مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ من بين مَن تورّطوا في حديث الإفك مع أن أبا بكر ﵁ كان يتعهده وينفق عليه، وعندما ظهر اسمه بين المفترين أقسمَ أبو بكر ﵁ أنه سيكفّ عن مساعدته غضبًا منه، ولكن سرعان ما نزلت الآية ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾

(٩٢) صحيح البخاري، المغازي، ٣٦.

(٩٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٣٤.

(سورة النُّورِ: ٢٢/٢٤)، وما إن سمع أبو بكر ﷺ كلمات هذه الآية حتى حنَثَ بيمينه وأدى الكفّارةَ ثم استمر في مساعدة مِسطح ومعاونته والإحسان إليه وكأن شيئًا لم يحدث.

هذه أمثلة حول قيام المؤمنين بالصفح عن أفظع وأقبح ما يُمكن أن يُرتكب في حقّ أي شخص، والحقيقة أنهم استطاعوا النجاح في هذا الامتحان الصعب؛ وإن في ذلك لعبرةً لمن حملوا على عاتقهم مهمة تبليغ الحق والحقيقة.

على دُعاتنا الحاليين النفوذ إلى القلوب، وبيان الحقائق بخلقهم الرفيع وبسماحتهم، ولا يظنّنّ أن الخشونة والحِدّة والغلظة تفيد في شيء، فلم تُجدِ نفعًا لا اليوم ولا في أيّ عهد سابق، أما المناخ الدافئ لِخُلُقِ الصفح والمسامحة فيستطيع إذابة العديد من جبال الثلج، فكم من عدوٍّ قرَّرَ قتلَ الرسول ﷺ غيلةً، وبفضل عفو الرسول ﷺ وصفحه وُهبت له الحياة ثم دخل في الإسلام وأصبح من أصدق أتباعه وأصحابه، ألم يكن خلق العفو والسماح لدى الرسول ﷺ هو الذي ألان قلب عمر بن الخطاب ﷺ فأسلسَ قياده لرسول الله ﷺ؟ ألم يكن هذا الخلق الرفيع للرسول ﷺ هو الذي فتح قلب خالد بن الوليد ﷺ لنور الإسلام فانقشعت عنه الظلمة؟ أليست كلّ هذه فيوضاتٍ نورانيةً انبثقت من مناخ عفو وسماحة سيدنا رسول الله ﷺ؟

والحقيقة أن الله تعالى يطلب هذا من كلّ داعيةٍ وواعظٍ ومبلّغ، فمع أنه بعلمه الأزليّ يعلم أنّ فرعون لن يهتدي إلا أنه عندما أرسل إليه موسى وهارون ﷺ أمرهما أن يقولا له قولًا لينًا فقال: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (سورة طَهَ: ٤٤/٢٠).

مهما تصرّف معارضونا تجاهنا بخشونةٍ وتعصُّبٍ ورجعيّةٍ وغيرها من الأمـور التـي تصبّ في مصلحة أهل الكفر فعلينا أن نُقابل هذه التصرّفات بمرونـةٍ وشـهامةٍ تليقُ وحـالَ المؤمنين، فهذا هو ما يوجبـه علينا المفهوم الأخلاقـي الذي يعلّمنا إيّاه القـرآن الكريم ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْـوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ (سورة الفُرْقَانِ: ٧٢/٢٥)، إن الدستور الذي يجب أن يضعه المؤمن نصب عينيه على المسـتوى الفردي هو ما قاله ربنا تعالى ﴿**وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة التَّغَابُنِ: ١٤/٦٤).

فالمؤمـن الـذي يتمنـى ويأمـل أن يتجلّـى الله عليه بصفـات الغفران والرحمـة عليـه أن يتخلّق بهما ويجعل من العفـو والصفح جزءًا لا يتجزّأ عن خُلُقه، لن يخسر الإنسان الذي جعل شيمتَه العفوَ والصفحَ أبدًا في أيّ مرحلة من مراحل حياته، والذي يضـع المسـتقبل نصبَ عينيه وهو يعيش حياتـه الحالية إنسـانٌ قد وهبه الله تعالى موهبـةً وحكمةً خاصةً به، والذين ينالون مثل هذا الفضل هم أيضًا ورثة المستقبل في هذه الدنيا.

السخريّة من ذوي الإيمان

سؤال: كيف نتخلّص من الشعور بالمهانة الذي ينشأ عند بعض المؤمنين بسبب الاستخفاف بتدينهم؟

الجواب: لا بد أن نعتبر هذا أمرًا طبيعيًّا، لا سيما في هذا العالم الذي نعيش فيه الآن.

إن السخرية والاستهزاء أمران لا يليقان بنا، وليسا من شِيَم المؤمنين، بل إنهما من صفات الكافرين منذ فجر التاريخ، وكثيرًا ما وصفهم القرآن الكريم بهذه الصفات في العديد من آياته الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۞ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/٣٨-٣٩).

وقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۞ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۞ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۞ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/١٠٧-١١١).

وقولـه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِـنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَـرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (سـورة الْمُطَفِّفِينَ: ٢٩/٨٣-٣١).

وكما رأينا قيّد الحقّ تبارك وتعالى صفة الاستهزاء والسخرية بالكافرين، فالمسـلمون لا يسخرون ولا يستهزئون، وأما الكافرون فسيُستهزَأُ بهم في الآخرة كما استهزؤوا بغيرهم في الدنيا، إلى أن تنبعِثَ في أعماقهم مشاعرُ كُرهِ الذات واستحقارُها.

فـإذا كان الوضـع هكذا فلا منفعةَ ولا معنـى مطلقًا من معاملة هؤلاء بالمثل في هذه الحياة الدنيا القصيرة، بل إن الضرر العائد أشـدّ، من أجل ذلك علينا ألا نعاملهم بمعاملاتهم؛ لأن إيماننا يحظر هذا، ونحن سـعداء وراضون بهذا الحظر والمنع الذي فرضه إيماننا.

والآن لِنَعُدْ إلى الشِّقِّ الثاني من السؤال:

إن الإيمـان بـالله تعالـى والإعلان والاعتـراف بعبوديته بيـن يديه لهو أعلى وِسـام شـرف بالنسـبة للعبد، بل هو دائمًا مصدر فَخْرٍ وعِزَّةٍ لنا، ولو كانَ لنا أن نفتخر بشيءٍ لافتخرنا بهذا.

إنهم يهزؤون بصلاتنا؛ يعني بمعراجنا، وبالوسيلةِ التي تُقرّبنا إلى ربّنا، ويسخرون من وُضُوئِنَا؛ يعني من أطيافِ الضوءِ المبهِرَةِ التي تكونُ وسيلةً لأن يتعـرَّفَ علينـا رسـولنا ﷺ عند حـوض الكوثر كما قـال ﷺ: "**إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَونَ يَومَ القِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ، فَمَنِ اسْـتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ**"(٩٤).

(٩٤) صحيح البخاري، الوضوء، ٣.

إنهم يستهزئون بالعمامة التي يضعها بعض المسلمين على رؤوسهم في الصلاة اقتداءً بأشرف المخلوقات ﷺ، فهو القائل: "**رَكْعَتَانِ بعمامة أفضل من سبعين رَكْعَة بِغَيرِ عِمَامَة**"(٩٥)، و"**عَلَيكُمْ بِالْعَمَائِمِ فَإِنَّهَا سِيمَا الْمَلَائِكَةِ وَأَرْخُوا لَهَا خَلْفَ ظُهُورِكُمْ**"(٩٦)، و"**فَرْقُ مَا بَينَنَا وَبَينَ الْمُشْرِكِينَ، الْعَمَائِمُ عَلَى الْقَلَانِسِ**"(٩٧).

وإنّ هذه الأمورَ ليست مناطَ استهزاءٍ على التحقيق، بل إنّ لها قيمةً أخرويةً يُغبط أصحابُها عليها.

وإن كان لا بدّ للاستهزاءِ من متعلَّقٍ يُناطُ به فهو بمن تردّى إلى دركةٍ أدنى من دركة الحيوان بجحوده لله تعالى.

إن السكارى والمدمنين هم وصمة عارٍ على جبين المجتمع، فليُسخَرْ منهم إن كان لا بدّ من السخرية.

وإن الربويين والمهرّبين والمحتكرين هم أعتى اللصوص في الحياة التجارية، فليُسْخرْ منهم إن كان لا بدّ من السخرية، وليُسخر

من الذين ينغمسون في الخلاعة والمجون، ويتاجرون بعفتهم وشرفهم؛ إن كان لا بدّ من السخرية.

وإن من جعلوا من البجاحة عادةً ووجّهوا إنساننا إليها يسخرون من الشباب المتديّنين لأنهم لا يعلمون مِمّ يخجلون ومِمّ لا يخجلون، ولكن على من يتعرّض لكل هذا أن يراعي الأساس القرآني: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ (سورة الفُرْقَانِ: ٢٥/٧٢).

(٩٥) الديلميّ: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٢/٢٦٥.

(٩٦) الطبراني: **المعجم الكبير**، ١٢/٣٨٣؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٨/٢٩٥.

(٩٧) **سنن أبي داود**، اللباس، ٢٢؛ **سنن الترمذي**، اللباس، ٤٢.

أجل، على هؤلاء الشباب المتديّنين -تيك الزمرة التي بجّلها القرآن وقدّرها- أن يكونوا باسمين وهم يمرّون مرور الكرام الشرفاء على هؤلاء الجهلاء مجهولي الهوية غير المتّزِنين، وأن يكشفوا عن الأفق الحقيقي للمسلم الحقيقي.

إن المستهزِئَ يكشِفُ عن صِغَرِهِ وحَقَارَتِهِ، أما الشاب المسلم الذي ما زال يُفَكّر في هداية هؤلاء دون أن يخلّ مطلقًا بوقاره واتّزانه وجدّيّته؛ فعليه أن يقوم بمهامه بما يُوَضِّحُ سَيره على نهج النبي ﷺ؛ لأن الجميع في النهاية سيُبعث على ما ماتَ عليه، فمن يَسْتَهْزِئْ بالمسلمين اليوم سيكون موضعَ استهزاءٍ غدًا، ومَن يُسخَرْ منه اليوم سيكون موضعَ عزةٍ وكرامةٍ غدًا، يمرّ يوم القيامة على الصراط كالبَرْقِ الخاطف، ويبلغ جنّات الفردوس الأبديّة.

اللهم ثبت أقدام شبابنا الذي يتعرّض للسخرية والاستهزاء، اللهمّ ثبّت أقدامهم على دينك الحقّ، اللهم لا تجعل الملَلَ والضجَرَ والضيق يتسرّب إلى نفوسهم، وأَمِدَّهُم بالحَولِ والقُوَّةِ حتى ينشروا دينَكَ في كلِّ ربوع الأرض... آمين.

الهجرة في سبيل الله

سـؤال: عند ظهور أيّ دعـوة كان أفرادُها يؤمرون بالهجرة، فهل يُعـدّ الارتحـال اليوم من بلدٍ إلى آخر لخدمة الحقِّ هجرةً في سـبيل الله؟

الجـواب: الهجـرة مسـألة عظيمة تنطـوي على معانٍ دقيقـة وحقائق كبيرة، فكما تعني هذه الكلمة الهجرة من بلد إلى آخر كذلك تعني الهجرة من فكرٍ إلى آخر، وتدلّ أيضًا على هجرة الإنسان من نفسه إلى نفسه، ولا أدري هل أستطيـع أن أوفّي هذه الكلمة وما تحمله من معانٍ عميقة حقّها بما يتناسـب مـع أهميتها وقدرها العظيم أم لا، ولكني سـأقوم بعرض ما أستطيعه مستعينًا بالله تعالى وبلطفه وإحسانه.

الهجرة أسـاسٌ مهـمٌّ في كلّ دعوة عظيمة، لذا فـلا يوجد رجل دعوةٍ عظيمـة، ولا رجـل فكرٍ كبيـر ولا رجل تحمّل عبء وظيفـةٍ عظيمة -وأنا علـى وعيٍ بما أقول- لم يهاجـر، لقد ترك كلُّ رجلِ دعوةٍ البلدَ الذي وُلِدَ فيـه ورحـلَ من أجل دعوته إلى بلدٍ آخر، وأكثر الجوانب بركةً وأهميةً في موضـوع الهجـرة هي أنها أمرٌ من الله تعالى؛ ذلك لأن هناك معاني سـاميةً تقترن بهذه الهجرة لها أهميةٌ خاصة للشخص المهاجر الذي سيقوم بخدمة الدعوة، ومـع أن أحدًا لم ينعت سـيدنا إبراهيم عليه السلام بـ"النبي السـائح" فإن هـذه الصفـة هو أهلٌ لهـا وجديرٌ بها، ففي ذلك العهد الذي كانت تتعسّـر فيه وسـائل النقل فإننا نسـمـع صدى صوتِهِ يدوّي وهو يدعو "النمروذَ بن

كنعان" ملكِ "بابل" إلى الإيمان والتوحيد، قال تعالى حكايةً عن ذلك الحال: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢٥٨/٢)، ثم إذا بنا نراه في أرض "كنعان"، ثم في سوريّة، كما يورِدُ المؤرّخون أنّ ملِكًا جبّارًا كان يحكم الشامَ يُدعى "صادوقًا" مرّ به إبراهيم برفقة زوجته "سارة"، ودعاه إلى الإسلام[٩٨]، وكأنّ لسانَ حاله هو وزوجته "سارة" يقول كما قال النبي ﷺ يوم بدر: "**اللّهُمّ إنْ تُهْلِك هذه العِصَابَة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض**"[٩٩].

إذًا فقد كان إبراهيم عليه السلام يسيح في أرجاء الأرض ومعه زوجته المباركة ليهمسَ في أذن كلّ مَن يصادفه ويدعوه إلى الله وحده، ثم لا نلبث أن نراه قربَ الحرم الشريف الذي كان قد تهدّم تمامًا؛ أي إنه استوطن -فترةً- مكة المكرمة التي سينشأ فيها بعد ذلك سيّدَ الرسل محمد ﷺ، والتي ستظلّ محرابَ المؤمنين وقبلتهم المقدسة إلى يوم القيامة، والتي يعدّ خرابها من أكبر علامات قيام الساعة.

جاء إبراهيم عليه السلام إلى الحرم الشريف فرأى حطامًا وأنقاضًا اكتسحتها وجرفتها السيولُ المادية والمعنوية؛ أي إن سيول الكفر والضلالة تعاونت

(٩٨) ولما دخل إبراهيم عليه السلام ومعه سارة إلى أرض هذا الجبّار قال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنكِ امرأتي يغلبني عليك، فأخبريه أنكِ أختي -أي في الإسلام- فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيرك وغيري، فلما دخلا رآها بعض أهل الجبار، فقالوا له: لقد قَدِمَ أرضَك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا لك، فأرسَلَ إليها فأُتِيَ بها وقام إبراهيم إلى الصلاة والدعاء، فلما دخلت عليه أعجبته، فمد يده إليها، فأيبس الله تعالى يده، فقال لها: ادعي الله أن يُطلق يدي ولا أضرّكِ، فدعت، فعاد، ثم وثم، حتى دعا الذي جاء بها، وقال له: أخرجها من أرضي، وأعطاها "هاجر" وكانت جاريةً في غاية الحسن والجمال، فوهبتها سارةُ لإبراهيم، فولدت له إسماعيل عليه السلام... إلخ. (أوردَ هذه القصّة بالتفصيل ابن حجر: فتح الباري، ٣٩٢/٦؛ وغيره)

(٩٩) **صحيح مسلم**، الجهاد والسير، ٥٨

مع سيول المياه المتدفّقة من أباطِحِ مكّة المكرّمة، وكأن الله تعالى قد رفع الكعبة المشرفة إليه -بمادّتها ومعناها- في تلك الأيام السوداء التي حَلَكَ فيها الظلام والظلمات.

وبعد أن رأى إبراهيم عليه السلام هذا المشهد حاول إعادة بناء الكعبة مع ابنه إسماعيل عليه السلام انطلاقًا من قواعدها المتبقّية، ثم أذّن إبراهيم في الناس يدعوهم للحج إليها، فاستجاب له أصحابُ الضمائر الحية وأسرعوا إليها، ويقول بعض المحققين إن الأذان المحمدي قد استُنْبِطَ من أذان إبراهيم عليه السلام ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾ (سورة الْحَجّ: ٢٢/٢٧).

ومقام الحرم الشريف مقامٌ عالٍ يُؤَهّلُ روّادَه من تأسيس علاقةٍ مع الله، لأن الكعبة مطافُ الملائكة والروحانيين حتى سدرة المنتهى، وطواف الناس حول هذا المطاف له أفضليةٌ تفوق كلَّ التصورات، فقد قال الرسول ﷺ: "**إِذَا قَالَ الْقَارِئُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾** (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/٧) **فَقَالَ: مَنْ خَلْفَهُ: آمِينَ، فَوَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ أَهْلِ السَّمَاءِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**"[١٠٠]، وعندما نقوم بالطواف حول الكعبة نشترك في الطواف مع أرواح الأنبياء العظام عليهم السلام، ونكون تحت نظر الله تعالى ورعايته، وما زال الملائكة الكرام حتى سدرة المنتهى يطوفون حول هذا المكان النوراني إلى الآن، وسيبقون إلى يوم القيامة، وليعلم كلّ طائفٍ وهو يطوف حول البناء القدسي الذي سماه الله تعالى "بيتي" أن الروحانيين يطوفون عن يمينه ويساره، ومؤمني الجن يطوفون حتى باطن الأرض، والملائكةَ تطوف حتى امتداد سدرة المنتهى.

(١٠٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٧٦.

فـي مثل هـذه البقعة المباركة شـرّفَ رسـولُنا ﷺ الدنيـا، وكانت هذه البقعة من أهم معالم الهجرة الطويلة لإبراهيم عليه السلام.

أجل، لقد وصل إبراهيم عليه السلام إلى هذه البقعة بعد رحلة طويلة، وسكن هنالـك وكأنـه أنهى هجرته هناك، هنا التقت الهجرةُ مـع البذرةِ التي كانت هي الغاية من هذه الهجرة، ثم تحوّلت هذه البذرة إلى شجرةٍ وارفة مورِقة، ثم اتجهت الشجرة بفرعيها الكبيرين إلى الأبد، أحد هذين الفرعين أعطى ثمراته عدة مرات، أما الفرع الآخر فقد امتدّ إلى الأبد، وهذا الفرع هو فرع إسـماعيل وقـد أعطى ثمرة لو وُضعت في إحـدى كفتي الميزان لرجحت علـى جميـع الأنبياء العظام وكانـت مفخرةً للأجيال القادمـة، هذه الثمرة هـي محمد ﷺ الصادق الأمين صاحـب الفطنة الكبيرة، وهي نتيجة هجرة إبراهيم عليه السلام.

لمـاذا أُطلق لقبُ "المسـيح" علـى النبي عيسـى عليه السلام؟ إن أحد معاني "المسـيح" هـو السـائح فـي الأرض، وهـو من صيـغ اسـم "الفاعل" أي الشـخص الكثير السـياحة، وقد بحث عيسـى عليه السلام هنا وهناك عمّن يُسـلِّم قلبَه للحقّ وللحقيقة، فحصل نتيجة سـياحته الطويلة هذه على اثني عشـر حواريًّا، اتّخذ عيسى عليه السلام هؤلاء الحواريين تلاميذَ له، واتّجه بهم نحو فتح العالم وأداء الأمانة العظمى التي حمّلها الله له وتحقيق دعوته الكبيرة بهم، فإن اسـتثنينا الطالبَ الذي خانه فمعنى هذا أنه خرج لفتح العالم بوسـاطة أحد عشر طالبًا من طلابه، ومـع أنه لا يُعرف أين وُلد السيد المسيح عليه السلام، ولكننـا نعـرف إلـى أين توجّه في هجرته المقدسـة، وهناك كتـبٌ تاريخيّةٌ تذكر أنه وصل في هجرته وسـياحته إلى وسـط الأناضول، لقد سـاح في أرجاء فلسطين وفي شبه الجزيرة العربية، وعندما بلـغ عمره ثلاثةً وثلاثين

عامًا ترك -حسبَ مقاييسنا ومعاييرنا- هذا العالمَ الفاني، ورُفع إلى عالمٍ أسمى؛ إلى عالمٍ خاص به، لقد ساح في أجزاء كثيرة من العالم أكثر من كثير من السيّاح، باحثًا عمّن يصغي إلى صوت دعوته من أصحاب القلوب السليمة والوجوه النضرة.

شبّ موسى عليه السلام في قصر فرعون، ومع أنه تعود على حياة القصورِ الناعمة، إلّا أنه كان أيضًا رجلَ هجرة، ولو بحثنا ودقّقنا في حياة الأنبياء العظام لرأينا الهجرة سمةً مشتركةً بينهم.

لا شك أن أكبر مهاجر ضمن هؤلاء المهاجرين المباركين هو رسولنا ﷺ، لأن الهجرة -مثلها في ذلك مثل جميع الأمور- وصلت عنده إلى الذروة الكاملة، لقد جمع في عبوديته البداية والنهاية معًا؛ إنه كان يجمع بين مبتدإ العبادة ومنتهاها، إذ كان يشاركُ الأعرابيُّ في مائدته السماوية التي يرتادها ذاتُها جبريل عليه السلام، ولقد جرت هجرته ﷺ على نفس هذا النمط.

أجل، كانت هجرته من مكة إلى المدينة هجرةً شاقة ولكن ذات معانٍ عميقة، ونحن لا نعرف كيف تناول الأنبياء الآخرون موضوع الهجرة، أما هو ﷺ فقد كان يعاهد ويصافح وهو يشترط ويقول "على أن تهاجر"، بل كان يُنظر في تلك الأيام إلى من يتخلّف عن الهجرة دون مانعٍ على أنه منافق، لكن لمّا لم يتمكن الوليد بن الوليد وعياش بن ربيعة وسلمة ابن هشام رضي الله عنهم من الهجرة لبعض الأسباب المانعة سُمح لهم بعدم الهجرة، لقد كان هؤلاء الثلاثة فقط من السعداء غير المهاجرين لذا حاول الرسول ﷺ أن يملأ هذه الثغرة الخارجة عن إرادتهم بالدعاء لهم. كان يرفع يديه بالدعاء بعد الركوع قائلًا: "**اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ،**

وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ"[١٠١]، وظل هكذا حتى أنزل الله: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٢٨/٣). أجل، يدعو ربه ويتضرع إليه؛ ذلك لأن هؤلاء كانوا من أوائل مَن أسلموا، كان عياش ﷺ أخًا لأبي جهل من جهة الأم، ولكن ما إن نطق بالشهادتين حتى وُضعت القيودُ في يديه وفي رجليه والأغلالُ في رقبته، وقُيِّدَ بالحديد وتعرّضَ للإهانةِ والضربِ من قِبَلِ أخيه الأكبرِ أبي جهل، ومن قِبَلِ ابنه عكرمة الذي تشرّف فيما بعد بالإسلام وأصبح من أبطال اليرموك، وبقي عياشٌ ﷺ على هذه الحالة إلى أن دخل النبيُّ ﷺ مكّةَ فاتحًا منتصِرًا.

أما سلمة بن هشام ﷺ فكان أخًا لأبي جهل من قِبَلِ الأب، وقُيّد هو الآخرُ بالحديد في يديه والأغلال في عنقه، أما الوليد بن الوليد ﷺ فكان الشقيق الأكبر لخالد بن الوليد ﷺ، وابن الوليد بن المغيرة، والغريب في الأمر أن جميعهم كانوا من قبيلة بني مخزوم، لقد بذلوا كلّ ما في وسعهم للوصول إلى رسول الله ﷺ والهجرة معه ولكنهم لم يستطيعوا التغلُّب على الصعاب والعقبات التي وُضعت أمامهم، لذا كان الرسول ﷺ يرفع يديه بعد الركوع في صلاة الفجر ويدعو لهم بالنجاة، وكان أحيانًا يدعو لهم في صلاة الظهر والمغرب والعشاء أيضًا.

لقد كانت الهجرة مهمةً بالنسبة للرسول ﷺ، إذ كان يوصي كلَّ مَن يصافحه بأن يهاجر، ويدعو لكلّ مَن عجز عن الهجرة بأن ييسّرَ الله له الهجرة، وعندما مرض سعد بن أبي وقاص ﷺ في مكة بعد فتحها أخذه القلقُ والرعدة الشديدة، وأعرب عن قلقِهِ هذا لرسول الله ﷺ الذي عاده في مرضه هذا قائلًا له: "يَا رَسُولَ الله، بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ مَا تَرَى،... يَا

(١٠١) صحيح البخاري، الأذان، ١٢٦؛ صحيح مسلم، المساجد، ٢٩٤.

رَسُولَ الله، أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟"[١٠٢]، أي مع أن مكّةَ مقدّسة ومباركة إلا أنهم كانوا يقلقون خشية بقائهم بعيدًا عن أرض هجرتهم.

الهجرة عملٌ صالح يستجدي رضا الله تعالى؛ لأن المهاجر يتحمّل تضحيات كبيرة في سبيل الله.

أجل، إن الإنسان يحبّ عائلتَه وأولادَه وعيالَه والوطنَ الذي وُلد فيه حبًّا جمًّا، فكم من شاعرٍ ترنم بالحنين إلى الوطن ووحشة الغربة، فهذا إحساسٌ موجودٌ لدى الجميع، ولكونه إحساسًا فطريًّا فإن الإنسان لا يستطيع أن يجتثّه من داخله، لذا نرى سيدنا بلال بن رباحٍ ﷺ رغمَ ما تكتنفه المدينة المنورة من جمالٍ ساحر إلا أنه يبكي عندما يتذكّر مكة، وينشد أشعار الشوق والحنان لها، ولم يكن شوق أبي بكر ﷺ وغيره أقلّ من هذا الشوق، لقد هاجروا إلى المدينة في سبيل عقيدتهم ودعوتهم، ولكن الشوق إلى ديارهم كان يكوي أفئدتهم، فشخصٌ مثل أبي بكر ﷺ الذي لم يفكر لحظةً واحدةً في فراق الرسول ﷺ كان أيضًا يتفطّرُ شوقًا إلى مكة ويستاءُ من فعل المشركين الذين تسبّبوا في تركه ديارَه ووطنَه، أما نبينا ﷺ فكان يقول لمكة حينما ودعها كما جاء في أوثق كتب الحديث: **"وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ"**[١٠٣].

وهذا شعورٌ بالشوق والحنين إلى الوطن، لذا يجب علينا النظر إليها من هذه الزاوية أيضًا عند تناول موضوع الهجرة، فالصحابة وُلِدوا في مكة وترعرعوا هناك وتعودوا عليها، ثم كان هناك البيت الذي بناه أبوهم

(١٠٢) **صحيح البخاري**، المناقب، ١١٠؛ **صحيح مسلم**، الهبات، ٤.

(١٠٣) **سنن الترمذي**، المناقب، ١٣٢؛ **سنن ابن ماجه**، المناسك، ١٠٣.

إبراهيم عليه السلام والذي كان يأتي لزيارته الآلاف من الناس من أقاصي الأرض كلّ سنة، وكانوا هم سدنة هذه الكعبة وساداتها، فمنهم مَن أخذ على عاتقه مهمةَ إطعام الزائرين، ومنهم مَن أخذ على عاتقه مهمّة سقايتهم بماء زمزم، ومنهم مَن أخذ على عاتقه الاهتمام بالذبائح التي يقدمونها لبيت الله، كان لكلٍّ منهم مهمة يؤديها، وعادةً يصعب على الشخص ترْكَ ما تعوّد عليه، فنحن مثلًا تعودنا على تذوق المشاعر العميقة التي يبعثها فينا شهر رمضان والصوم والإفطار وأداء صلاة التراويح، وكذلك تنتابنا مشاعر وأحاسيس عميقة عند ذهابنا إلى الحج، ثمّ عودتنا منه ومشاعر الفراق المثارة في نفوسنا؛ وإن كان شيئًا مؤقتًا، وقد جرّب الكثيرُ منّا ولِعِدَّة مرات هذه المشاعر، بينما كان سادتنا الصحابة رضي الله عنهم عليهم يتركون أوطانهم ومساكنهم وأولادهم وعيالهم، فمثلًا عندما هاجر عمر رضي الله عنه لم يأخذ معه زوجاته، وعندما هاجر أبو بكر رضي الله عنه لم تكن معه ابنته عائشة رضي الله عنها.

عجبًا! أين كانت هذه السيدة العزيزة التي اكتسبت عزةً ما بعدها عزة بارتباطها بالنبي ﷺ في ذلك الوقت يا ترى!؟

وأين بقيت هي وزوجات أبي بكر رضي الله عنه اللواتي لا نعرف حتى أسماءهن، وأين بقي والده الشيخ الأعمى أبو قحافة، كيف تركهم أبو بكر رضي الله عنه كلهم وذهب؟ هل نستطيع أن نُلْصِقَ تُهمةَ قساوة القلب بهذه النماذجِ من الشفقة والرحمة!؟ أبدًا... كان كلٌّ منهم مثالًا للرحمة والشفقة، وكانت علاقاتهم الأسرية من القوّة بمكانٍ يجعلها تفوق أيَّ تقدير، ولكن الهجرة في سبيل الحقّ كانت فوقَ كلِّ شيء وأولى من أي شيء، لذا أبقى هؤلاء كلّ ما يملكون في مكّة وهاجروا، كان منهم مَن يهاجر جهارًا نهارًا وعلنًا ومتحديًا الجميع، وكان منهم مَنْ لا يعرف شيئًا سوى أنه يهاجر في سبيل الله،

أي كان يخطو ويشدّ الرحال نحو شيء غامضٍ ومجهول، كانوا يملكون في وطنهم الذي يفارقونه كلَّ شيء: المساكنَ والأولادَ والعيالَ والمالَ، وكان الفقرُ والوحشةُ والغربة والوحدة تنتظرهم في البلد الذي يتوجهون إليه، إذ لم يكن معلومًا لديهم آنذاك أن أهل المدينة الأوفياء سيرحبون بهم ويضمّونهم إلى صدورهم ويقاسمونهم مساكنهم، كان هؤلاء المهاجرون يمثّلون قِوَامَ الإنسانية، ومن ثمّ ساعدوا على ظهور ثُلّةٍ فريدةٍ هي الأنصار، وهكذا صار الأنصار حواريّين في مصافّ القدسيين، واكتسب المهاجرون صفة النصر والتآزر من الأنصار.

لم تكن سمة حياة هاتين الجماعتين متوافقةً، ولا طرز حياتهم متقاربة، وكانت آفاقهم الفكرية مختلفةً عن بعضها، ولم يكن مستوى الحوار بينهما بالمستوى نفسه أبدًا؛ لذا فقد قاسى المهاجرون الكرامُ وتكبّدوا من العناءِ ما لا يوصَفُ حتى انطبعت حياتهم كلّها بطابع الهجرة، ومع ذلك فلم يرجع أحدٌ منهم سوى بائس واحد إلى مكة، إذ لم يكن الإيمان قد استقرّ في قرارة فؤاده بعد، أما الباقون فلم يفكّر أحد منهم بالرجوع إلى مكة، إن الهجرة التي عمّقت إيمان الصحابة الكرام والتي أعطت للإسلام والمسلمين لونًا متميزًا أصبحت اليوم أيضًا من مواضيع الساعة.

والهجرة تُكسبُ طلابَ القرآن معاني جمّة؛ ذلك لأن كلّ شخصٍ يترك -إلى جانب الآثار الإيجابية في البلد الذي ولد وترعرع فيه- بعضَ الآثار السلبية كذلك، فلكلّ واحدٍ ذكرياتٌ سلبية أيضًا في قريته أو بلدته وبين أقرانه؛ فهناك أيام تشاجر فيها مع أصدقائه، أو قام بأشياء ليضحك الناس، وهذه الأمور لا تتلاءم والوقارَ الذي يجب أن يتحلّى به بعد أن يأخذ على عاتقه مهمّة الدعوة إلى الله؛ ذلك لأن مثل هذه التصرفات

الصبيانية السابقة -التي لا مفرّ منها في مرحلةٍ معينة من العمر- قد تكدّر أذهان البعض وتُلقي بظلالها سلبيًّا على مهمّة الدعوة والتبليغ، وتكون سببًا وعاملًا في بعض التقييمات السلبية تجاهه.

فمثلًا كان المكّيّون يقولون عن النبي ﷺ: يتيم أبي طالب. أجل، كانوا يُطلقون على فخر الكائنات -الذي يستحقُّ تضحية الثقلين بالأرواح من أجله- صفةَ "يتيم أبي طالب"، يريدون بذلك التهوينَ من شأنه ورسالته، يريدون استعمال يُتمه كسلاحٍ موجّهٍ ضده، يودّون أن يقولوا: "ويحك! أهذا الذي كان يركض معنا في الأزقة وهو صبيّ ويمشي بيننا في الأسواقِ يَدَّعِي أنه صعد إلى السماء وأتى بأخبارٍ لا يمكن أن تتصوّرها عقولنا؟". هذا علمًا بأن الله تعالى كان يهيّئه منذ صغره لمهمّة النبوّة والرسالة ويصونه ويحفظه من كلّ ما يمكن أن يُلقِي بظلاله سلبًا على مهمّة الدعوة والتبليغ هذه، وهاكم مثالًا على ذلك، يقول النبي ﷺ: **"مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَينِ مِنَ الدَّهْرِ كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللهُ مِنْهُمَا، قُلْتُ لَيلَةً لِفَتًى كَانَ مَعِي مِنْ قُرَيشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لِأَهْلِنَا نَرْعَاهَا: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ، قَالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ، فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِنَاءً، وَصَوتَ دُفُوفٍ وَمَزَامِيرَ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةَ -لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ- فَلَهَوتُ بِذَلِكَ الْغِنَاءِ، وَبِذَلِكَ الصَّوتِ حَتَّى غَلَبَتْنِي عَينِي، فَنِمْتُ فَمَا أَيقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ"**[١٠٤].

(١٠٤) صحيح ابن حبان، ١٦٩/١٤.

أجل، كان الله تعالى يهيّئُه لشيءٍ معيّن، شارك في صباه في بناء الكعبة بعد أن انهدمت جرّاءَ السيول؛ فكان ينقل الأحجار، وما كان من المتصوّر أن يتخلّف عن مثل هذا العمل الشريف، وفي أثناء العمل قَالَ العَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنَ الحِجَارَةِ، فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ وَطَمَحَتْ عَينَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: "**إِزَارِي إِزَارِي**" فَشَدَّ عَلَيهِ إِزَارَهُ[١٠٥].

لقد كان الله تعالى يصونه من كلّ شيء لا يليق به لأنه كان يهيّئه لحملِ رسالةٍ كبرى، ولكن مع كلّ هذا كان مشركو مكة يدعون سيّدَ السادات صلوات ربي وسلامه عليه بيتيم أبي طالب.

في مثل هذا الجو الذي لم يكن الرسول ﷺ يجد نصرًا وتأييدًا من أهل مكة؛ فَتَحَ الأنصارُ صدورَهم له، وفتحوا أبواب بلدتهم وأبواب بيوتهم له، واستسلموا له كليًّا عندما طلب منهم البيعة في بيعة العقبة الثانية قائلين: "بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَينَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَينَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَومَةَ لَائِمٍ"[١٠٦]، وهكذا وجد الرسول ﷺ نفسه بين أناسٍ يعرفون قدرَه، ويرونه مثل شمس الضحى صافيًا مضيئًا، ويُقدّمون له الاحترام المطلوب، كانوا يرونه نبيًّا منذ أول يوم رأوه فيه، ويرون فيه الجِدّية والوقار الخاصة بالنبوة رغم أنهم كانوا لا يعلمون عن طفولته شيئًا.

كما كان الصحابة الكرام ﷺ يُهانون في بلدهم مكة، فلم يتيسّر للمكّيين معرفة قيمة سيدنا بلال الحبشي ﷺ إلا بعد فتح مكة، مع أنه هو

(١٠٥) **صحيح البخاري**، المناقب، ٨٩؛ **صحيح مسلم**، الحيض، ٧٦.

(١٠٦) **صحيح البخاري**، الأحكام، ٤٣؛ **صحيح مسلم**، الإمارة، ٤١ (واللفظ لمسلم).

وكثيرٌ من أصحابه من الرجال من ذوي القلوب والنفوس الطاهرة كانوا يتعرضون في مكة -نتيجة النظرة الاجتماعية الطبقيّة السائدة هناك- إلى صنوف عديدة من الأذى والإهانة، ولكنهم أصبحوا في المدينة جماعةً مكرمةً وعزيزة، حتى إن الأنصار كانوا يتوسّلون إلى الرسول ﷺ ويطلبون منه أن يكون المهاجرون شركاء لهم في أموالهم ومساكنهم، وهذا جانب آخر من جوانب الهجرة...

هذا علمًا بأن هؤلاء المهاجرين كانوا محطّ اهتمامٍ خاصّ للنبي المصطفى ﷺ، إنّ هذا الرسول الكريم الذي قاد الهجرة قد أُعِدَّ وهُيِّئَ للرسالة منذُ نعومةِ أظفاره، فنشأ وترعرع تحت حماية الله تعالى وصَونه ورعايته.

وبالنسبة إلينا فإن الهجرةَ مهمّةٌ جدًّا في سبيل الدعوة؛ ذلك لأنّ كلّ واحدٍ منّا له أخطاءٌ حسب مقتضى الطبيعة البشريّة، وقد تُثار في حقّنا بعضُ الأقاويل، لذا كان من الأفضل الهجرة من الأماكن التي كنّا فيها؛ لأنه مهما كانت النيات صافية فمن الضروري ألا تتشوّه صورتنا ولو بأدنى شيء في أذهان المخاطبين؛ حتى يمكن أن نبعث الأمن والطمأنينةَ والثقة في نفوسهم، ولا يتيسر هذا إلا عندما نكون بين مَن لا يعرفون أخطاءنا ونواقصنا السابقة، ونكون عندهم كمَن نزل من السماء إليهم حسب التعبير الشعبي الدارج، فهذا مهمّ جدًّا من حيث التأثير الذي تُحدثه الخدمة في قلوب الآخرين.

ومشيئة الله ﷻ بتهجير جميع المرشدين والمجدّدين يُظهر أن الهجرة قانونٌ إلهي، فكأن الله تعالى أجبر جميع المرشدين والمبلغين على الهجرة بمقتضى هذا القانون، فمثلًا يظهر أحدهم في الجبال الشمّ للولايات الشرقية للأناضول[١٠٧]، ولكن نسمع صدى صوته يدوي في

(١٠٧) يرمزُ المؤلِّفُ بهذه الإشارةَ إلى بديعِ الزمان سعيد النُّورسي.

غربي الأناضول أو في آفاق إسطنبول، وكان الإمام الغزالي كثيرَ السياحة، وكان الإمام الرباني يسيح في طول الهند وعرضها، وعندما ندقق في حياة هؤلاء العظماء الأفذاذ نجد للهجرةِ مساحةً واسعةً في حياتهم.

إن الهجرة المقدّسة تتبوّأ الآن من زاوية الدعوة أهمّيّةً أكبر مما كانت عليه في السابق، فإن قام أخٌ مؤمنٌ بالهجرة إلى بلدة أخرى فيجب ألا ننظر إليه باستهجان، صحيحٌ أنه لا توجد الآن "مدينة منورة" ولكن ستكون هناك مدن تحاول تقليد "المدينة" وتصطبغ بصبغتها، وبتعبير آخر: لكي نستطيع المثول بين يدي "صاحب المدينة" ﷺ علينا أن نُنشئ عدة مدنٍ مثلها، ولكي نستطيع أن نقول: "لقد تركنا مدنَنَا خلفَنا يا رسول الله لكي نحضرَ إلى مدينتك"؛ فهناك حاجةٌ إلى الهجرة وإلى بلادٍ للهجرة، لذا لا نستطيع أن نستخفّ بموقف الذين رحلوا إلى أرجاء الأرض وتوزّعوا في أقاليمها ووضعوا عصا الترحال والهجرة على عواتقهم لنشرِ الإسلام؛ ذلك لأنهم لم يفعلوا هذا لسببٍ مادي أو لمصلحة شخصية، بل إنّ هدفَهم هو نشر الإسلام ونيل رضا الله تعالى ليس إلا.

إن الذين هاجروا في سبيل دعوة الحق من سائر أنحاء العالم الإسلامي سيُجازَون حسب نياتهم بمقتضى فحوى الحديث الشريف: "**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**"(١٠٨)، ونحن ندعو الله تعالى أن يتبوّأ هؤلاء مقاماتهم بجانب المهاجرين الأولين، أي يحشر الله تعالى المهاجرين مع المهاجرين والأنصار مع الأنصار، وعندما يُنادى يوم المحشر: "ليجتمع المهاجرون" فإننا نأمل أن يكون هؤلاء خلف المهاجرين الأولين من الصحابة، فمَن يدري ماذا سيجدون أمامهم؟ أيجدون أمامهم أبا بكر أم عمر بن الخطاب أم عثمان أم علي ﷺ؟

(١٠٨) **صحيح البخاري**، بدءُ الوحي، ١؛ **صحيح مسلم**، الإمارة، ١٥٥.

أنصتوا إلى هذا الفقير الذي يشعر في كلّ لحظةٍ أن الله تعالى سيحاسبه على ما اقترفت يداه، ويدرك جيدًا أن أحد قدميه قد باتت على شفير القبر، وهذا يعني أن الله تعالى سيحاسبني على ما أقول إن كنت بالغتُ في الأمر أو ذكرتُ شيئًا خلاف الواقع.

قد لا نستطيع تحقيق غايتنا المثالية التي هاجرنا من أجلها، لكن الفوزَ سينال هؤلاء المهاجرين طالما كانت نيّاتهم خالصةً، وما دامت تشغل أذهانهم فكرة: "ليت الله يكتبها لنا، أو على الأقل نهاجر إلى بلدٍ نظلّ فيها بضعة أسابيع نخدم غايتنا المثالية خلالها"، ولنشرح هذا بحديث عن رسول الله ﷺ حيث يقول: "**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**"(١٠٩).

أجل، إن كان أحدهم يتحرّق شوقًا لخدمة دين الله ودعوته ويخطّط لإيصال دين الله حتى أقصى الأرض ويدعو قائلًا: "لنذهب ولنر ولنشاهد ولنعلِّم ولنرشد ولنمش على طريق الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وعلى أثر رسولنا ﷺ مفخرةِ الإنسانية، لنُنْجِز مهمتنا هذه.." مثل هذا الشخص حتى إن توفي في بلده فإننا نأمل أن يكتبه الله تعالى في ديوان المهاجرين.

ندعو الله تعالى أن يخصّ الذين ناءَ كاهلُهم بالعمل في خدمة الإسلام والعالم الإسلامي بثواب المهاجرين وثواب الشهداء، إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١٠٩) **صحيح مسلم**، الإمارة، ١٥٧؛ **سنن أبي داود**، الصلاة،٢٦؛ **سنن الترمذي**، فضائل الجهاد، ١٩.

مصادر

أبو بكر بن الخلال، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (ت: ٣١١هـ)؛ **السنّة**؛ تحقيق: د. عطية الزهراني؛ دار الراية، الرياض، ١-٧، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

ابو الليث، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)؛ **بحر العلوم**.

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان ابن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **مصنف ابن أبي شيبة**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، ط ١، (١٤٠٩هـ).

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ١-٢، ط ٢، (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١-٨، ط ٢، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)؛ **تاريخ دمشق**؛ تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي؛ دار الفكر، ١-٨٠، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ؛ **مسند الإمام أحمد ابن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة ، ١-٦.

الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (ت: ٥٣٥هـ)؛ **الترغيب والترهيب**؛ تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان؛ دار الحديث، القاهرة، ١-٣، ط ١، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **الزهد الكبير**؛ تحقيق: عامر أحمد حيدر؛ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، (١٩٩٦م).

ـــــــ، **السنن الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ٣، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **شعب الإيمان**؛ تحقيق: الدوكتور عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط.١، ١-١٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمذاني (ت: ٥٠٩هـ)؛ **الفردوس بمأثور الخطاب** (مسند الفردوس)؛ تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت:٣٣٣هـ)؛ **المجالسة وجواهر العلم**؛ تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان؛ جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، ١-١٠.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)؛ **أسباب نزول القرآن**؛ تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان؛ دار الإصلاح، الدمام، ط٢،

وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ، أستاذ ورئيس قسم الفقه الإسلاميّ وأصوله بجامعة دمشق - كلّيَّة الشَّريعة؛ **الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ** (الشَّامل للأدلّة الشَّرعيَّة والآراء المذهبيَّة وأهمّ النَّظريَّات الفقهيَّة وتحقيق الأحاديث النَّبويَّة وتخريجها)؛ دار الفكر، سوريَّة، دمشق.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم ابن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت:١٧٩هـ)؛ **الموطأ**؛ تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي؛ مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ١-٨، ط ١، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

محب الدين الطبري، أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، (ت: ٦٩٤هـ)؛ **الرياض النضرة في مناقب العشرة**؛ دار الكتب العلمية، ١-٤، ط ٢.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، (١٩٩٢م).

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ **من كليات رسائل النور: الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: الشعاعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: سيرة ذاتية**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة (ت: ٤٦٥هـ)؛ **الرسالة القشيرية**؛ تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ١-٢.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **جامع الترمذي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.